

# رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة

محور العدد  
رسول الإنسانية

السنة الرابعة - العدد الرابع عشر - ربيع الثاني ١٤٢٩ هـ - أبريل ٢٠٠٨ م

١٤

اقرأ فديو كذا على

- ◆ الشخصية الجاذبة للرسول الأكرم ﷺ
- ◆ الرسول ﷺ مبعث الرحمة العالمية
- ◆ من عوامل نجاح الرسول ﷺ في دعوته
- ◆ الخصائص المحمدية
- ◆ نبينا ﷺ مبادئ وقيم
- ◆ عندما تتعدد الوجوه وتتبدل !!
- ◆ وقفة صادقة مع عابد الهوى

Resalat Alqalam

# رسالة القمر

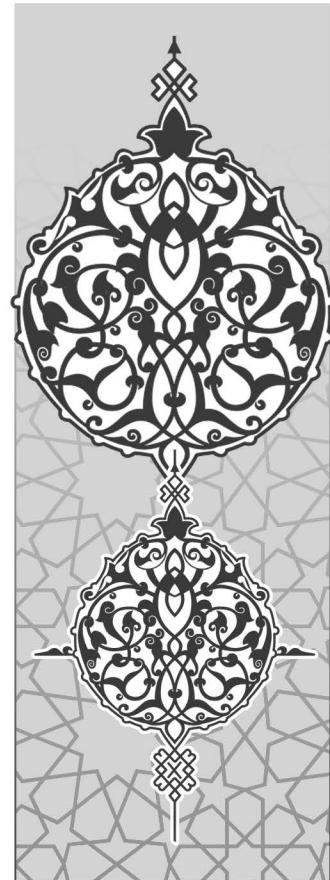
## إسلامية ثقافية شاملة

فصلية تصدر عن

طلاب البحرين في الحوزة العلمية  
بمدينة قم المقدسة

برعاية

مكتب البيان للمراجعات الدينية



- المشرف العام والمدير المسؤول:  
عبد الله علي الدقاق
- رئيس التحرير:  
علي أحمد الكريباudi
- مدير التحرير:  
علي أحمد الجفيري
- هيئة التحرير:  
عبد الرؤوف حسن الربيع  
عزيز حسن سلمان  
غازي عبد الحسن إبراهيم  
فاضل عبد الجليل الزاكي



- ٥ الشخصية الجاذبة للرسول الأكرم ﷺ  
حوار مع سماحة العلامة الحجة الشيخ جعفر الهادي
- ٢٥ الرسول ﷺ مبعث الرحمة العالمية  
عبد الرؤوف حسن آل ربيع
- ٣٤ من عوامل نجاح الرسول ﷺ في دعوته  
أحمد إبراهيم نوار
- ٤٣ الخصائص الحمدية  
عزيز حسن الخضران
- ٦٦ نبينا ﷺ مبادئ وقيم  
قصي الشيخ علي العربي
- ٩٠ عندما تتعدد الوجوه وتتبدل !!  
رائد ميرزا الستري
- ٩٩ مناقشة كتاب «آل البيت وحقوقهم الشرعية» (الحلقة الأولى)  
حسن عبد الله القصاب
- ١١٦ إعجاز نغمات آيات القرآن  
سعيد جعفر حماد
- ١٣٥ الطائفية البغيضة...قراءة في فكر سماحة العلامة الشيخ عيسى أحمد قاسم  
غازي عبد الحسن إبراهيم
- ١٥٨ حرمة نكاح أبي المرتضى في أولاد المرضعة وصاحب اللبن  
علي فاضل الصدقي
- ١٧٠ وقفية صادقة مع عابد الهوى  
جعفر سليمان آل طوق
- ١٩٢ المنهجية الصحيحة لدراسة العلوم الدينية (الحلقة الأولى)  
محاضرة لسماحة العلامة الشيخ معين دقيق



## عندما تسقط الراية يسقط الجميع

يرى المبصر عيناً قول رسول الله ﷺ : «ما أؤذي نبيٌّ مثل ما أؤذيت» فلا يحرق قلبه لما يلاقيه عليه وآله من أذىً وتهينٍ وإسقاطٍ من قبلٍ من لا يؤمن به أساساً بقدر الألم الذي يعتصره من تهينٍ من انبرى للدفاع عن حرميه عليه وآله وهو لا يعلم أنه يدك راية الرسالة دكاً. فهما فريقان إذن، فريقٌ كافرٌ نثله الدنمارك في هذا العصر، وفريقٌ يتاجسر على مقام الخاتم عليه وآله باسم الدين، وهنا رسالتان، رسالة للدنمارك وللعالم الكافر، ورسالة للمسلمين المسيئين.

أما الرسالة الأولى فإنَّ من الأحرى بمن يمتلك ذرةً من الإنصاف والموضوعية، والأكاديمية، والحيادية في إصدار التقييمات أن يقف وقفه تأملِّ أمام هذه الشخصية التي يدعى المسلمين أن لها شأنًا في أقصى قمم الرفعة، وقفه لقراءة سيرته العطرة، وتصفح تاريخه الزاكي عليه وآله، فهي دعوةٌ لقليلٍ من التريث والتوقف، واستيفاء كل مقدمات اليقين الموضوعية قبل النزول إلى الشارع، وهتكُّ الحرمات، وحرق كتاب الله، فهل يكتفى من العاقل أن يقطع بأي معلومةٍ فيحرق الأخضر واليابس بدعوى العلم؟! مع ملاحظة أنَّ العاقل لا يرتب أثر هذا العلم، بل يحتاط في مثل هذه الموارد؛ بمعنى أن يتهم نفسه، ومقدماته، وقطعه، واطمئنانه، بل بمعنى أن علمه ليس بعلمٍ، فأنا له الاطمئنان بسوء الرسول، والرسالة، والقرآن وهو بعد لم يتأمل آياته آيةً آيةً؟! ولم يطلع على دعاوى المسلمين والتي هي أدلةً دامغةً على خطر الرسول عليه وآله، بل على عدم تناهي عظمته، وعظمة كل نشأةٍ من نشأت وجوده المبارك عليه وآله؟! فهل يكتفى من المزارع أن يقطع بأنَّ المريض لا يُعافي إلا إذا قطعْتْ قدمه؟! أو أنَّ عليه أن يكون بحجم المقطوع فيه؟ ولا كلام لنا عن محركية قطعه، فإنَّ الجنون يركض إذا تصور ما يجبه، وإنما وظيفتنا التنبيه، فتنبيه الغافلين جزءٌ أساسٌ في رسالة الدين، فإذا فهمت بعض دعاوى المسلمين، وصارت مورداً للتأمل علم العاقل أن سقوط هذه الراية هو سقوط لكل فضيلةٍ، وكل خيرٍ، وكل

كمالٍ، بل كلَّ وجودٍ أو كمالٍ وجوديٍّ، فهي تمثلُ وجهَ اللهِ، وجلَّهُ، وصراطَهُ المستقيم، ومصدر فيضِهِ، والفلكُ الذي يدورُ عليهِ التكوين.

**وأمّا الرسالة الثانية فللداخل الإسلامي** نقول بأنَّ مشكلتنا لا تزال مع القطع، وما أدركَ ما خطورة القطاعين؟!! فذاك يقاتلُ علياً عَلَيْهِ الْكَلَمَ وَقد طعن بالرمح في صدره وهو يقول: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَى﴾، وهذا يقطع رأسَ المسلم ويرجو بذلك الدرجات العالية، فإذا صور علينا الكلام بدعوى هذا العلم وهذا القطع، فليس من حقنا أن نسكُت، بل يحتمُ علينا تكليفنا أن نصرخ في آذانهم بما تملّكه حناجرنا من صوتٍ فنقول لهم: «أنتم لستم قاطعون، أنتم جهلةٌ، وما تحسبونه هبّينا هو عند الله عظيمٌ، ولقد منَ الله على كلِّ إنسانٍ بطاقةٍ فكريٍ محدودةٍ، فدونكم المواقع والقصص والأمثال، ودعوا غير ذلك لغيركم» فعسى أن يتزلزلَ هذا القطع.

وليس قطع الرؤوس هو آخر إساءةٍ لسمعة الدين ولسيّد المسلمين عَلَيْهِ الْكَلَمُ ، فالإساءةُ المباشرةُ لشخصه - روحي فداء - تطوح بها كتب المسلمين، فالمرري بنا أن نظرَ كتبنا من مثل أنه عَلَيْهِ الْكَلَمُ يهجر، أو أنه غلب عليه الوجع، أو أنه كان يبول واقفاً، أو أنه كان يشك في نبوتِه، أو أنه كان يحمل عائشة على كتفه لمشاهدة لعب الحبشة وخدّها على خده، أو نومه على فخذها حتى يطلع الفجر، أو أنه كان يغمز ما برجله وهو في حالة الصلاة، أو أنه كان يحضر ضرب الدفوف في مني، أو أن المغنيات كن يغتنين بحضورته... وغير ذلك كثيرٌ.

فتتصحّح كتبنا صار أكبر همّا حتّى قدمناه على تصحيح عمل رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ ، ثم إذا قام مستشرقٌ يصفُ رسولنا بأنه رسول المجنون والمربي والنمساء ولدتُ فينا الغيرة بنحوٍ فجائيٌ!

رئيس التحرير

# الشخصية الجاذبة للرسول الأكرم ﷺ

في حوارٍ مع سماحة العلامة الحجة الشيخ جعفر الهايدي

حاوره: علي أحمد الكريبابادي

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على خير خلقه الطاهر المطهر النقى المصطفى محمد رحمته للعالمين، الذى به يُسلك إلى الرضوان، وبه تقوم قائمة الأكون، وعلى آله المصطفين الأخيار الذين اختصّهم الله بكرامته، واجتباهم من برّيته.

إنَّ ما يقع القلب ويدمي الفؤاد أن تتطاول أيدي العبث والجهل على شخصية كشخصية رسول الرحمة محمد ﷺ، ولا شخصية كشخصيته، ولا يتصور في عاقلٍ - لو اطّلع على حقيقة تلك الشخصية العظيمة - إلا أن يهوي على رجليه الشريفتين مقبلاً لاثناً مستغفراً، فما أجرأهم على الله وعلى رسول الله! وما أكثر تصويرنا عن الذبّ عن شخصه الكريم بأقلامنا ومقاؤلنا! وهو الذى كان لنا في كلّ سكتاته وحركاته، وشهيقه وزفيره، وجوده بنفسه واحتضاره بين يدي علي عليه السلام، ألا نكون له فيما أوجب الله له علينا من حقٍّ؟! في بيان فضائله وفضائل الله ومحاسن كلامهم، وهم الذين لو عرف الناس محسناتهم لاتبعوهم.

وفي هذا السياق ارتأت «رسالة القلم» أن تجري حواراً مع سماحة الأستاذ العلامة الشيخ جعفر الهايدي ليتعرف العالم على شيءٍ من بحر فضائله ﷺ، فكان كالتالي:

❖ السلام عليكم سماحة الشيخ ورحمة الله وبركاته.

❖ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

❖ بدايةً نود أن يتعرف العالم على شخصية الرسول ﷺ، فماذا تمثل شخصيته - صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين - بالنسبة للمسلمين، وبالنسبة لأهل الأديان التوحيدية الأخرى؟

❖ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، المصطفى أبي القاسم محمدٌ وعلى أهل بيته الطاهرين المدحاة المهديةين.

في شخصية الرسول الأكرم ﷺ جوانب كثيرة يطول المقام بذكرها وبيانها، حتى والإشارة إليها، لكنّ أبرز جانب في شخصية رسول الله ﷺ هو الجانب الإنساني والأخلاقي، فإنّ الرسول الأكرم ﷺ كان إنساناً بكلّ معنى الكلمة، بمعنى أنه كان يتحلى بالصفات الإنسانية النبيلة، وكان يحبّ الإنسان ويريد هدايته وإرشاده، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في موضع عديدة، أشار إلى هذا بشكلٍ أو آخر، ففي مكان يقول الله للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثُرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>، فمن هذه الآية يظهر أنّ النبي ﷺ كان حريصاً على أن يهدي الناس وينقذهم من الضلال، حتى أنه إذا رأى قومه لا يؤمنون به، ووجدهم يستمرون في ضلالتهم، يحصل عنده حزنٌ وتالمٌ، وقد نهى القرآن عن ذلك إذ قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾<sup>(٢)</sup>.

فقد كان رسول الله ﷺ لا يترك فرصةً مناسبةً للدعوة والتبلیغ إلا ويقوم بهذه المهمة بشتى الأساليب الجذابة، وكان إذا رأى في إنسانٍ كافرٌ، أو مشركٌ، أو يهوديٌّ، أو نصراويٌّ أملأ في المداية - ولو بنسبة واحد في المائة - يهشّ ويبشّ في وجهه، ويدعوه إلى الإسلام، وكان هذا خلقه ودأبه دائماً.

كان هذا دأبه إذا أمل في أحدٍ أن يهدي ولو بنسبة واحدٍ في المائة، نعم كان

يُهشّ في وجهه ويُبَشّ عسى أن يهديه، كان عنده جاذبة، يحاول أن يجذب، وليس طاردة، أي أنه يطرد، على العكس من بعضاً حيّث يطرد حتى المؤمن، ولذلك أشار القرآن إلى النبيّ ووصفه بأنه ما كان يطرد أحداً، أو أنّ عليه ألا يطرد أحداً، فهذه الجاذبية والجاذبة وعدم وجود الدافعة والطاردة في حياة رسول الله ﷺ جعلت منه شخصية نادرةً، وفي هذا الجانب مجالٌ كبيرٌ للحديث ولذكر القصص والأمثلة، ولو أنّ الفضلاء وأهل العلم أعطوا هذا الجانب شيئاً من وقتهم وبحثوا في الأدلة على هذا الجانب لتتألف من ذلك كتاب من ٥٠٠ صفحة، وهو ضروريٌ لنا هذا اليوم كمسلمين، وكأتباع رسول الله ﷺ، حتّى ندعو الناس إلى الإسلام ونوفق إذا سرنا على هذا النهج.

أنتم لو درستم القرآن بدقةٍ لرأيتم عناد قومه في البداية وتحجّجهم وأذاهم لرسول الله وجفافهم وجفافهم، ولشاهدتم كيف عاملوا رسول الله هذا الإنسان الظاهر المحبّ لهدايتهم، الذي كان أحياناً يضيق صدره ويتألمّ عندما يراهم مصرّين على الضلال، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾<sup>(٣)</sup>، حتّى أنه كان يحزن لأبي هبٍ أنه لماذا لا يهتدى؟ حتّى عن أبي هبٍ كان لا يجبّ له أن يصير من أهل النار، وهذا كان يصرّ ويلاحّ على الهدایة.

هذه الروحية إذا درسناها ووقفنا عليها واطلّعنا عليها جيداً في ضوء الأمثلة والأدلة الكثيرة وانتقلت مسحة منها إلينا لاستطعنا أن نهدي كثيرين في هذا العصر. هذا عن القسم الأول من السؤال، وأما القسم الثاني من السؤال - وهو ما يرتبط بالمسيحيّين - فنقول إن المسيحيّين في هذا اليوم - وبتحرّيكٍ من الصهاينة واليهود، وأيضاً من نفس المسيحيّين هناك - قد اغتّموا - ويعتمّون - لما يرون من نجاحاتٍ للمسلمين، خصوصاً في العصر الحاضر، فأنا أسمع أحياناً بعض الفضائيّات وبعض

الإذاعات العربية والأجنبية أن هناك إقبالاً عجيباً في أوروبا على الإسلام مثلاً. وهذه النجاحات في الإسلام قد تحققت مع أن تبليغنا ضعيف، وكذا إنفاقنا ليس بذلك الشكل الذي تقوم به الكنيسة؛ فإن خدماتنا، ومستشفياتنا، ومدارسنا، ليست كما يعملون، خصوصاً في المناطق الفقيرة في العالم، ومع ذلك نلاحظ أن المنطق الإسلامي، والفكر الإسلامي، والحقيقة الإسلامية الآن أصبحت بشكلٍ تجذب الآخرين من دون مبلغ.

لقد كان القرآن الكريم في الغرب مهملاً في المكتبات ولا يُشتري، وكذا الكتب الإسلامية، ولكن بعد حادثة سبتمبر في أمريكا، أقبل الناس على الكتب الإسلامية وأخذوا يشترون حتى الكتب القديمة ليتعرفوا على الإسلام، وهذا حاول قادة الغرب الكفار تحذير شعوبهم من الإسلام والمسلمين، بل حتى كبار المسلمين منهم كالبندكتيت البابا الكاثوليكي، فقد دخل هذا الميدان بصرامة وتجاسر على النبي الأكرم ﷺ، وأخرجوا أخيراً فيلماً سيئاً حول القرآن باسم الفتنة، كلّ هذا لتضييف الإسلام والحطّ منه، ولكن الذي حدث كان على العكس من ذلك، كما قال القرآن: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتَمِّنُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

فهذا الشيء كيف يمكن أن نقارنه ونقاربه؟ إنّ أنجح طريقة هي أن نعرض الجانب الإنساني والأخلاقي للنبي ﷺ حتى يخجلون، ويرتدعون، نحن نحتاج إلى كتبٍ إلى مؤلفاتٍ، إلى مجلاتٍ، إلى أفلامٍ، إلى أشرطةٍ.

أنا ذهبت إلى أمريكا وبقيت شهراً فيها، وكان عندنا في أيام الكريسميس مؤتمراً قبل ٢٠ سنة في أرلينغتون، في دلس في الولاية الجنوبية لأمريكا في تكساس، ثم سافرت إلى كاليفورنيا، وهي الولاية التي تقع غرباً، وذهبنا إلى لوس أنجلوس - التي

هي في ولاية كاليفورنيا. وألقينا محاضراتٍ في جالياتٍ مختلفة، خليجية، وعراقيّة، ولبنانيةٍ وغيرها، ولم نرَ مثل هذه الهجمة على الإسلام في ذلك الوقت، ولكننا نرى الآن هجمةً عجيبةً وصريحةً حتى من البابا على النبيّ الأكرم ﷺ.

أنا مررت بالكثير من مطارات أمريكا، كنت أنتقل للمحاضرات، فوجدت في المطارات مجلةً مسيحيةً اسمها: (THE TRUTH)، (الحقيقة)، وقد عُرضتُ بالمجان، فأخذتُ نسخةً ورأيتُ مكتوبًا عليها: يُطبعُ من هذه المجلة خمسة ملايين نسخة أسبوعيًّا، ولما رجعت إلى إيران ذهبت إلى بيوت أحد المراجع العظام دام ظله وقلتُ له: مولانا، مجلةً واحدةً مسيحيةً تتحدث حول المسيحية اسمها: (الحقيقة)، وهذه نسخة منها، رأيتها توزع مجانًا في كلّ مطارٍ توجهتُ إليه، وتطبع خمسة ملايين نسخة في كلّ أسبوع، فسحب (جارورةً) من صندوقٍ كان أمامه يجعل فيه أوراقه والحقوق الشرعية، وأخرج نسخةً من هذه المجلة، وقال: يبعثون إليّ منها كلّ أسبوع أيضًا!! قلت: مولانا، لا أستطيع أن أتكلّم بعد هذا، لنتحرّك قليلاً إذن!

نحن لو يُطبع عندنا كتابٌ عشر مراتٍ لا يصل نصف مليون، وتلك مجلةً تطبع خمسة ملايين نسخة كلّ أسبوع!

نحن نحتاج في عرض الصورة الحقيقة لرسول الله ﷺ، نحتاج إلى أنشطةٍ من هذا النوع، وفي هذا المستوى، وفي هذا الحجم والشعاع لكي نؤثّر ونقف أمام هذه الهجمة الواسعة.

❖ ما هو جواب المسلمين حول إشكالات الأعداء العنيفة فيما يتصل بالرسول ﷺ من قبيل أنه كان يسبّ - وبحسب تعبيرهم - قام بمجزرةٍ في يهودبني قريضة، وأنّ تعاليم القرآن الجهادية تعاليم إرهابٍ وقسرٍ؟

❖ مع الأسف هؤلاء ينظرون إلى الأمور بعينٍ واحدةٍ ومغرضةٍ، هؤلاء لماذا لا

ينظرون إلى المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ أول ما جاء إلى المدينة مع اليهود؟! إنها أفضل ميثاقٍ لحقوق الإنسان، ميثاقٌ واقعيٌّ وحقيقيٌّ لحقوق الإنسان، وهو موجودٌ في سيرة ابن هشام، وهو مطبوعٌ بشكلٍ مستقلٍّ أيضاً، ولكن مع الأسف لا يبرزه المسلمون، وهذا أيضاً من تقصير المسلمين!!

هذا يجب أن يجعل في مسابقةٍ وتبيّن نقاطه، ويقوم الكتاب والمفكرون بتحليله ومقاييسه مع ميثاق حقوق الإنسان.

ميثاق حقوق الإنسان صار له حوالي ٥٠ سنة، ومع هذا أخذَتْ عليه إشكالاتٌ كثيرةً، وترى فيه نواصحاً، بينما ترى قبل ١٤٠٠ سنة لما دخل النبي ﷺ المدينة عقد ميثاقاً مع اليهود، سمّي فيه عشائرهم وقبائلهم، فمن البداية أراد النبي أن يتعالى معهم، ويحميهم من المشركين، ولكنّ هؤلاء مع أنّهم كانوا يشتركون مع الإسلام في كونهم يرجعون إلى إبراهيم الخليل عليه السلام - والإسلام هونبياً وديناً ومسلكاً يرجع إلى إبراهيم الخليل عليه السلام - يخالفون النبي الأكرم ﷺ ويعارضون دينه ويتأمرون عليه.

بينما كان المشركون على العكس من ذلك، خلاف الإبراهيمية، وخلاف التوحيد، وخلاف الإسلام، «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»<sup>(٥)</sup>، ولكنّ اليهود كانوا يتعاونون مع المشركين ويقولون لهم: أنتم أحبّ إلينا من محمدٍ، ويتأمرون، وأكثر الحروب التي أثارها أهل مكة ضدّ رسول الله ﷺ كانت بتمويلٍ يهوديٍّ، منها على سبيل المثال - معركة الأحزاب (المخندق)، حيث كان المال من اليهود والرجال من المشركين، وكذا أكثر الحروب، فخانوا خيانةً وراء خيانةً.

القرآن ثلثه أو ربعه سجالٌ مع اليهود، سجالٌ وجدالٌ مع اليهود، بينما النصارى لم يكن عندهم هذا الأمر، اليهود من البداية كانوا فتنـة، حتى بالنسبة لنبيهم

موسى عليه السلام، كانوا أذيةً وفتنةً وخيانةً وتجحّجات، تحجّجات بني إسرائيل معروفة، النبي ﷺ كان إنسانياً معهم من البداية، أرجوكم أن تراجعوا سيرة ابن هشامٍ عند ماذا عقد النبي الأكرم معهم، اقرؤوه، وأرجوا أن تؤلّفوا أنتم شخصياً كتاباً حول هذا الميثاق وتقاييسوه مع حقوق الإنسان، الآن يجب أن نبين هذا الميثاق، ونضعه على الواقع الإلكتروني، ونرّوج تحت راية هذا الميثاق للنبي ﷺ، ونقيم مجالس ومؤتمرات، أنتم تحجّجون ببني قريضة، لأنّ النبي ﷺ قتالٌ وذبائحٌ للناس!! والحال أنّ النبي ﷺ محمداً رحمةً للعالمين.

لماذا تظرون بعينٍ واحدة؟! لماذا تסקون بالعصى من الوسط؟! انظروا كيف أنّ النبي ﷺ من البداية تعامل معهم إلى أن أوصلوه إلى هذه النقطة، ومع ذلك كان رؤوفاً بهم! وإلى الآن كلّ ما يجري على الإسلام ضدّ الإسلام هو من جانب اليهود، لقد تعاقد النبي ﷺ مع بني النضير، وبني قريضة، وبني قينقاع، على التعايش السلميّ، ولكنّ اليهود نقضوا العهد وتجاسروا عليه، وهم كشفوا عورة المسلمين، وهم تآمروا عليه، وهم أرادوا أن يطعنوا النبي ﷺ من الخلف في قضية الخندق، والنبي ﷺ اضطر إلى تأديبهم، ومع ذلك هو لم يقضِ فيهم بالقتل، بل فوض الأمر إليهم، إذ قال: من يقضي فيكم؟ قالوا: نقبل فلاناً، فهم اختاروا أحد حلفائهم، وهو الذي قضى فيهم، إذ قال: كلّهم لا بدّ أن يُقتلوا، إنّهم خبثاء، خونةٌ لا بدّ أن يذبحوا.

إنّ النبي ﷺ لم يقض فيهم بذلك القضاء، ولكن دعنا نرى المقدمة التي أوصلت المسلمين والنبي ﷺ إلى هذه النتيجة، وهل أنّ هؤلاء - مع أنّ النبي ﷺ لما رحمهم وسكت عنهم كثيراً - تركوا أفاعيلهم؟ أم تآمروا وتواطأوا وباستمرار؟! حتى أنّهم أدخلوا في أحاديث المسلمين الإسرائييليات، ولعبوا بأشياء كثيرة، واقتربوا قتل المسلمين، ونفذوا في جهاز الحكم بعد النبي ﷺ، فالنبي ﷺ ماذا يفعل بهم؟ إنّ النبي ﷺ كان

رحيمًا ورؤوفًا بهم، وهم جرّوا على أنفسهم ما وقع في بني قريضة، ولذلك هذا ظلمٌ  
أن نقول إنَّ النبِيَّ كان خشناً معهم، عنيفًا معهم، غير رحيمٍ بهم.

❖ ما هي الأسباب التي دعت الدنمارك إلى هذه الإساءة؟ ولماذا هذا الإصرار  
على ذلك؟

❖ الحقيقة إِنِّي أرى أصابع الصهيونية خلف هذا الأمر، الشيء الذي قلَّ ما  
يعرفه المسلمون الآن، إِنَّ اليهود والصهاينة ينفذوا في كلِّ أجهزة الحكم في العالم، حتَّى  
في روسيا، أمَّا في الولايات المتحدة الأمريكية فهذا شيءٌ معلومٌ، فالجميع يعلم أنَّ  
وراء الجهاز الحاكم في أمريكا اللوبي الصهيونيُّ، وهو عبارةٌ عن ثلاثة شركة يسمى  
مجموعها اللوبي الصهيونيُّ، وعندهم خطَّةٌ لا بدَّ أن ينفذوا في أجهزة الحكم، إِمَّا  
أن يكون الرئيس - أو تكون زوجته - من اليهود، ولكنَّ هؤلاء جميعًا يعملون  
ويمأدون بأوامر الصهيونية، فأنت لا تستبعد أن يكون في الجهاز الدغاركيُّ الحكوميُّ  
عناصر من اليهود، هؤلاء جميعًا الآن في حالة غضبٍ على المسلمين؛ لأنَّ إسرائيل ما  
كانت تفكَّر مطلقاً بحزب الله والثورة الإسلامية، ولما حدثت الثورة الإسلامية قال  
موسي ديَّان: لقد حدث زلزالٌ، مع ذلك كانت إيران بعيدةً عنهم، والآن صارت  
إيران على مقربةٍ منهم.

إِنَّمَا كانوا يفكرون أصلاً في هذا، الآن انهارت إسرائيل، الغطرسة الإسرائيليَّة  
ولَّت، وإسرائيل منهارةٌ، فعلاً منهارةٌ، لذلك لا يتمكنون من الحركة أصلًا، فالآن  
يريدون أن ينتقموا من الإسلام، وإذا قبلنا بهذه المقوله: إنَّ الصهاينة الآن متغلغلون  
في جميع أجهزة الحكم، في المنظمات العالمية، في هيئة الأمم، وفي كلِّ مكانٍ، لذلك  
نرى الكلَّ يتحامل على النبِيِّ الأكرم ﷺ، وعلى القرآن الكريم، وعلى الإسلام، وهذا أمرٌ واضحٌ جدًا، يدركه من له شيءٌ قليلٌ من الفهم السياسيِّ والاطلاع على

التاريخ.

لقد كان المشركون في صدر الإسلام أيضاً ينشدون ضدّ رسول الله قائلين:

مذمماً قلينا ودينه أبينا

وكذا وكذا، فنفس النغمة التي كانت تخرج من حنجرة المشركين تُسمعُ الآن أيضاً من حناجر اليهود ومن لفّ لهم؛ لأنهم كلّهم في حالة غضبٍ من انتصار الإسلام، وإن إسرائيل ما كانت تفكّر مطلقاً في الثورة الإسلامية ونجاحها، ثم في ظهور حزب الله، ثم في تعاطف قسمٍ كبيرٍ من الفلسطينيين مع الثورة الإسلامية.

العالم كله الآن يتعاطف مع الإسلام ومع الثورة الإسلامية، وثبت أنّ أمريكا لا يمكنها أن تفعل شيئاً أمام هذا المد الإسلامي الجارف، فهم يموتون من الغيط، **﴿قُلْ مُؤْتُوا بِعِنْدِكُمْ﴾**<sup>(٦)</sup>، و من غيظهم الآن يتجرسون على رسول الله ﷺ، نعم، نحن لا بدّ ألا نبرّ ونسكت، لا بدّ أن نعمل؛ لأنه ربما باستمرار هذا التجاسر يصلون إلى درجة يتأثرّ منها حتى المسلمين، لا بدّ أن نعمل ونواجههم، طبعاً مع رعاية الاحترام للأنبياء عليهما السلام، فنحن لا نستطيع أن نقابلهم بالمثل، لكن يمكننا أن نبيّن أغراضهم الفاسدة، ونكشف عن أهدافهم المريضة، ونواياهم الخبيثة من الإساءة إلى الأنبياء عليهما السلام، ونبيّن شخصيّة الرسول ﷺ، ونعمل بشكلٍ واسع لخدمة هذه الشخصية العظيمة، أقصد شخصيّة رسول الله ﷺ.

❖ شيخنا، قبل فترة كان هناك برنامج على بعض القنوات العربية يوضح أن الدنمارك شاركت في ملاحقة طالبان وتنظيم القاعدة في أفغانستان، وقد احتكّ بهذه الجماعة، وبهذه الثقافة، ثقافة التكفير وقطع الرؤوس، ألا تعتقدون أن ذلك كان سبباً وعاملًا مهمًا في الإساءة لشخصيّة الرسول الأكرم ﷺ وللدين

الإسلامي من قبل الغرب؟ حيث إنهم قرروا الإسلام من خلال هذا الصنف من الناس، ومن خلال هذه الثقافة الدخيلة على الدين.

❖ طبعاً، طبعاً، للأسف القاعدة وطالبان والجماعات الموجودة في العراق - الذين اغترّوا بهم وتأثّروا بأفكارهم وأفعالهم كالقتل على الهوية وعلى الطائفية وما شاكل ذلك - أسوأوا إلى الإسلام جداً، وإذا توجد إهانات للمسلمين في الغرب، فبعضنا هو السبب؛ فإنّهم يقولون لنا: إنكم إذا كنتم لا ترحمون أنفسكم تريدونا أن نرحمكم نحن؟! أنتم الذين لا تتعاطفون فيما بينكم، لا تحترمون أنفسكم، تريدونا أن نحترمكم نحن أيّها الإرهابيون؟! لا بدّ أن نذلكم، أن نأسركم، وقد يكون هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَنَذَهَبَ رِيحُكُم﴾.

تدرؤن الله في السجون الغربية كيف يهينون النساء المسلمات والمسلمين؟! إنّه من غير المستبعد أن يبكي الرسول الأكرم ﷺ في عالم الملكوت لما وصل إليه المسلمين اليوم، إنّ الإمام علي عليه السلام حزن وانزعج لما سمع أن جيش معاوية دخل إلى الأنبار ونزع أحدهم من امرأة مسيحية خلخالها وزينتها ولم يمس ساقها، أجل، إنّ الإمام علي عليه السلام تأثر لما سمع بذلك وقال: إن ذمّيّة في حكومتي وتحت مظلتي هكذا تهان ويجري عليها ما يجري؟! فكيف إذا كانت مسلمة؟! نحن نرى الآن نساء المسلمين، وأعراض المسلمين، ونوميس المسلمين، وشباب المسلمين، وأطفال المسلمين، في سجون الإنجليز، في سجون الأميركيين، في سجون الغرب، وفي سجون إسرائيل، ترتكب في حقّهن أسوأ الجنيات وأفظعها، مع الأسف.

من الذي علمهم هذا؟! ومن الذي جعلهم يتجرّون؟! أليس تصرفات هؤلاء الذين ذبحوا - وباسم الإسلام - شيعة أهل البيت عليهما السلام كالخراف، على الاسم، والانتفاء إلى أهل البيت عليهما السلام؟!

❖ إلى أين سيتهي الأمر بين المسلمين وبين مهاجمي الرسول ﷺ بنظركم الشرييف؟

❖ المسلمين لا بدّ أن يقوموا ويقفوا وقفه رجلٌ واحدٌ، أوّلاً تدرؤن أنَّ العالم هذا اليوم يتلخّص في الاقتصاد، كلَّ الدول عندها مصانع تعمل ليل نهار وتنتج أغذيةً وألباناً وأجباناً وكذا وكذا، وكثيرٌ منها من الدغارك، ومن هنا وهناك، وسوقهم الشرقي، سوقهم بلاد الإسلام، فلو دخلت «سوبرماركت» في الكويت، أو في دبي، أو في الشارقة، وأنا كنت فيها قبل ثلاث سنوات، هل هناك بضاعة إسلامية؟! هل هناك أكلة إسلامية، أكلة من بلاد المسلمين؟! أنا لا أقول بعدم وجود ذلك بنسبة ١٠٠٪، لكن ١٠٪ من البلاد الإسلامية، و٩٠٪ من الغرب، ونحن في منطقة كبيرة رقعتها واسعة، وسكنّانها مiliارd ونصف مسلماً يستهلكون الأجبان، والألبان، والزبدة، وكذا وكذا من مختلف الأطعمة والأشربة المستوردة من الغرب، وكلَّ مصانعهم تدور على أكتافنا، وبحالنا، حتّى أموالنا توجد كاستثمارات هناك، لو نسحب استثماراتنا من بنوكهم، ونقول: لا نريد أجباناً، ولا نريد ألباناً، لا نمتلك نحن أرضاً؟! لا نمتلك تراباً؟! لا نمتلك شمساً؟! كلَّ منابع الطبيعة لدينا، لماذا لا نستثمر ذلك؟! لماذا يجب أن نعتمد عليكم؟! لوفعلنا هذا الانتهى كلَّ شيء.

أقول لكم شيئاً تتعجبون منه، قبل أسبوعين أنا كنت في بلدٍ في بيت أحد الإخوان، ففتح قناة الجزيرة، فرأيت شاباً ملتحياً يجري اللقاءات الدينية مع بعض الشخصيات، رأيته يجري لقاءً مع رئيس الغذاء والزراعة في هيئة الأمم - وهو شخصٌ أفريقيٌّ، ولكن يبدو أنه صاحب شخصيةٍ وثقافةٍ عاليةٍ. فقال له: أستاذ فلان، ما هي أخبارك؟

فقال الأفريقي بلغةٍ إنجليزيةٍ: أخبار الغذاء سيئة جدًا، غلاءٌ وتضخمٌ، وأمريكا

حبست قمها وحبوها لتولّد منها طاقةً كهربائيةً بدل النفط، وهناك أزمةٌ في كل البلاد بما فيها الخليج.

فقال له: إذن المجتمعات مقبلةٌ على الجوع؟! قال: نعم. قال: ما هي النتيجة التي ستحدث؟ فقال الضيف الأفريقي - وهو مسيحيٌ - : قال الإمام علي عليه السلام: «ما دخل الفقر بلداً إلا قال الكفر خذني معك»، العالم مقبلٌ على الكفر، وعلى الفساد العقدي، وعلى الانفجار.

قال المقدم: هذا قاله علي بن أبي طالب؟!

أنا أعجبني هذا الأفريقي أنه أخذ هذه الكلمة من عند الإمام علي عليه السلام، وطبعاً الإمام علي عليه السلام له كلماتٌ كثيرةً بهذا النحو: «ما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غنيٌ»، «ما رأيت غنى مفرطاً إلا ورأيت إلى جانبه حقاً مضيئاً».

وفي نفس الليلة قررت أن أجمع من هذه الكلمات بقدار عشرين كلمةً وأعطيها لبعض الإخوة ليترجمها لكي أبعثها إلى هذا الشخص، وأنا كتبت اسمه، واسم عمله، هذا يفهم وشعوبنا العربية لا يفهمون، ومجتمعاتنا لا تفهم، لماذا هكذا؟! لفتخر بأمير المؤمنين عليه السلام، بهذا الحكيم والفيلسوف العربي، فلنأخذ كلامه، إن له ٨٠٠ كلمةً في كتاب (درر الكلم)، كلها في هذه المجالات.

كتب جورج جرداق خمسة مجلّدات: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، الإمام علي وسocrates، الإمام علي والديمقراطية، الإمام علي والثورة الفرنسية، الإمام علي وعصره.

أين المسلمون؟! ما هي قضيتنا؟! يا مفكرينا، يا إخواننا من أهل السنة، أيّها الشخصيات المصرية، أيّتها الأقلام العربية، هذا قائدكم، هذا منكم، كلّ العالم يفتخر به، لماذا أنتم غافلون عنه؟!

فالسؤال: إلى أين سينتهي الوضع وماذا نفعل؟ نقول: المفتاح بيدهنا، يجب ألا نستثمر أموالنا عندهم، ولا نشتري بضائعهم، وألا تكون أسواقنا سوقاً لهم، صدقني غداً سيقبلون أيادينا، ويتمسّحون بأحذيتنا، ويلتمسون متّا أن نشتري من عندهم، لكن حينما يسبّنا أحدهم ثم يستقبله الملوك والأمراء بالأحضان ويقبلونه كما يقبلون ابن عمّهم وابن عمّتهم، أمّا المسلم فيضربونه ويسجنونه، وأنّ التهديد دائماً يأتي من الجمهورية الإسلامية لا من اليهود، وأنّ التهديد على العروبة وعلى القومية وحتى على الإسلام، والتهديد على الدين كله يأتي من إيران - فلا بدّ أن ننتظر المزيد.

انظروا كيف فقدت الكلمات معانيها، والمقاييس انقلب، إذا كان الوضع يدوم على هذه الحالة، هؤلاء يسبّون ويشتمون ويعذّبون أفلاماً، غداً يتّجاسرون حتى على زوجات النبي ﷺ، هؤلاء لا حياء عندهم، أصلاً، أنا أسمع أنّ على شاشات الفضائيات يبثّون الأعمال التي لا يعملها الحمير - أجلّكم الله - ، هؤلاء لا مانع عندهم أن يتّجاسروا غداً على نساء النبي ﷺ، على السيدة أم المؤمنين، وعلى أمّهات المؤمنين، فالغربيون إذا لم نعمل شيئاً، ولم تتحرّك لدينا الحمية الإسلامية والغيرة الإسلامية، غداً يخرّجون فيلماً نجساً يسيء إلى نساء النبي ﷺ، كما كان اليهود سابقاً، أحد اليهود - ولعله ابن المخريق - كان يسبّ بنساء المسلمين، والتّشبّيب نوعٌ من الشعر يذكر محاسن المرأة كأنّا كان معها، بخيالهم الواسع يصوروون وكأنّهم باتوا معها ليلاً، فالنبي ﷺ ازعج من هذا، فبعث اثنين ذجوا ذلك الشخص على فراشه في عملية فدائية، وهذا الأمر جعلهم يتعلّمون عن هذا الموقف الرديء، هذا واحدٌ، وهناك شخص آخر، وهو كعب الأشرف، وقلعته موجودة إلى الآن. فالمسلمون إذا نسوا الحمية والغيرة الدينية والإسلامية والعربية فعل عدوّهم كلّ

شيءٍ، أَمْ إِذَا قَالُوا كَلْمَتَهُمْ: يَا دُنْكَارَكَ، يَا هُولنْدَا، نَحْنُ لَا نَرِيدُ شَرَاءً بِضَائِعَكُمْ، فَإِنَّ  
الْمَوَازِينَ تَتَغَيَّرُ.

في هولندا الآن كذلك، أخرجوها فيلماً جديداً حول القرآن الكريم أسموه (الفتنة) يسيء إلى كتاب الله! إذا قاطعنهم خطوة خطوة نرى كيف تحصل النتيجة. الآن هناك تظاهرات من نفس الشارع في هولندا، من نفس الهولنديين؛ لأنَّ الناس الآن لديهم تجاراتٌ ومصالح اقتصادية، وعندما يرون موقفاً من المسلمين ويحسّون بأنَّ تجارتَهم كسدت وتضررت فإنَّهم سيفاضطون على حكوماتهم، ولكن عندما نرى هذا يسبّ ويُشتم وأنا أستقبله بالأحضان وأذهب وأشتري أجنبانه وألبانه ولحومه.. فإنه يتجرأ أكثر.

❖ هل ترون أنَّ المؤلَّفات المكتوبة حول شخصيَّة الرسول ﷺ بلغت حدَ الكفاية، أمَّا زال هناك قصورٌ وتقصيرٌ في هذا المجال؟

❖ خمسة آلاف كتاب ألف حول النبي حسب ما جاء في كتاب: (ما ألف حول النبي وأهل بيته ﷺ) للدكتور عبد الجبار الرفاعي، وهو يقع في 14 مجلداً، وأنا أقول لكم: النبي تسع حياته لعشة آلاف كتاب؛ لأنَّ جوانب كثيرة في شخصيَّة وسيرة النبي لا تزال غير مبحوثة، وغير مطروقة بالتحليل والاستنباط واستخراج الدروس وال عبر منها، فنبيُّنا الكريم كان عظيماً جداً.

الآن في مولد الرسول ﷺ نحن نرقى المنبر فماذا نقول؟ نذكر ميلاده ﷺ، أمَّه وأباه، وبعض الإرهاصات التي وقعت قبل ميلاد النبي، ومع ميلاد النبي، هذه نقطة في بحر شخصيَّة النبي وقضياته، أين بشائر الأنبياء بالنبي؟! هناك كتب كبيرة مكتوبة حول بشائر الأنبياء، الإنجيل والتوراة، وخصوصاً بالسريانية والعبرية اللغة الأصلية، هناك بشائر حول النبي، أين هي؟! لماذا لا نتكلم عنها؟! لا بد أن تتعلم جماعة منا

اللغة العربية، وجماعة تعلم اللغة السريانية، وأن يلقوا هذه النصوص الدينية في الاحتفالات، ويترجموها حتى يقووا إيان المسلمين، النبي الأكرم ﷺ اسمه (باراكليتوس) في الإنجيل باللغة السريانية، ترجم إلى (فارقليطا)، كان في إنجيل يوحنا، والآن غير موجود في هذا الإنجيل، الآن يوجد باسم المزّي: (لا بد أن أذهب ليأتي المزّي ويعلّمكم كل شيءٍ ويكت معكم إلى الأبد)، إنّ هذا يحتاج إلى جهدٍ يحتاج إلى أن نتعلّم، وللأسف نحن لا نتقن حتّى اللغة العربية!! ناهيك عن العربية والسريانية.

العلامة الشيخ جواد البلاغي رحمه الله الذي أقاموا له مؤوية قبل بضعة أيام، وأنا عندي عشرة كتب من تأليفاته، كان يتعلم في كربلاء وفي النجف، كان يذهب إلى أطفال اليهود ليتعلم منهم المحرّف العربيّة، فكان يعطيهم نصف قوته يومياً من أجل أن يتّعلّم العربيّة، فوقف على التوراة والإنجيل بلغتهما الأصلية ونقدّهما، ولما انتشرت كتبه في العالم كتب له مجموعة من علماء الغرب - بعد أن أشادوا بكتبه - قائلين: يا شيخ، اسمح لنا أن نقول لكم وفيكم شيئاً، نحن نعتبركم أيّها المسلمون جُنَاحاً على البشريّ؛ لأنّ لديكم أكثر من شمعة ولا تشعّلونها، أين أنتم؟! لماذا لا تبيّنون كتبكم؟! حقائقكم؟! شخصياتكم؟! نحن نشكرك على كتابك (الرحلة المدرسية) والمدرسة السيّارة)، نشكرك على كتابك (المهدي إلى دين المصطفى - مجلدان)، نشكرك على كتابك (التوحيد والتثليث)، نشكرك على دراساتك هذه، فأنتم تجعلون هذه الشمعة خلف ستارٍ ونحن في ظلامٍ، لديكم أكثر من شمعة ولا تشعّلونها، والبشرية في ظلام دامسٍ.

فلا بدّ من تقسيم العمل، الطلبة البحارنة مثلاً عندهم ألفاً رجل دين أو أكثر، هؤلاء ليقسموا إلى عشر لجان، كل لجنة تقوم بعمل واحدٍ، لجنة تتبحّر في كتب

اليهود والنصارى وما فيها حول الرسول الأكرم ﷺ والأئمّة علیهم السلام والإمام المهدى علیه السلام، ويذهب عشرون منهم مثلاً لتعلم اللغة العبرية والسريانية، وفي المحاضرات والمنبر ليخرجوا قليلاً عن المألف، ما المانع؟! طبعاً كلّ هذا لا بدّ أن يخرج بنحوٍ محببٍ ليأتي الشباب إلى هذه المجالس، المحاضرات المستمرة، محاضرة في النبي الأكرم ﷺ في كتاب العهدين بنفس اللغة كما كان الشيخ جواد البلاغي في النجف الأشرف يفعل ذلك، لجنة تكون في عملٍ آخر، ولجنة ثالثة، وهكذا، الآن هناك مليون عملٍ لرجال الدين، وبحثٍ موضوعٍ، ولكنّ هذا طبعاً يحتاج إلى جهدٍ يحتاج إلى تضحيّة، يحتاج إلى إنسانٍ يبحث.

انظر، نحن نحتاج إلى لجنة للفضائيات، الفضائيات باستمرارٍ تسيء للإسلام، القناة الفلانية، والفلانيّة، والفلانيّة، باستمرارٍ تسيء للإسلام، كلّ هذه القنوات تسيء إلى الإسلام، إلى رجال الدين، إلى التشيع، إلى الحضارة الإسلامية، بأشكالٍ مختلفة، أو يأتي أنسٌ ليسوا أهلاً للبحث فيبحثون في أشياء عبّنطقي غير سديد، والآن - والله الحمد - الفضائيات الشيعية ازدادت، الأنوار، الفرات.. ولا يقول قائلٌ: هذه القناة تتبع فلاناً، لماذا؟! ما هذا الكلام؟! هل هذا يتبع شمراً؟! أو يتبع ابن سعد؟! كلّهم يتبعون محمداً رسول الله ﷺ، وأولاده الطاهرين علیهم السلام، لنترك هذه المجازيّات، ونعتبر الجميع لنا ونخدم، ونقدّم المحاضرات، ونقدّم المقالات، ليكن في المحاضرات والمقالات حداثةً وعصرنةً، ولكن مع الأصالة لكي نخدم مجتمعنا إن شاء الله.

❖ شيخنا الجليل، بالنسبة لكتاب (سيد المرسلين)، لماذا اخترتم هذا الكتاب للشيخ السبحاني للترجمة من بين بقية الكتب؟ وهل لكم كتاباتٍ مستقلّة أخرى فيما يتّصل بالنبي الأكرم ﷺ؟

❖ في الواقع إنّي كنت شغوفاً بحياة رسول الله ﷺ، وأخلاق رسول الله ﷺ

منذ الشباب، وفي سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين ذهبت إلى بيروت، وعشت في بيروت حوالي أربع أو خمس سنوات هناك، وألقت كراسةً صغيرةً (محمد الإنسان القائد الرسول)، وهو (بروشور) صغيرٌ، كان بداية عملي للنبي ﷺ، فكنت شغوفاً بسيرة النبي حتى أتيت إلى إيران، ما رأيت تاريجاً بهذا الشكل، وهو مطبوع باللغة الفارسية حوالي ٣٠ مرةً، وهو ليس تاريجاً نظلياً، بل هو تاريخٌ تحليليٌ مع الالتفات إلى معطيات العصر الحاضر، ومع اختصارٍ غير مضرٍ، ولا إطالة مملة، فبدأت بتدریسه، ثم نویت ترجمته، أضفت إليه بقدار الثلث، وأخذت جائزةً عليه من رئيس الجمهورية، رئيس المجلس ووزير المعارف الحالي أعطاني جائزةً، واعتبرت ترجمتي من كتب العام للجمهورية الإسلامية قبل سنتين، و مع الأسف فيه نقصٌ في تحليل الجوانب العسكرية مثلاً، وكذا الجوانب الإدارية للنبي والجوانب السياسية، وغيرها.

هذا وعندی رسالةٌ صغيرةٌ تحت اسم (كان رسول الله)، أوردت فيه كل الروايات المصدرة بـ(كان)، التي تبيّن الأخلاق التي كان رسول الله ﷺ مداوماً عليها، وبحجر ذلك طُبعَ ونزل في الإنترت ترجمةً إلى ست لغاتٍ، الأردية، والفارسية، والجاوية الأندونيسية التي يتكلّم بها حوالي ٤٠٠ - ٣٠٠ مليون، والكردية ، فتبين أن المجتمع متعطّشٌ إلى مثل هذا، وخصوصاً إذا كانت دراساتٍ (سندويشية)، يعني أثنا نريد أشكالاً مختلفةً، نريد متوسطةً، واسعةً، في مستوى الجامعة، وثائقيةً، وأيضاً رسائل صغيرةً، تحتاج إلى كل ذلك، مثلاً الآن جاء الميلاد وانتهى، لم يكن لدينا في هذا الميلاد شيءٌ جديدٌ نعطيه للناس، تحتاج إلى كتابٍ في مائة صفحةٍ يتناول أهم القضايا التي تذكر في الميلاد ليتعرف الناس على شخصية النبي ﷺ، في نفس الوقت تجعل منهجيةً لرجال الدين ليسيروا على هذا النهج ويسرحوا هذه القضايا

للناس، فيعرف المجتمع اسم النبي مثلاً، أنه هل يوجد فيه اختلاف؟ فالقاديانية مثلاً - وقد ظهروا قبل ٢٠٠ سنة في الهند. ادعوا أنّ نبي آخر الزمان هو (أحمد القادياني) وليس نبيّنا، فنبيّنا (محمد)، لم يكن يقال له: (أحمد)، وأما قول القرآن: ﴿مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَخْمَدٌ﴾<sup>(٧)</sup> فهو من عندهم، وال الحال أنّ القرآن يأتي باسم (أحمد).

وفي الشعر العربي والإسلامي يوجد (أحمد)، وفي كثير من النصوص يوجد (أحمد)، (يا أحمد، يا أحمد)، في حديث المراج، فأحمد ومحمود كلهما كانت تستعمل في النبي ﷺ، لكن هذا الشخص (أحمد القادياني) جاء وادعى ديناً، وادعى أنه نزل عليه من عند الله، واسمه (البراهين الأحمدية).

والبحث الآخر هو أخلاق النبي ﷺ، وفلسفة زوجات النبي، وقد استفاد منه الغرب أن النبي شهوانٌ، أنّ عنده ١٤ زوجة، وقد أساء الخبيث سلمان رشدي - ولدي قطعة من كتابه - إلى أزواج النبي ﷺ، فهو يصور - وأستغفر الله - بيت النبي ﷺ بأنه بيت فواحش، هذا الرجل مرتدٌ فطريٌ؛ لأنّ أباًه مسلمٌ، وقد أفتى الإمام الخميني تداش بقتله، وللأسف اعترض البعض على هذه الفتوى، ولكن لو لا هذه الفتوى لكانوا يخرجون أفلاماً قبيحةً عن النبي ﷺ.

والقرآن الكريم أثيرت حوله إشكالات من قبل الغرب لا بدّ أن نجيب عنها، وكذا مسألة الوحي أثيرت حولها إشكالات، وهناك كتاب للشيخ المعرفة اسمه (شبهات حول القرآن الكريم)، بعضها لا بدّ أن يلخص في ١٠ صفحات وتكون في ضمن هذا الكتاب، كتاب يتضمن ١٠ مواضيع، كتاب من ١٥٠ صفحة، يطبع وتوزع مليون نسخة منه في ذكرى ميلاد النبي ﷺ، هكذا لا بدّ أن تحبّ ذكرى الميلاد، لأنّ نغفل والغرب يعملون بكل جدية في أعمال أساسية، ويتناولون مقدساتنا بسوء.

الشبهات كثيرة، والآن نحن في عصر الشبهات، وقد أحصاها أحد الشخصيات فوصلت إلى ألف شبهة، اليوم الماركسيّة وهي إلحادٌ ورأوها فلسفة، الشيوعية ورأوها فلسفة، فلاسفة: (هيجل، لينين، ماركس)، الجنس، رأس المال، الكتاب، العقائد، الآن أكثر هذه الإيديولوجيات ورأوها فلسفة، وإن كانت واهية، إلا أن وراءها فلسفة، لا يمكن أن تستخف بكل هذا الكم من الشبهات، انظر ماذا يوجد في هذه الكتب.

البوديَّةُ غائِيَّةٌ شخصٌ يوجَدُ مِنْهُمْ فِي الْعَالَمِ، وَلَقَدْ سَافَرْتُ إِلَى ثَلَاثَيْنِ دُولَةً فِي  
الْعَالَمِ، وَبَعْضُ الدُولِ سَافَرْتُ إِلَيْهَا اثْنَا عَشَرَ مَرَّةً، مَالِيْزِيَا سَافَرْتُ إِلَيْهَا اثْنَا عَشَرَ  
سَفَرَةً، كَرَوَاسِيَا، وَذَهَبْتُ إِلَى زَاغْرَبْ سَتَّ مَرَّاتٍ، وَتَايِلَانْدْ سَتَّ مَرَّاتٍ، أَذْهَبْتُ وَأَرْقَى  
الْبَرِّ وَأَحَاضَرْتُ فِي الْجَامِعَةِ، فِي هَذِهِ الدُولِ جَمَاعَاتٌ هَائلَةٌ مِنَ الْبُودِيَّينَ وَالْهَنْدُوسِ  
وَالسَّيِّخِ، وَأَصْحَابِ الْمَسَالِكِ وَالْمَشَارِبِ، هَؤُلَاءِ لَهُمْ فَلْسَفَاتٌ وَعِنْدَهُمْ مَنْطَقٌ، وَلَا يَكُنْ  
أَنْ تَأْخُذَ الْمَسَأَلَةَ بِهَذَا الْإِسْتَخْفَافِ، أَلَيْسَ مِنْ حَقٍّ هَؤُلَاءِ أَنْ يَتَعَرَّفُوا عَلَى نَبِيِّ  
الْإِسْلَامِ؟! عَدْ مَبْلَغِي الْمَسِيحِيَّةِ عَبَارَةً عَنْ عَشَرِينَ مَلِيُوناً، بَيْنَ قَسٍّ وَأَسْقَفٍ  
وَكَارِدِينَالٍ وَكَذَا وَكَذَا إِلَى الْبَابَا، وَلَدِيهِمْ أَرْبَعَ إِذَاعَاتٍ وَعِشْرَ فَضَائِيَّاتٍ مَسِيحِيَّةٍ،  
وَهِيَ تَبَشَّرُ بِالْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَيَعْنِي هَذَا أَنَّنَا نَكُونُ بَعْدَ خَمْسِينَ سَنَةً فِي خَطْرٍ فَكَرِيٌّ  
وَعَقَائِدِيٌّ؛ لَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي غَفْلَةٍ وَصَرَاعَ دَاخِلِيٌّ، وَنَرِيدُ بِهَذَا  
الضَّعْفِ أَنْ نَدْفَعَ هَذِهِ الْمَجْمَةَ.

❖ ما هي أفضل الكتابات التي يمكن للشاب المسلم أن يستفيد منها فيما يتعلق بشخصية رسول الله ﷺ؟ خصوصاً وأنّ الشباب قد قل إقبالهم على الكتاب، وصاروا يفضلون رؤية البرامج المسجلة وسماعها على القراءة.

❖ أولاً: هذا اليوم كما تفضلتم، كل شيء صار سريعاً، سفرة سريعة، رحلة

سريعةٌ، وجباتٌ سريعةٌ، وطبعاً فإنَّ هذه الوجبات السريعة تخلق أمراضاً وتشنجات أيضاً، ولكن ماذا نعمل؟ نحن في مجال الكتابة أيضاً لا بد أن نستفيد من هذه الوجبات السريعة، لا بد أن نكتب كتاباً صغيرةً.

ثانياً: لا بد أن تكون فيها أشياءً جديدةً، وهذا الجديد كثيرٌ لدى الرسول ﷺ.

وثالثاً: لا بد من أن تكون بأدبٍ جميلٍ محببٍ.

نحن نفتقر - للأسف - إلى الأسلوب الأدبي، لا بد أن نعمل على خط الأدب الحديث، الشباب الآن لا يقرؤون كتبنا لأننا نفتقر إلى الأسلوب الجميل، فإذا توفرت هذه العناصر فإنَّ الشباب سيقبلون على القراءة حتماً.  
والحمد لله رب العالمين.

### المواهش:

(١) سورة يوسف عليه السلام، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

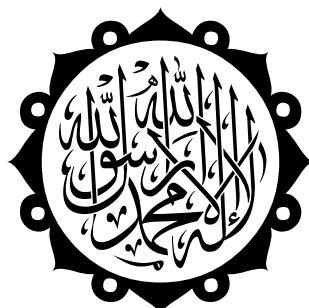
(٣) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٤) سورة الصاف، الآية: ٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

(٧) سورة الصاف، الآية: ٦.



رسول محمد عليه السلام

عبد الرؤوف حسن آل ربيع

كَسَّرَ اهتمَّ القرآنُ الْكَرِيمُ عَبْرَ الْعَدِيدِ مِنْ آيَاتِهِ لِبِيَانِ الْأَبعَادِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ لِلرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ مِنْ مُخْتَلِفِ جَوَابِهَا، وَذَكْرٌ لِهِ بِجَمِيعِهِ مِنَ الْخَاصَّاتِ وَالْمَمِيزَاتِ الَّتِي حَبَّاَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَوْجُودَهُ الْأَقْدَسِ وَرَسَالَتِهِ السَّمْحَاءِ، وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْآيَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>، حِيثُ تَلْخُصُ لَنَا الْمَلْعُونَ السَّامِيُّ مِنْ بَعْثَةِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ ﷺ وَالنِّعْمَةُ الْكَبِيرَى مِنْ بَرَكَاتِ وَجُودِهِ الشَّرِيفِ، وَفِيهَا بَرْهَانٌ سَاطِعٌ وَتَعْبِيرٌ صَادِقٌ عَنْ ظَاهِرَةٍ مِنْ أَوْضَعِ مَظَاهِرِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا بِرْ وِزَارًا وَبِجَلَاءً.

وقد وقعت هذه الآية مثاراً لبعض التساؤلات والإشكالات من أكثر من جهةٍ وعلى أكثر من صعيد، وهذا ما يدعو إلى استعراضٍ مجملٍ لما يسعف من مضمونها، وتناولُ أهم الشبهات والإيرادات التي سيقت حولها مقرونٌ بالإجابة الشافية، ولكي يكون الموضوع أكثر سلاسةً في العرض سنشقّق بيان الآية إلى ثلاثة مباحث تشكل - بمجموعها - الفصل الأول الذي تدور رحاه حول مضمونها، وسيخصّص الفصل الثاني إلى طرح الإشكالات والردود.

## **الفصل الأول: المضمون العام لآلية الرحمة:**

### **أ. المقصود من الارسال:**

الخطاب في الآية موجهٌ للنبيّ الأعظم ﷺ من قبّل المولى عَجَّلَ، والإرسال - كما عن أهل اللغة - هو البعث، والرسول هو المنبعث<sup>(٢)</sup>، فينشأ بذلك تساؤلٌ هو أنَّ ما

يكون رحمةً للعالمين هل هو وجود الرسول ﷺ مقترباً بتبلیغه للشريعة السماوية بحيث يصبح ما يأتي به من دینٍ هو منبع الرحمة والهنا الشامل؟ أم أنَّ لخصوص کيانه الشريف مدخليةً أيضاً في عموم الرحمة وإسباغها من غير جهة التبليغ؟ وعلى تقدیر الأوّل يكون معنى الإرسال هو تحمیل الرسالة، ومفاد الآية: وما كُلفناك وبعثناك بالدين إلا رحمةٌ ... . وعلى الثاني يكون الإرسال بمعنى أعمٌ من التحمیل، بما مضمونه: وما وجودك فيهم إلا رحمةٌ ... .

قد يُقال إنَّ ظاهر ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يوحى بالأوّل<sup>(۳)</sup>، ولكن بالتأمل في معنى الرحمة وما ورد فيها من روایاتٍ وتفسيرٍ، وبالنظر إلى سائر الآيات المرتبطة بها مثل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾<sup>(۴)</sup> يمكن ترجيح الرأي الثاني والله العالم.

#### ب - المراد من الرحمة:

بالحظة الشمول الموجود في ذيل الآية نستفيد أنَّ الرحمة المقصودة هي العامة المستوعبة للبر والفاجر والمؤمن والكافر، بل يمكن تعديها لكل الموجودات بتقریبٍ معینٍ، أمّا کون النبي ﷺ رحمةً للمؤمنين فمن باب تسبیبه لهم بالفوز والسعادة في الدارين؛ وذلك لما أتى به من دینٍ يهذب النفوس، ويصلح المعاش والديار، ويقيم القسط والعدل فتعمر به الدنيا، ومن ثم يترتب عليه الفلاح والرضوان في الآخرة، ويؤكّد هذا الأمر ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلٌ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةٌ لَا تَبْغُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(۵)</sup> عن محمد بن الفضیل، عن العبد الصالح ع قال: «الرحمة: رسول الله ﷺ، و الفضل: عليٌّ بن أبي طالب ع»<sup>(۶)</sup>، وربما قریبٌ منه أيضاً: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلٌ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةٌ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبْدَأَ﴾<sup>(۷)</sup>.

ناهيك عن دور النبي ﷺ الوجودي، ومقامه الشامخ في الأمة كأسوةٍ يقتدى به في كل شيء، **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾**<sup>(٨)</sup>.

وأمّا كونه ﷺ رحمةً للكافرين فتعددت فيه الأقوال وإن اتفقت من حيث انتصارها على الدنيا، ومن أهمّها:

١) أنّ نعمة البعثة والرسالة - من حيث الشأنية والقابلية - شاملةٌ للناس جميـعاً بدون استثناء، وهي رحمةٌ حتّى للكافر، **﴿فَلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾**<sup>(٩)</sup>، إلا أنها فعليةٌ في خصوص من آمن به حقاً (المؤمنين)<sup>(١٠)</sup>.

وبمعنى آخر: نستطيع تشبّيه رحمة النبي ﷺ بباء المطر المترشّح على الكلّ، غاية الأمر أنّ المستفيد من بركته فقط هي الأرضي ذات الاستعداد واللياقة، أمّا غيرها - كالصلدة والصخرية - فلا، ولا يعني هذا سلب الرحمة والبركة من وجوده، وحال الكافر هو حال هذه الصخور، وبهذا التوجيه فرقوا بين المراد من الرحمة في الآية المبحوثة هنا وبين المذكورة في قوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يَؤْذُنُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنُ قُلْ أَذْنُ خَيْرٍ لَكُمْ يَؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَقُولُ مِنْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾**<sup>(١١)</sup>، حيث مفاد الأولى هو الرحمة الشأنية والثانية هو الرحمة الفعلية.

٢) ما نُقل عن ابن عباس: «... ورحمةً للكافر بأن عوفي مما أصاب الأمم من الحسـف والمسـخ»<sup>(١٢)</sup>.

أي رفع نزول العذاب عليهم كما كان جاريًّا في الأمم السالفة، أو بمعنى آخره عن الإطالة بهم من باب: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ وَآتَتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾**<sup>(١٣)</sup>.

وعلى أيّة حالٍ فهذا القول لا يختصّ به الكافر فقط، بل هو في المؤمن أوضح،

وأماماً كون رحمة النبي ﷺ تسع سائر الموجودات بما فيهم الملائكة فمرجعه إلى تحديد مفهوم العالمين؛ فإذا كان مستوعباً لها فيثبت المطلوب، وإلا بقدر ما يحتمله من معنىًّا.

وقد ذكر الطبرسي في تفسيره للآية رواية تنفع في المقام: «وروي أنّ النبي ﷺ قال لجبرائيل - لما نزلت هذه الآية - : هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، إني كنت أخشى عاقبة الأمر فآمنت بك لما أثني الله عليّ بقوله: **﴿هُذِي قُوَّةٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾**، وقد قال: إنما أنا رحمة مهدأة»<sup>(١٤)</sup>.

#### ج - مفهوم العالمين:

العالم - وجمعه العالمون (فتح اللام) - من المفردات التي تعدّت حوالها الأقوال والآراء، فقسمٌ - ولعلهم الأكثر - فسّروه بمعنى الخلق كله<sup>(١٥)</sup> أو أصناف الخلق، كل صنفٍ منهم عالم<sup>(١٦)</sup>، فيدخل فيه كل المخلوقات والكائنات حتى الجمادات، وقد يشهد له قوله تعالى: **﴿قَالَ فَرْعَوْنٌ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ \* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْفِنِينَ﴾**<sup>(١٧)</sup>.

وشطرٌ خصّوه بالعقلاء فقط - الإنسان، الجن، الملائكة - معلّين قولهم بكلمة عالم جمعت بالجمع السالم، وهو يستخدم للعقلاء عادةً، وقد ورد عليه: أنّ كون الإنسان في جملة العالم هو ما سوّغ استعمال هذا الجمع، بتغليب حكمه عليهم<sup>(١٨)</sup>. والبعض استثنى الملائكة من العقلاء، بحجّة قول الله عزّوجلّ : **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾**<sup>(١٩)</sup>؛ إذ ليس النبي ﷺ نذيراً للبهائم ولا للملائكة وهم كلام خلق الله، وإنما بعث ﷺ نذيراً للجن والإنس لا غير<sup>(٢٠)</sup>.

والملاحظ على جميع ما تقدم: أن الآيات القرآنية المتناولة للفظ العالمين ليس من اللازم أن تستعمله في مدلول واحد؛ إذ قد تتتنوع الأغراض والمعاني من آيةٍ لأخرى..، مثلاً قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرِيْمَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾**<sup>(٢١)</sup> لا يتصور فيه أن يكون لفظ (العالمين) يشمل الملائكة، بينما قوله تعالى: **﴿قَالَ فَرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ \* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْنِيْنَ﴾**<sup>(٢٢)</sup> يمكن فيه شمولهم، بل هو صريح الآية. وعليه إن لم يكن في الآية المبحوثة هنا نكتةٌ وقرينةٌ ترجح لنا أحد المعاني المذكورة لا يمكننا ترجيح أحدها، وما يسهل الأمر أنه من الثابت لدينا بأدلة أخرى أنَّ الرسول الخاتم ﷺ رحمةً لكل الكائنات والخلوقات قاطبةً، وهذا يتناغم مع أكثر الأقوال سعةً – وهو الأول – فلا تعود إلى أصل الحديث مشكلةً.

### الفصل الثاني: علاج الشبهات والتساؤلات حول الآية:

من المناسب – إكمالاً لموضوع البحث ورفعاً لإيهاماته – محاولة الإجابة عن أهم التساؤلات والإشكالات الحائمة حوله، وهي تباعاً:

١) كيف يكون النبي ﷺ رحمةً للناس كلهم أسودهم وأحمرهم و... إخ، وقليلٌ من كثيرٍ هم أولئك الذين آمنوا به واهتدوا بهديه وانتفعوا برسالته؟! كيف هذا، وقوله تعالى **﴿لِلْعَالَمِينَ﴾** يفيد العموم والشمول؟!<sup>(٢٣)</sup>

الجواب: ذُكر سابقاً أنَّ الرحمة لا تكون فعليةً إلا للمؤمنين، وما عداهم تكون في حقّهم شأنيةً، وعدم استفادة الأكثر من هذه النعمة لا يعني انتفاءها؛ فتقديم الدواء وتهيئته للمريض فضلٌ ورحمةٌ منك عليه وإن امتنع عن تناوله، إضافةً إلى إمكان ملاحظة الرحمة من غير جهة الإيعان.

٢) ما ذُكر من نعم الدنيا كانت حاصلةً للكفار قبلبعثة النبي ﷺ كحصوها بعد ذلك، بل كانت قبلبعثة أعظم؛ لأنّ بعد بعثته ﷺ نزل بهم الغمّ والخوف منه، ثم أمر بالجهاد الذي فني أكثرهم فيه<sup>(٢٤)</sup>، فكيف تتلاءم الرحمة الشاملة مع الجهاد وما ذكرنا؟!

**الجواب:** أولاً: القول بأنّ نعمهم قبلبعثة أعظم أو مساوية لما بعدها فيه ما فيه، ويكتفي لرفضه مقارنة الوضع المقيت والمنحط الذي كان يعيش الناس أيام الجاهلية مع مقدار التحول الهائل الذي حصل جراء انتشار الثقافة الإسلامية في جميع الحالات، و مجرد وجود ثلة كانوا أثرياء ومرفهين قبلبعثة وخسروا جاههم بعدها لايسوغ القبول بهذا الرأي، بل إنّ مقتضى الرحمة إيقاف أمثال هؤلاء من جنى الأموال الطائلة على حساب المستضعفين والمعدمين.

وثانياً: شمول الرحمة لا ينافي إيقاف المتجاوزين عند حدّهم، ولا الدفاع عن بيضة الإسلام كلّما تعرض الدين وال المسلمين إلى خطر، وهل إقامة العدل والانتصار للمظلومين والاقتصاص من المعذين وأضراب ذلك تصبّ في غير وجهة الخير والرحمة؟!

٣) كيف يمكننا الجمع بين كون رحمة النبي ﷺ مانعةً عن حلول العذاب والانتقام الإلهي على الأمة وبين وجود الكثير من الآيات المتوعدة به والمثبتة لوقوعه مثل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾<sup>(٢٥)</sup>، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابًا يَوْمًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾<sup>(٢٦)</sup> وكذلك كيف يمكننا الجمع بينها وبين مشاهدتنا لانتشار الأمراض والأوبئة وزيادة الزلازل وشياع الإيذادات الجماعية؟

**الجواب:** المراد بالعذاب المنفي هو العذاب السماوي المستعقب للاستئصال الشامل

للامة على نهج عذاب سائر الأمم <sup>(٢٧)</sup> كما تحدثه مثل الصاعقة أو الخسف أو الإغراق وغيرها، لا الذي يكون بواسطة القتل أو الأمراض أو الآفات الطبيعية كالزلزال.

ثم إن رفع هذا العذاب مقيد بأمد محدد، ومتى ما انقضى يعود كما كان في الأمم السالفة، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾<sup>(٢٨)</sup>، فالعذاب منفي ما دام الرسول حياً فيهم، وبعده ما داموا يستغفرون الله تعالى.

٤) لماذا اختصت أمتنا بهذه الرحمة والحبوة من بين سائر الجماعات والأمم؟ وهل رفع عذاب ما عن أمّة دون أخرى ينسجم مع العدل الإلهي؟!

الجواب: لا ينبغي الغفلة عن أنّ النظام السائد في دنيانا هو نظام الأسباب والمسبّبات، فهناك سنن مرسومة لا تتبدل، ومسير العالم خاضع لها، وحينئذ متى توفرت العلة التامة لظاهرة ما في بقعة أو زمان معين تتحقق وتتجزء من دون توقيف وانتظار لتحققها في بقعة ثانية أو زمان آخر، وبالتالي إذا ظهرت رفع العذاب توفرت كل أسبابها في أمّة الرسول ﷺ ولم تتوفر في سائر الأمم فلا حالة ستنفرد بها دونهم، ومن غير أن يؤدّي هذا إلى ترجيحها عليهم بلا سبب حتى ينخرم أساس العدل.

ولعل الذي أوجب هذا في أمّة الإسلام هو ما حظي به الرسول محمد ﷺ وأله الأطهار عليهما السلام من مقام عال ومرتبة سامية لم يرقها أحدٌ مثلهم، فكافأهم الله تعالى عليها بكرامات وهبات، وكان رفع العذاب عن أمتهم أحدها.

وأخيراً يقال: إن رفع العذاب - الذي من سخ الاستئصال - عن قوم لحكمة يراها تعالى لا يعني رفع اليد عن مجازاة المتطاولين ومحاكمة الجرميين والعفو عنهم،

ولعل العذاب المتعقب الذي ينتظرون في الآخرة يكون أشدّ وطأً وضراوةً عليهم  
بالمقارنة مع سواهم.

#### الخاتمة:

يُكَفِّرُنَا بَعْدَ الْعَرْضِ الْمُتَقَدِّمِ لِلآيَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنْ نَخْلُصَ بِنَتْيَاجٍ مُفَادِهِ: أَنْ كُلُّ مَا فِي  
هَذَا الرَّحْبِ مِنْ الْوُجُودِ مِنْ خَيْرٍ وَنِعْمَةٍ وَلَطْفٍ يَرْجِعُ بِزُوْغِهِ وَإِشْعاعِهِ إِلَى بُرْكَاتِ  
الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَحْمَتِهِ، وَالَّتِي هِيَ مَظَاهِرٌ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةُ  
الْمُطْلَقَةُ وَالْمُسْتَمِرَّةُ دَلِيلٌ عَلَى عَالَمِيَّةِ الْبَعْثَةِ وَالْدِينِ، وَدَلِيلٌ عَلَى خَاتَمَيْهِ الرَّسُولَ، فَصَحَّ  
الْقَوْلُ إِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ مَبْعُثُ الرَّحْمَةِ الْعَالَمِيَّةِ.

#### المواهِشُ:

- (١) سورة الأنبياء عليه السلام، الآية: ١٠٧.
- (٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٣٥٢.
- (٣) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج ٩، ص ٩٦٤.
- (٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
- (٥) سورة النساء، الآية: ٨٣.
- (٦) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٦١.
- (٧) سورة النور، الآية: ٢١.
- (٨) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
- (٩) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
- (١٠) لاحظ: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ٩، ص ٣١٦ . أيضًا: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير  
كتاب الله المنزل، ج ٦، ص ١٠٢.
- (١١) سورة التوبة، الآية: ٦١.
- (١٢) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ١٠٧.

- .٣٣) سورة الأنفال، الآية: .١٣
- (١٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص١٠٧.
- (١٥) الفراهيدي، كتاب العين، ج٢، ص١٥٣.
- (١٦) الطريحي، مجمع البحرين، ج٦، ص١٢٠.
- (١٧) سورة الشعراء، الآية: ٢٣ - ٢٤.
- (١٨) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٥٨٢ . أيضًاً: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص٣٩.
- (١٩) سورة الفرقان، الآية: ١.
- (٢٠) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٤٢٠.
- (٢١) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.
- (٢٢) سورة الشعراء، الآيات: ٢٣ - ٢٤.
- (٢٣) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٩، ص٩٦٣.
- (٢٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٢، ص١٩٣.
- (٢٥) سورة الأنفال، الآية: .٣٤
- (٢٦) سورة يونس ﷺ، الآية: ٥٠.
- (٢٧) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص٧١.
- (٢٨) سورة الأنفال، الآية: .٣٣.



# من عوامل نجاح الرسول ﷺ في دعوته

أحمد إبراهيم نوار

رغم صلافة المجتمع الجاهلي، ورغم حالة الانحطاط والجاهليّة التي كان يتّسم بها هذا المجتمع، وحالة التفسخ والانهيار القيمي، إلا أنّ نور رسول الله ﷺ شقّ ظلام الجزيرة العربيّة، وهذا ما عبرت عنه سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها المشهورة في وصف حال ذلك المجتمع: «وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حَفْرٍ مِّنَ النَّارِ مَذْقَةُ الشَّاربِ، وَنَهْزَةُ الطَّامِعِ، وَقَبْسَةُ الْعَجَلَانِ، وَمَوْطَئُ الْأَقْدَامِ، تَشْرِبُونَ الْطَرَقَ، وَتَقْنَاتُونَ الْقَدَّ، أَذْلَّهُ خَاسِئِينَ...».

وفي موضع آخر من نفس الخطبة تقول عليه السلام: «فَأَنَّارَ اللَّهُ بْأْيَ مُحَمَّدٍ ظَلَمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ الْقُلُوبِ بِهَا، وَجَلَى عَنِ الْأَبْصَارِ غَمَمَهَا»<sup>(١)</sup>.

نعم، رغم كل ذلك الظلام استطاع رسول الله ﷺ أن يحول الظلمة إلى نور، والضّوء إلى رفعة، واستطاع أن ينفع ﷺ في دعوته أياً نجاح.

## معالم نجاح دعوة الرسول ﷺ :

وي يكن أن نستدل على نجاح دعوته ﷺ بعلميين اثنين:

(١) بناء الكيان والدولة التوحيدية:

استطاع الرسول ﷺ رغم الظروف القاسية للمجتمع الجاهلي، ورغم قصر فترة دعوته نسبياً أن يؤسس الدولة التوحيدية، والتي تعتبر بثابة المحرّك للمشروع

التوحيدِيّ برمته، والمؤشر على نجاح دعوته صلوات الله عليه وخططه طوال فترة دعوته.

## (٢) تركيز الأسس والثوابت التي تضمن استمرار الدعوة:

إن نجاح أي دعوة أو حركة لا تُقاس فقط بقدرتها على النجاح المؤقت، بل بقدرتها على الاستمرار والصمود على مر الظروف، ومن أهم عوامل ضمان الاستمرار قدرة الحركة والدعوة على تربية قادة قادرين على مواصلة مسيرة تختلف مسيرة القائد الأصل، وهذا ما نجده في دعوة الرسول صلوات الله عليه، حيث إنه لم يكتف ببناء الكيان التوحيدِي المدير للمشروع الإلهي، بل قام صلوات الله عليه بتربية النخبة المؤمنة الوارثة للمشروع والدور الرسالي، وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام، والذي يعتبر الأجر لقيادة المشروع التوحيدِي بعد غياب الرسول صلوات الله عليه، وبهذا يضمن استمرار الدعوة حيّة لا تموت<sup>(٢)</sup>.

ولذلك جاء الأمر الإلهي للرسول الأكرم صلوات الله عليه في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

يقول السيد العلامة الطباطبائي قدس في تفسير هذه الآية: «إِنْ قَوْلَهُ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يدل على أن هذا الحكم المنزلي المأمور بتبلیغه أمر مهم فيه مخافة الخطير على نفس النبي صلوات الله عليه أو على دین الله تعالى من حيث نجاح تبلیغه»<sup>(٤)</sup>.

وبهذا التبلیغ تم الدين، وضمن استمراره، ویئست كل الفئات من حرف مسار الدعوة بعد غياب القائد، حيث قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئُسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نُعْمَانِي وَرَضِيَتُ

## لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِينَاً<sup>(٥)</sup>

«حيث غشى الكفار في هذا اليوم سيلٌ من اليأس، وقد كانوا يتوهّمون أنّ دين الإسلام سينتهي بوفاة النبي ﷺ، وأنّ الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهلية، لكنّهم حين شاهدوا أنّ النبي أوصى بالخلافة بعده لرجلٍ كان فريداً بين المسلمين في علمه وتقواه وقوّته وعدالته - وهو عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ - ورأوا النبيّ وهو يأخذ البيعة لعليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أحاط بهم اليأس من كلِّ جانبٍ، وفقدوا الأمل فيما توقعوه من شرٍّ لمستقبل الإسلام، وأدركوا أنّ هذا الدين باقٍ راسخٌ»<sup>(٦)</sup>.

### من عوامل نجاح الرسول ﷺ في دعوته:

إنَّ المُتَّبِّعَ لِحَيَاةِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ يُسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدْ كَثِيرًا مِّنْ عواملِ نجاحِ دعوته، وَكُلُّ عَامِلٍ لَهُ دُخُلٌ فِي هَذَا النِّجَاحِ لَا يُسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَصِلَهُ عَنْ بَقِيَّةِ الْعَوَامِلِ، وَلَكِنَّ هَنَا نُشِيرُ بِشَكْلٍ مُوجِزٍ لِبعضِ هَذِهِ الْعَوَامِلِ:

#### ١) أَخْلَاقُ الرَّسُولِ ﷺ :

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيلًا القُلُوبُ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(٧)</sup>، فأَخْلَاقُ الْقَائِدِ وَلِيْنِهِ وَخَفْضُ جَنَاحِهِ عَامِلٌ مِّنْهُمْ فِي التَّنَافُفِ الْقَاعِدَةِ حَوْلِهِ، وَمَنْ ثُمَّ تَوَفَّيرُ الْقَاعِدَةِ الَّتِي بِهَا يَحْقُّقُ النِّجَاحَاتِ، وَهَذَا مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وهذا ما أشار إليه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حفظ له في تفسيره حيث قال:

إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ صَرِيقَةٌ إِلَى إِحْدَى أَهْمَّ الصَّفَاتِ الَّتِي يَجِبُ تَوْفِرُهَا فِي أَيْمَانِ قِيَادَةٍ، أَلَا وَهِيَ الْعَفْوُ وَاللِّيْنُ تَجَاهُ الْمُتَخَلِّفِينَ التَّائِبِينَ، وَالْعَصَّاءِ النَّادِمِينَ، وَالْمُتَمَرِّدِينَ

العائدين، ومن البديهي أنّ الذي يتصدّى للقيادة لو افتقد هذه المخلة الهامة، وافتقر إلى روح السماحة، وافتقد صفة اللين، وعامل من حوله بالخشونة والعنف والفظاظة، فسرعان ما يواجه المزية، وسرعان ما تصاب مشاريعه وبرامجه بنكساتٍ ماحقةٍ، تبدّد جهوده، وتذري مساعيه أدراج الرياح؛ إذ يتفرق الناس من حوله، فلا يمكنه القيام بهامّ القيادة ومسؤولياتها الجسيمة، وهذا قال الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ - مشيراً إلى هذه المخلة القيادية الحساسة - : «آلَةُ الرِّيَاسَةِ سُعْدَ الصَّدْرِ»<sup>(٨)</sup>.

أمّا في الروايات التي تتحدث عن أخلاق النبي ﷺ فلا يستطيع الإنسان إلا أن يقف مبهوراً أمام هذه الشخصية العظيمة، لذا أنقل بعض هذه الروايات الموجودة في كتاب أعلام الهدایة منقولهً عن مصادرها الأصلية:

١) عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «عرض عليّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكّة ذهباً، قلتُ: لا يا ربّ، ولكن أشعّ يوماً وأجوع يوماً.. فإذا جعتُ تضرّعتُ إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ شكرتُك وحمدتُك»<sup>(٩)</sup>.

٢) ونام على حصيرٍ فقام وقد أثّر في جنبه، فقيل له: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً فقال: «ما لي وما للدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها»<sup>(١٠)</sup>.

٣) وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبرهم خبر الشعير<sup>(١١)</sup>.

٤) وعن أنس بن مالك أنّ فاطمة عَلَيْهِ الْكَلَمُ جاءت بكسرة خبزٍ إلى النبي ﷺ فقال: «ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ فقلت: قرص خبزٍ، فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه

الكسرة، فقال: أما إِنَّهُ أَوْلَى طَعَامٍ دَخَلَ فِيمَا أَبِيكَ مِنْذَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»<sup>(١٢)</sup>.

٥) وعن قتادة قال: كننا عند أنسٍ وعنه خبازٌ له فقال: ما أكل النبي ﷺ خبزاً مرققاً ولا شاةً مسموظةً حتى لقي الله<sup>(١٣)</sup>.

٦) وقال جابر: ما سُئلَ النَّبِيُّ شَيْئاً قَطْ فَقَالَ: لَا<sup>(١٤)</sup>.

٧) وكلم النبي ﷺ فارعد فقال ﷺ: «هُوَنَ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِرَّكَ، إِنَّمَا أَنَا بْنُ امرأةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»<sup>(١٥)</sup>.

٨) وكان يقول ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحِينِي مَسْكِينًا، وَتُوفِّنِي مَسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زَمْرَةِ الْمَسَاكِينِ، وَإِنَّ أَشَقِيَ الْأَشْقِيَاءِ مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَقْرُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ»<sup>(١٦)</sup>.

## ٢) مشاركته الميدانية مع الناس:

لم يكن الرسول الأكرم ﷺ كقائد يعيش في أبراج عاتية ويكتفي بإصدار الأوامر والإيعازات، بل كان يشارك بنفسه - بأبيه هو وأمي - في كل الأعمال حتى الشاقة منها، مما كسب بذلك القلوب والأفئدة، واستطاع أن يعرف بذلك هموم وآلام الناس التي تقتل القاعدة له ﷺ، فكان هذا عملاً كبيراً في نجاح دعوته وإقامة المشروع التوحيدى النموذج على مر الأعصر، ونشير هنا إلى مثالين:

### أ) مشاركته في بناء المسجد:

«عندما باشر المسلمون ببناء المسجد في المدينة، كان النبي ﷺ من أوائل المسلمين - أو أولهم - ممن أمسك بالمعول وبasher بحفر أرض المسجد، ولم يكن عمله رمزيّاً، بل كان عمله حقيقيّاً بحيث كان العرق يتصبّب منه ﷺ، فكان عمله بالمستوى الذي أثار بعض الذين تنحوا جانباً، فقالوا: أنجلس والرسول يعمل؟!

فلنذهب ونعمل، فجأوا وانهمكوا في العمل حتى شيدوا المسجد خلال برهةٍ وجيبةٍ، وبذلك أثبت النبي ﷺ - ذلك القائد العظيم - أنه لا يرى أيّ حقٍ لشخصه، فإذا كان هنالك عملٌ فلا بدّ أن تكون له مساهمةٌ فيه»<sup>(١٧)</sup>.

### ب) حفر الخندق:

«كان النبي ﷺ أكثر الناس عملاً في حفر الخندق، فحيث وقعت عيناه على من أعياه العمل وأصيب بالإرهاق أو عجز عن المواصلة كان يتناول معوله ويأرس العمل والبناء بدلاً عنه، فلم يسجل حضوره بإصدار الإيعازات فقط، بل كان يشارك المسلمين بكيانه وجوده أيضاً»<sup>(١٨)</sup>، يقول الإمام الخامنئي دام ظله في هذا الصدد: «على مدى عشرٍ من السنين عاشره الناس ليلاً ونهاراً، ترددوا على داره وتردد هو على دورهم، كانوا معه في المسجد وفي الطرقات، وفي حلّه وترحاله وفي منامه، تحملوا الجوع معاً، تذوقوا طعم السرور معاً، فقد كان الوسط الذي يعيش فيه النبي ﷺ مفعماً بالمسرة، وكان دام ظله يمازح الآخرين ويقيم السباقات ويشترك فيها، وعلى امتداد تلك السنوات العشر تعمقت حبّة أولئك الذين عاشروه له وازداد إيمانهم به»<sup>(١٩)</sup>.

### ٣) الرسول الأكرم ﷺ وبناء النخبة:

استطاع النبي الأكرم ﷺ في سني دعوته الأولى أن يصنع ويبني نخبةً يعتمد عليها وعلى فكرها وإيمانها وثباتها حين تأتي مرحلة المواجهة الشاملة مع كلّ مظاهر الشرك والوثنية، وعلى هذا فقد «تحرّك النبي ﷺ داعياً إلى الإسلام بعد أن أمره الله تعالى بالقيام والإذنار ساعياً لبناء كتلة إيمانية تكون بؤرة نورٍ وإشعاعٍ هداية المجتمع، واستمرّ الحال هكذا حوالي ثلث سنين»<sup>(٢٠)</sup> مسدداً بالغيب، معصوماً من

الزلل»<sup>(٢١)</sup>، وبهذه الصناعة الإيانية والرسالية للنخبة من قبلِ الرسول الأكرم ﷺ فقد نجح في تهديد الطريق للمرحلة الأهم من مراحل دعوته، وهي مرحلة بناء القاعدة والمواجهة الشاملة والعلنية.

#### ٤) إشراك النبي ﷺ للناس في صناعة القرار وإشعارهم بالمسؤولية:

قال تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةِ مِنَ اللهِ لَنَتَ أَلَمُّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا عَلِيًّّاً القَلْبَ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ»<sup>(٢٢)</sup>، من أهم عوامل نجاح أيّة دعوة هو شعور الموالين لها والقاعدة الجماهيرية بأنّ لهم مكانة ورأياً يستمع ويؤخذ بالحسبان، مما يشعرهم بأهميتهم ومكانتهم الإنسانية، وبالتالي الشعور بالمسؤولية تجاه القرار بشكلٍ خاصٍ والدعوة بشكلٍ عامٌ، وهذا جاءت هذه الآية الكريمة لتأكيد هذا المبدأ المهم وعدم التنازل عنه رغم ما حدث بعد واقعة أحد.

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حفظه الله: «بعد إصدار الأمر بالغفو العام يأمر الله نبيه ﷺ بأن يشاور المسلمين في الأمر ويقف على وجهات نظرهم، وذلك إحياء لشخصيتهم، ولبث الروح الجديدة في كيانهم الفكري والروحي الذين أصحابها الفتور بعد الذي حدث، على أن هذا الأمر للنبي بمشاورة المسلمين إنما هو لأجل أنه ﷺ قد استشار المسلمين قبل الدخول في معركة أحد في كيفية مواجهة العدو، واستقر رأي الأغلبية منهم على التعرض عند جبل أحد، فكان ما كان من المكرود، ووقع ما وقع من البلاء، وهنا كان كثيرون يتتصورون بأنّ على النبي إلا يشاور بعد ذلك أحداً، وأن عليه أن يتصرف كما يرى هو، ولكن القرآن الكريم جاء يرد على هذا التصور، ويحيب على هذا النوع من التفكير، ويأمر النبي بأن يعيد المشاورة إذ يقول:

﴿وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ لأنّ المشاورة وإن لم تتفق في بعض الموضع، فإنّها نافعه على العموم، بل إنّ نتائجها المفيدة الكثيرة لو قيست إلى بعض النتائج السلبية وغير المفيدة تبدو أكثر أضعافاً، كما وأنّ أثرها في صياغة الأفراد والجماعات وإناء شخصيّتهم من الأهميّة بحيث يغطي على نقاط ضعفها، بل هو أبرز آثارها وأهمّ فوائد़ها الذي لا يمكن ولا يجوز التغاضي عنه»<sup>(٢٣)</sup>.

#### خاتمة:

فهذه بعض أسباب القوّة التي أخذ بها رسول الله ﷺ فاستطاع أن يخرج ذلك المجتمع من حالة الضعف والوهن، واستطاع بها أن يواجه كلّ عتاة وطواويث ذلك العصر، فأسس لمرحلة جديدة من تاريخ البشرية هو ابتدأ مسيرتها، يتلقّفها من بعده إمامٌ بعد إمامٍ حتّى تصل الرأية المخلص هذه الأمة من الظلمة صاحب العصر والزمان الإمام المهدى المنتظر عليه السلام، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وحتّى ذلك الحين فلنبحث عن أسباب القوّة التي تخرّجنا من حالة الضعف التي تعيشها جلّ أمّتنا، علّنا نفي بشيءٍ من الأمانة التي حمّلناها، وعلّنا نكون ممن نهّد الطريق للدولة الإلهيّة المرتقبة.

#### المواهش:

(١) أعلام الهدایة، ج ٣ ، ص: ١٣٧.

(٢) مع ملاحظة أن إقصاء الإمام علي عليه السلام عن الحكم لم يمنعه من القيام بتبلیغ الرسالة والدعوة، والحفظ عليها من التشويه الكامل، وإلا لم يصل لنا شيءٌ من تراث الإسلام النقى رغم التشويه.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٤) تفسير الميزان، ج ٦ ، ص: ٤٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٣.

- (٦) تفسير الأمثل، ج ٣ ، ص: ٥٩١.
- (٧) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
- (٨) تفسير الأمثل، ج ٢، ص: ٧٤٨.
- (٩) سنن الترمذىٌّ/٤٥١٨/الحديث ٢٣٧٧
- (١٠) المصدر السابق.
- (١١) المصدر السابق، /٤٥٠١/ال الحديث ٢٣٦٠
- (١٢) الطبقات لابن سعد ١/٤٠٠.
- (١٣) مسنند أحمد، ج ٣، ص: ٥٨٢، الحديث ١١٨٨٧
- (١٤) سنن الدارمي، ج ١، ص: ٣٤.
- (١٥) سنن ابن ماجة، ج ٢، ص ١١٠١، الحديث ٣٣١٢
- (١٦) سنن الترمذىٌّ، ج ٤، ص: ٤٤٩، الحديث ٢٣٥٢
- (١٧) في رحاب النبي الأكرم ﷺ، الإمام الخامنئي، ص ٤١.
- (١٨) المصدر السابق، ص ٤٩
- (١٩) المصدر السابق، ص ٥٩.
- (٢٠) وهنا نلاحظ أن النبي الأكرم ﷺ لم يتتخم الأمة بالفکر - بتعبير الشهيد الصدر- بعيداً عن العمل، بل إِنَّه بعد ثلث سنوات فقط جاء الأمر الإلهي بالمواجهة الشاملة في قوله تعالى: ﴿فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنْ وَأَغْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.
- (٢١) أعلام المداية، ج ١، ص ٨٨.
- (٢٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
- (٢٣) تفسير الأمثل، ج ٢.

# الخصائص المحمدية

عزيز حسن الخضران

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

## مقدمة:

ورد في الحديث المشهور عن الرسول الأكرم ﷺ مخاطباً أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَفَافُ : «يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت ولا عرفي إلا الله وأنت ولا عرفك إلا الله وأنا»<sup>(١)</sup> وهذا التصريح بعدم إمكان معرفة الله والرسول والأمير، قد يتعامل معه بأسلوبين، أسلوب يقول بأنه ما دامت المعرفة الحقيقة غير ممكنة فلا داعي لأن يتعب الإنسان نفسه في ذلك، لأن النتيجة ستكون هي الفشل في الوصول إلى معرفتهم كما يجب.

وأسلوب آخر يقول إن الحديث الشريف إنما هو محفر وباعث للبحث أكثر عن هذه الذوات المقدسة، وذلك لأن الإنسان الذي يعتقد-جهلا- بإمكان معرفتهم ربما إذا وصل إلى مرحلة معينة يدعى أنه وصل إلى حقيقة المعرفة فيقف عند تلك المرحلة، بينما إذا علم بأن المرحلة النهاية لا يمكن الوصول إليها يبقى يبحث ويتعقب أكثر، وكلما وصل إلى مرحلة من المعرفة يقال له إنك لم تصل بعد، فيبقى مستمراً في طلب المعرفة.

ولا شك أن الحركة والاستمرار في طلب المعرفة خير من الوقوف في مرحلة معينة من المعرفة مهما كانت درجة هذه المعرفة.

وأداءً لشيء من حق الرسول الأعظم ﷺ الذي هو ولي النعمة، والواسطة

العظمى بين الخالق والمخلوقين، نريد أن نبحث حسب ما يتيسر لنا في خصائصه التي اختص بها من بين البشر، ونقسمها إلى ثلاثة أقسام، ما قبل الولادة، وما بعدها إلى الرحيل، وخصائصه عليهما السلام في يوم المحرث، ولا يخفى أن استقصاء ذلك ليس بيسور، فلذلك نذكر في كل قسم بعض تلك الخصائص.

### الخصيصة الأولى: (أولخلق)

#### غاية خلق الكون:

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَلَّفْتُ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، والآية المباركة تبين الهدف والغاية من خلق الجن والإنس، ومهما فسرنا كلمة (يعبدون) فهي العبادة أم المعرفة فإن المعنين عظيمين لأنهما منسوبان لله عز وجل، فعظمة الهدف (العبادة أو المعرفة) بعظمة الخالق الحكيم، فالمقصود من العبادة عبادة الله ومن المعرفة معرفته. وفي الحديث القدسي المروي: (كنت كنزا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخليقت الخلق لكي أعرف)<sup>(٣)</sup>.

والإرادة الإلهية الحكيمة بلا شك سوف تتعلق أولاً بنجاح تحقيق هذا الهدف السامي بأعلى درجاته، وكما أراده الله عز وجل، فلا شك أن أول مخلوق يخلقه الله عز وجل سوف تكون له خصوصية إلهية ومنزلة ربانية.

#### نور النبي أول الخلق:

والروايات الشريفة تثبت أن أول مخلوق خلقه الله عز وجل هو النور الأعظم للرسول الأكرم عليهما السلام، ففي الحديث عنه عليهما السلام: «أول ما خلق الله نوري، ابتدعه من نوره، واشتقه من جلال عظمته»<sup>(٤)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله قال: قلت لرسول الله ﷺ: «أول شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير»<sup>(٥)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا أكرم عليه مني، قال: علي عليه السلام فقلت: يا رسول الله فأنت أفضل أم جبريل فقال يا علي، إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياء المرسلين على ملائكته المقربين وفضلي على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدى لك يا علي وللأئمة من بعده، وإن الملائكة لخدمانا وخدام محبينا. يا علي، الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا، يا علي لو لا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار، ولا السماء ولا الأرض، فكيف لا تكون أفضل من الملائكة، وقد سبقناهم إلى معرفة ربنا وتسييحه وتهليله وتقديسه، لأن أول ما خلق الله عزوجل خلق أرواحنا فانطبقنا بتوحيده وتحميده، ثم خلق الملائكة فلما شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمرنا فسبحنا لتعلم الملائكة إنا خلق مخلوقون، وأنه مenze عن صفاتنا، فسبحت الملائكة بتسبيحنا ونرحته عن صفاتنا...»<sup>(٦)</sup>.

### روايات أخرى معارضة:

ولكن قد وردت روايات أخرى تذكر أن أول الخلق أمور أخرى غير نور النبي ﷺ، فقد ذكرت النور والروح والماء والقلم، فهل يكن الجمع بين هذه الروايات أم لا؟

ذكر المولى المازندراني في شرحه للكافي جمعاً بين الأمور الثلاثة الأولى بما ملخصه: «أن هذه الأمور الثلاثة متعددة بالذات و مختلفة بالحيثيات، فإذا لوحظ أنه ظاهر بذاته مظهر لغيره فيسمى (نوراً)، وإذا لوحظ أنه حي وبسببه حياة كل موجود

فيسى (روحًا)، وإذا لوحظ أنه عاقل لذاته وصفاته وذوات سائر الموجودات وصفاتها فيسى (عقلًا).

وكان كلامه <sup>تَسْأَلُ</sup> في شرح حديث الإمام الباقي عليه السلام: «وخلق الشيء الذي جمِع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه»<sup>(٧)</sup>، قوله <sup>تَسْأَلُ</sup> كلام طويل بالنسبة للماء وكيفية ربطه بالنور والروح والعقل، يراجع في محله.<sup>(٨)</sup>

ومما يؤيد الجمع بين النور والروح حديث الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال الله تبارك وتعالى: يا محمد إني خلقتك وعليها نوراً يعني رحمة بلا بد، قبل أن أخلق سماواتي وأرضي وعرشي وبحرى فلم تزل تهلكني وتتجدني...»<sup>(٩)</sup>.

وأما الماء وبعد ملاحظة رأي الفلاسفة بأن (الصادر الأول) لا يمكن إلا أن يكون مجرد من جميع الجهات؛ لا يمكن حمل الماء على معناه الظاهر وهو السائل المعروف، وهناك رواية لعلها تحل لنا المشكلة، وهي رواية أنس بن مالك: «فقلت: يا رسول الله، علي أخوك؟ قال: نعم، علي أخي، فقلت يا رسول الله، صفت لي كيف على أخي؟ قال: إن الله <sup>بِرَبِّكُنَّ</sup> خلق ماء تحت العرش قبل أن يخلق آدم بثلاثة آلاف عام، وأسكنه في لؤلؤة خضراء في غامض علمه إلى أن خلق آدم، فلما أن خلق آدم نقل ذلك الماء من اللؤلؤة فأجراه في صلب آدم إلى أن قبضه الله، ثم نقله إلى صلب شيش، فلم يزل ذلك الماء ينتقل من ظهر إلى ظهر حتى صار في صلب عبد المطلب، ثم شقه الله <sup>بِرَبِّكُنَّ</sup> نصفين، فصار نصفه في أبي: عبد الله بن عبد المطلب، ونصفه في أبي طالب، فأنما من نصف الماء وعلى من النصف الآخر، فعللي أخي في الدنيا والآخرة ، ثم قرأ رسول الله عليه السلام: ﴿وَمَنْ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾<sup>(١٠)</sup>.

والوجه في ذلك هو الروايات التي تذكر أن النبي ﷺ وأمير المؤمنين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كانوا نوراً واحداً وانتقل النور إلى صلب آدم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ولا زال ينتقل إلى أن وصل إلى صلب عبد المطلب ثم انقسم قسمين أحدهما في صلب عبد الله والآخر في صلب أبي طالب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ<sup>(١٢)</sup>.

فالظاهر أن الماء هو نفسه النور، وأما تسميته بالماء حينئذ فعلمه عند الله عَزَّوجلَّ.  
وي يكن أن نحمل الماء على معناه المعروف، فيكون الماء أول مخلوق من الماديات مقابل المجردات، وقرينة ذلك حديث الإمام الصادق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «إن الله عز وجل خلق العقل وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره»<sup>(١٣)</sup>.

### قصة النور:

ولا بأس هنا أن نذكر نزراً قليلاً مما يتعلّق بهذا النور المبارك.

عن الإمام الصادق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «أما علمت أن محمداً وعليها صلوات الله عليهما كانا نوراً بين يدي الله عز وجل قبل خلق الخلق بألفي عام وأن الملائكة لما رأت ذلك النور رأت له أصلاً قد تشعب منه شعاع لامع فقالت: إهنا وسيدنا ما هذا النور؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليهم هذا نور من نوري أصله نبوة وفرعه إمامية، أما النبوة فلمحمد عبدي ورسولي، وأما الإمامة فلعلمي حجتي ووليبي ولو لا هما ما خلقت خلقي»<sup>(١٤)</sup>.

وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -في جواب اليهودي الذي سأله: إن آدم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَسجد الله عز وجل له ملائكته، فهل فضل لحمه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مثل ذلك؟- فقال عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «قد كان ذلك، ولئن أَسجد الله لآدم ملائكته فإن ذلك لما أودع الله عَزَّوجلَّ صلبه من الأنوار والشرف، إذ

كان هو الوعاء»<sup>(١٥)</sup>.

### نوره عليه وآله في الأصلاب:

قال العالمة الجلسي: «إعلم أن إجماع علماء الإمامية على أن نور النبي عليه وآله لم يقع في صلب مشرك ولا في رحم مشركة، وأن آباء النبي وأجداده وجداته إلى آدم عليهما السلام كانوا كلهم مسلمين... ويستفاد من هذه الأحاديث أن أجداده كانوا كلهم من الصديقين إما أنبياء مرسلين أو أوصياء معصومين»<sup>(١٦)</sup>.

وكان هذا النور المبارك ساطعاً في جبهة آبائه وأجداده، فقد كان عدنان ترى علائم الشهامة والشجاعة ساطعة من جبهته منذ الطفولة، وقالت الكهنة: سيخرج من صلبه رجل ينقاد له الجن والإنس.<sup>(١٧)</sup>

وأما إلياس فقد كان يسمع في بعض الأحيان صوت التسبيح من صلبه.

وأما هاشم فإن النور ما زال باقياً في جبينه فذهب ليلة إلى بيت الله الحرام ودعا الله وتضرع إليه كي يرزقه ولداً يحمل هذا النور، فرأى في المنام أنه يؤمر بالتزويج من سلمى بنت عمرو بن زيد ابن لبيد من بني نجار الذي كان مقيناً في المدينة، فتزوجها حتى ولدت له عبد المطلب.<sup>(١٨)</sup>

وأما عبد الله والد النبي عليه وآله فقد روى عنه أنه قال: «إنني أذهب إلى جبل بطحاء وبثير فيخرج نور من صلبي فيمتد إلى المشرق والمغرب ثم يتصل ويكون كالدائرة ثم يصير سحاباً يظلّني عن الشمس ثم تنفتح أبواب السماء إلى أن يعود النور إلى مقره، وكلما أجلس تحت شجرة يابسة أينعت وأثرت، وإذا ابتعدت عنها تعود إلى هيئتها الأولى، وعندما أجلس على الأرض أسمع منادياً يناديني ويقول:

«السلام عليك يا حامل نور محمد عليه وآله»، فقال له عبد المطلب: أي بني أبشربني آخر الزمان يخرج من صلبك. (١٩)

## **الخصيصة الثانية: (غاية الخلق):**

تقىد في الحصيصة السابقة أن غاية وهدف الخلق هي عبادة الله عزوجل ومعرفته، وهناك روايات أخرى تدل على أن غاية الخلق هم محمد وأهل بيته عليهما السلام، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ويكن الجمع بين ذلك بأحد أمرين:

**الأول:** أن العبادة الحقيقة المطلوبة والمعرفة الكاملة لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عن طريق الرسول ﷺ، حتى بالنسبة للأنبياء عليهما السلام، والطريق المنحصر إلى غاية الخلق هو بثباته الغاية.

**الثاني:** أن العبادة الحقيقة إنما تكون بحسب المعرفة، ومعرفة الله تعالى معرفة كاملة تامة لا يمكن لأحد أن يصل إليها إلا المصطفى والمرتضى عليهما السلام -كما تقدم في الحديث، فالعبادة إذن لا تتحقق بكمالها إلا من هؤلاء، وبما أن العبادة هي غاية الخلق فلا خلق إلا بعد خلق هؤلاء الذين يتحققون هذه العبادة، فهم غاية الخلق.

وأما الروايات التي تثبت ذلك فكثيرة منها ثلث روايات:

**الأولى:** ما تقدم في رواية الرسول ﷺ مخاطباً أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَفَافُ : «...يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار، ولا السماء ولا الأرض...».

**الثانية:** ما ورد في حديث الكسأء: «...فقال عَوْنَاحٌ: يا ملائكتي ويا سكان سماءٍ أتي إني ما خلقت سماءً مبنيةً ولا أرضاً مدحيةً ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئةً ولا فلكاً

يدور ولا فلكا تسري ولا بحرا يجري إلا لمحبة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت  
الكساء...»<sup>(٢٠)</sup>

**الثالثة:** في حديث الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«... وإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أكرمه الله تعالى ذكره بإسجاد ملائكته وبإدخاله الجنة قال  
في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عَزَّوجلَّ ما وقع في نفسه فناداه ارفع  
رأسك يا آدم وانظر إلى ساق العرش فرفع آدم رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد  
مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ أمير المؤمنين  
وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين والحسن والحسين سيدياً شباب أهل الجنة، فقال  
آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب من هؤلاء؟ فقال عَزَّوجلَّ: هؤلاء من ذريتك وهم خير منك ومن جميع  
خلقي ولو لولهم ما خلقتك ولا خلقت الجنة والنار ولا السماء والأرض...»<sup>(٢١)</sup>.  
والروايات بهذا المعنى كثيرة تركناها خوف الإطالة.

### **الخصيصة الثالثة:(أول من أجاب ودعا)**

عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أن بعض قريش قال لرسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: بأي شيء  
سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ فقال: إني كنت أول من آمن بربكم  
وأول من أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم  
فكنت أنا أول نبي قال: بل، فسبقتهم بالإقرار بالله عَزَّوجلَّ»<sup>(٢٢)</sup>.

بل أكثر من ذلك، فقد سُئل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قول الله تبارك وتعالى:  
**﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾** قال: يعني به محمداً عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث دعاهم إلى الإقرار  
بالله في الدر الأول<sup>(٢٣)</sup>.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: إن الله عز وجل لما أخرج ذرية آدم عليه السلام من ظهره ليأخذ عليهم الميثاق له بالربوبية، وبالنبوة لكلنبي، كان أول من أخذ عليهم الميثاق نبوا محمد بن عبد الله عليهما صلوات الله عليهما وآله .<sup>(٢٤)</sup>

فالرسول الأعظم عليهما صلوات الله عليهما وآله هو أول من أجاب الله عزوجل وأقر بربوبيته، وأول من دعا إلى الله، وأول من دعى إلى نبوته عليهما صلوات الله عليهما وآله .

#### الخصيصة الرابعة: (تبشير الأنبياء عليهم به صلوات الله عليهما وآله):

افتضلت الحكمة الإلهية في الخلق أن يبعث إليهم أنبياء ورسلًا، تكون لهم الحجة البالغة والبرهان الساطع على نبوتهم ورسالتهم، فكان كلنبي يبشر بالنبي أو الوصي الذي يأتي بعده، وأما رسولنا الكريم عليهما صلوات الله فإنه بشرت به كل الأنبياء عليهم السلام، وهذا مما يدل على خصوصية ومحورية نبوته المباركة، فقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن الله أخذ ميثاق على الأنبياء قبل نبينا عليهما صلوات الله، أن يخبروا أنفسهم ببعثه ونعته، ويبشرون به، ويأمرهم بتصديقه»<sup>(٢٥)</sup>.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام أنه قال: «لم يبعث الله نبينا آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد لئن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ العهد على قومه»<sup>(٢٦)</sup>.

ومن هؤلاء الأنبياء:

النبي إبراهيم عليه السلام:

قال الرسول الأعظم عليهما صلوات الله: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام»، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾<sup>(٢٧)</sup> .<sup>(٢٨)</sup>

النبي موسى عليه السلام:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «كانت اليهود تجد في كتبها أن مهاجر محمد عليه وآله ما بين عير وأحد، فخرجوا يطلبون الموضع، ... وكانت اليهود تقول لهم (الأوس والخزرج في المدينة): أما لو لقد بعث محمد لنخرجنكم من دياركم وأموالنا، فلما بعث الله عزوجلّ محمدًا عليه وآله آمنت به الأنصار، وكفرت به اليهود، وهو قول الله عزوجلّ: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٣٠)</sup>.

النبي عيسى عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٣١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمَبِشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَخْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾<sup>(٣٢)</sup>.

وعن النبي عليه وآله: أوحى الله تعالى جلت عظمته إلى عيسى عليه السلام: جد في أمري ولا ترك، إني خلقتك من غير فعل آية للعالمين، أخبرهم آمنوا بي وبرسولي النبي الأمي نسله من مباركة، وهي مع أمك في الجنة طوبى لمن سمع كلامه، وأدرك زمانه، وشهد أيامه، قال عيسى: يا رب وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة تحتها عين، من شرب منها شربة لم يظماً بعدها أبداً، قال عيسى: يا رب اسقني منها شربة؟ قال: كلا يا عيسى، إن تلك العين محمرة على الأنبياء حتى يشربها ذلك النبي، وتلك الجنة

محرمة على الأمم حتى يدخلها أمة ذلك النبي <sup>(٣٣)</sup>.

(خصائصه من ولادته <sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> إلى رحيله)

**الخصيصة الأولى: (رجم الشياطين وحجب السماوات عنهم)**

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَآنِ يَجِدُ لَهُ شَهَابًا رَصَادًا﴾ <sup>(٣٤)</sup>.

وعن أبي عبد الله الصادق <sup>ع</sup>، قال: «كان إيليس <sup>لَعَنَ اللَّهِ</sup> يخترق السماوات السبع، فلما ولد عيسى <sup>ع</sup> حجب عن ثلات سماوات، وكان يخترق أربع سماوات، فلما ولد رسول الله <sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> حجب عن السبع كلها، ورميت الشياطين بالنجوم... وأصبحت الأصنام كلها صبيحة مولد النبي <sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> ليس منها صنم إلا وهو منكب على وجهه، وارتजس في تلك الليلة إيوان كسرى، وسقطت منه أربعة عشر شرفة، وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادي السماوة، وحمدت نيران فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام» <sup>(٣٥)</sup>.

**الخصيصة الثانية: (الاصطفاء):**

إذا كان الأنبياء قد اصطفاهم الله عز وجل من بين الناس، فإن الرسول الأعظم <sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> هو المصطفى من بين الأنبياء، وإذا كان الأنبياء قد اصطفاهم الله بالنبوة فإن النبي <sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> هو سيدهم وقائدتهم وأفضلاهم كما يصرح هو <sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> بذلك (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) <sup>(٣٦)</sup>

ثم إن مقنضي أفضليته على جميع الأنبياء يوجب أن يثبت له من الفضل

والمقامات كل ما ثبت لهم ويزيد على ذلك، فكل كرامة أو مقام أو درجة قد ثبتت لأحد الأنبياء في القرآن أو السنة، فإنها ثابتة له عليهما السلام، فخلة إبراهيم وتكليم موسى والإحياء لعيسى وصبر أيوب وغير ذلك من فضائل الأنبياء ثابتة له عليهما السلام بشكل أولى وأعلى.

وكيف لا يكون كذلك وأمير المؤمنين وإمام المتقين -والذي يقول فيه الرسول عليهما السلام: «إن فيك شبهها من عيسى بن مريم، ولو لا أن تقول فيك طائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلت فيك قولًا لا تقر بـ إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة»<sup>(٣٧)</sup> - يقول متواضعًا: «إنما أنا عبد من عبيد محمد عليهما السلام»<sup>(٣٨)</sup>

ويقول الإمام الصادق علیه السلام في حديث طويل: «إن عليا علیه السلام برسول الله تشرف وبه ارتفع وبه وصل»<sup>(٣٩)</sup>

#### **الخصيصة الثالثة:(خصوصيات تكوينية):**

عن الإمام الバاقر علیه السلام: «كان في رسول الله عليهما السلام ثلاثة، لم تكن في أحد غيره لم يكن له فيئ، وكان لا يمر في طريق فيمر فيه بعد يومين أو ثلاثة إلا عرف أنه قد مر فيه لطيف عرفة وكان لا يمر بحجر ولا بشجر إلا سجد له»<sup>(٤٠)</sup>.

#### **الخصيصة الرابعة:(خصوصيات في الأحكام):**

وردت أحاديث كثيرة تثبت أحكاما شرعية يختص بها رسول الله عليهما السلام، تتعرض لبعضها:

فمنها: صلاة الليل، فإنها فريضة عليهما السلام، ومستحبة على غيره، كما جاء عن

عمار الساطبي أنه قال: «كنا جلوسا عند أبي عبد الله عليه السلام بنى فقال له رجل: ما تقول في النوافل؟ فقال: فريضة قال ففزعنا وفرز الرجل فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنما أعني صلاة الليل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يقول: ﴿وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ﴾<sup>(٤١)</sup>.

ومنها: وجوب القتال ولو كان وحده، فقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إن الله كلف رسول الله عليه وسلم ما لم يكلفه أحدا من خلقه، كلفه أن يخرج على الناس كلهم وحده بنفسه إن لم يجد فتنة تقاتل معه ولم يكلف هذا أحدا من خلقه قبله ولا بعده، ثم تلا هذه الآية ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ثم قال: وجعل الله أن يأخذ له ما أخذ لنفسه فقال ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالَهَا﴾ وجعلت الصلاة على رسول الله عليه وسلم عشر حسنات»<sup>(٤٢)</sup>.

عن أبيأسامة الشحام قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: إنهم يقولون: ما منع علياً إن كان له حق أن يقوم بمحنة؟ فقال: إن الله لم يكلف هذا أحداً إلا نبيه، فقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وقال لغيره: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَاتَلِ أَوْ مُتَحِيَّزًا إِلَى فِتَّةٍ﴾، فعلى عليه السلام لم يجد فتنة ولو وجد فتنة لقاتل.

ومنها: ما روي عنه عليه السلام قوله: «ثلاث كتب على، ولم يكتب عليكم: السواك، والوتر، والأضحية»<sup>(٤٣)</sup>.

وذكرت عشرات الأحكام الخاصة بالنبي عليه السلام وبأمته أعرضنا عن ذكرها.

#### الخصيصة الخامسة: (فاتحة الكتاب)

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من فاتحة الكتاب،

وهي سبع آيات قامها **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل قال لي: يا محمد **﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾** فأفرد الامتنان على بفاتحة الكتاب، وجعلها بإزار القرآن العظيم، وإن فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، وإن الله عز وجل خص محمدا وشرفه بها، ولم يشرك معه فيها أحدا من أنبيائه، ما خلا سليمان عليه السلام، فإنه أعطاه منها **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**، لا تراه يحكي عن بلقيس حين قالت **﴿إِنِّي أَلْقَيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ \* إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**? لا فمن قرأها معتقد لوالدة محمد وآل الطيبين، منقادا لأمرهما، مؤمنا بظاهرهما وباطنهما<sup>(٤٤)</sup>، أعطاه الله عز وجل بكل حرف منها حسنة، كل واحدة منها أفضل له من الدنيا بما فيها من أصناف أموالها وخيراتها، ومن استمع إلى قارئ يقرؤها كان له قدر ثلث ما للقارئ، فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرض لكم، فإنه غنية، لا يذهبن أوانه، فتبقى في قلوبكم الحسرة<sup>(٤٥)</sup>.

#### الخصيصة السادسة: (المراج)

قال تعالى: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بَعْدَهُ لَيْلًا مِنَ الْمَسَجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسَجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**<sup>(٤٦)</sup>.

إن أصل الإسراء والمعراج ورؤيه الآيات السماوية قد لا يكون خاصا بالرسول ﷺ، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾**<sup>(٤٧)</sup> قال عليه السلام: «كشط لإبراهيم السماوات السبع حتى نظر إلى ما فوق العرش وكشط له الأرض حتى رأى ما في الهواء وفعل عبود ﷺ مثل ذلك وإنني لأرى صاحبكم و الأئمة من بعده قد

فعل بهم مثل ذلك»<sup>(٤٨)</sup>.

### إذن أين الخصوصية؟

تكمّن الخصوصية في الكيفية والهيئة التي أسرى وعرج فيها الرسول الأعظم ﷺ، ففي بعض الأخبار أن البراق لم يركبها أحد قبله ﷺ، بالإضافة إلى الأماكن التي زارها وصلى فيها، ووصوله إلى قاب قوسين أو أدنى، كما ورد في خطبة السجاد ﷺ في مجلس يزيد لعنة الله: «أنا ابن من علا فاستعلا فجاز سدرا المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى»<sup>(٥٠)</sup>.

وعن أبي عبد الله الصادق ع عليهما السلام أنه قال: «ما عرج برسول الله ع عليهما السلام انتهى به جبرئيل إلى مكان فخلى عنه، فقال له: يا جبرئيل تخليني على هذه الحالة؟ فقال: امضه فوالله لقد وطئت مكاناً ما وطئه بشر وما مشى فيه بشر قبلك»<sup>(٥١)</sup>.

وأعظم من كل ذلك ما تجلّى للنبي ﷺ من عظمة الخالق، فعن هشام بن الحكم عن أبي الحسن موسى ع عليهما السلام قال: «قلت له لأي علة صار التكبير في الافتتاح سبع تكبيرات أفضل، ولأي علة يقال في الركوع سبحان رب العظيم وبحمده، ويقال في السجود سبحان رب الأعلى وبحمده، قال: يا هشام إن الله تبارك وتعالى خلق السموات سبعاً والأرضين سبعاً والمحجب سبعاً، فلما أسرى بالنبي ﷺ وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب من حجبه فكبر رسول الله ع عليهما السلام وجعل يقول الكلمات التي تقال في الافتتاح، فلما رفع له الثاني كبر فلم يزل كذلك حتى بلغ سبع حجب وكبر سبع تكبيرات، فلذلك العلة يكبر في الافتتاح في الصلاة سبع تكبيرات، فلما ذكر ما رأى من عظمة الله ارتعدت فرائصه فابتراك على ركبتيه، وأخذ يقول سبحان رب العظيم وبحمده، فلما اعتدل من رکوعه قائماً نظر إليه في

موضع أعلى من ذلك الموضع خر على وجهه وجعل يقول سبحانه ربى الأعلى وبحمده، فلما قال سبع مرات سكن ذلك الرعب فلذلك جرت به السنة<sup>(٥٢)</sup>.

#### الخصيصة السابعة: (الخاتمية):

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾<sup>(٥٣)</sup>، فبالرسول عليه السلام وبرسالته ختمت وقامت وأمضيت الرسالات التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام.

وتتميز الرسالة الحمدية الخاتمة بالعالمية والخلود، أما الخلود فمسلم بل هو من الضرورات، فعن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبدا إلى يوم القيمة، وحرامه حرام أبدا إلى يوم القيمة، لا يكون غيره ولا يجيء غيره<sup>(٥٤)</sup>، وبقية الرسالات نسخت بالدين الإسلامي الحنيف، ولذلك فبرحيل المصطفى إلى الملوك الأعلى انقطعت النبوة والوحي، يقول أمير المؤمنين عليه السلام -عند تغسيل النبي عليه السلام-: «بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد من سواك من النبوة والإنباء، خصصت حتى صرت مسلية عن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء»<sup>(٥٥)</sup>، ولو لا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع لأنفينا عليك ماء الشؤون<sup>(٥٦)</sup>».

وأما عالمية الرسالة فقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَذَيِّرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٥٧)</sup>، ولكن هناك خلاف في اختصاص ذلك برسالة النبي عليه السلام.

(خصائصه عليه وآله في يوم المحشر)

### الخصيصة الأولى: (مقام الشفاعة العظمى)

عن رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطها أحد قبلي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي المغن، ونصرت بالرعب، وأعطيت جوامع الكلم، وأعطيت الشفاعة»<sup>(٥٩)</sup>.

وعن الرسول الأعظم ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيمة ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع»<sup>(٦٠)</sup>.

والظاهر أن هذه الشفاعة خاصة، وإلا فإنه ورد في الأخبار أنه حتى المؤمن يشفع، فعن الإمام الصادق ع: «إن الجار ليشفع لجاره، والحميم لحميمه، ولو أن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين شفعوا في ناصب ما شفعوا».

وعن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قال أبو جعفر(الباقي) ع: «يا جابر لا تستعن بعذونا في حاجة ولا تستطعه ولا تسأله شربة ماء، إنه ليمر به المؤمن في النار فيقول: يا مؤمن ألسْتُ فعلتُ بكَ كذا وكذا؟ فيستحيي منه فيستنقذه من النار، وإنما سمى المؤمن مؤمنا لأنه يؤمن على الله فيؤمن من أمانه».

فالنبي ﷺ هو أول من يشفع ويفتح باب الشفاعة لمن دونه من الأنبياء والأوصياء والمؤمنين.

فعن سماعة، عن الإمام الصادق ع قال: سأله عن شفاعة النبي يوم القيمة، قال: يلجم الناس يوم القيمة العرق فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا عند ربك، فيقول: إن لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح، فيأتون

نواحٍ فيردهم إلى من يليه، ويردهم كلّ نبيٍّ إلى من يليه، حتى ينتهون إلى عيسى فيقول: عليكم بِمَحْمُودٍ رَسُولَ اللَّهِ (عَلَيْهِ وَآلهِ وَسَلَامٌ) وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنة ويستقبل باب الرحمن ويخرج ساجداً فيمكث ما شاء الله فيقول الله عزوجل: ارفع رأسك واسفح تشفع وسلم تعط، وذلك قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَعْتَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا﴾<sup>(٦)</sup>.

### الخصيصة الثانية: ( وحده يقول: أمتي أمتي )

عن النبي ﷺ: «أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا وَقَفَ الْخَلَائِقَ وَجَمَعَ الْأَوْلَيْنَ وَالآخِرَيْنَ أُتِيَّ بِجَهَنَّمَ تَقادَ بِأَلْفِ زَمَامٍ، أَخْذَ بِكُلِّ زَمَامٍ مَائَةً أَلْفَ مَلْكٍ مِنَ الْغَلَاظِ الشَّدَادِ وَهَا هَدَةٌ وَتَحْطُمُ وَزْفِيرٌ وَشَهِيقٌ، وَإِنَّهَا لِتَنْزَفُ الزُّفْرَةَ فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِيَّلَهُ أُخْرَاهَا إِلَى الْحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الْجَمِيعَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عَنْقٌ يَحِيطُ بِالْخَلَائِقِ الْبَرِّ مِنْهُمْ وَالْفَاجِرِ، فَمَا خَلَقَ اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عَبْدٍ مَلِكٍ وَلَا نَبِيًّا إِلَّا وَيَنْدَدِي يَا رَبَّ نَفْسِي نَفْسِي وَأَنْتَ تَقُولُ: يَا رَبَّ أَمْتِي أَمْتِي»<sup>(٦)</sup>.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ، يتكلّم فيها عن يوم القيمة ويخاطب الزهراء علّيها السلام: «ثُمَّ أَنْظُرْ يَمِينًا وَشَمَالًا إِلَى أَمْتِي وَكُلِّ نَبِيٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُشْتَغِلٌ بِنَفْسِهِ يَقُولُ: يَا رَبَّ نَفْسِي نَفْسِي، وَأَنَا أَقُولُ يَا رَبَّ، أَمْتِي أَمْتِي، فَأُولُوْنَ مَنْ يَلْحِقُ بِي أَنْتِ وَعَلَيِ الْحَسْنِ وَالْمَحْسِنِ»<sup>(٦٣)</sup>.

### الخصيصة الثالثة: ( بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ )

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَفَرَغَ اللَّهُ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ، دَفَعَ الْخَالقَ عَزَّ ذِيَّلَهُ مَفَاتِيحَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ إِلَيْهِ فَأَدْفَعَهَا إِلَيْكَ، فَيَقُولُ لَكَ: احْكُمْ». قال علي علّيها السلام:

والله إن للجنة (أحدا) <sup>(٦٩)</sup> وسبعين بابا، يدخل من سبعين منها شيعتي وأهل بيتي، ومن باب واحد سائر الناس <sup>(٦٩)</sup>.

وهناك رواية لطيفة تذكر أحببت ذكرها هنا، فعن ابن فضال قال: سألت أبا الحسن (الكاظم) عليه السلام، فقلت له: لم كني النبي عليه السلام بأبي القاسم؟ فقال: «لأنه كان له ابن يقال له قاسم فكني به، قال فقلت له: يا بن رسول الله فهل تراني أهلا للزيادة؟ فقال: نعم، أما علمت أن رسول الله عليه السلام قال: أنا وعلى أبيها هذه الأمة قلت بلى، قال أما علمت أن رسول الله عليه السلام أب لجميع أمته وعلى عليه السلام فيهم منزلته؟ فقلت: بلى، قال: أما علمت أن عليا قاسم الجنة والنار، قلت: بلى، قال: فقيل له أبو القاسم لأنه أبو قسيم الجنة والنار فقلت له وما معنى ذلك؟ فقال: إن شفقة النبي عليه السلام على أمته شفقة الآباء على الأولاد وأفضل أمته علي عليه السلام <sup>(٦٦)</sup>.

#### الخصيصة الرابعة: (أول من يدخل الجنة)

عن الرسول عليه السلام: آتي يوم القيمة بباب الجنة واستفتح، فيقول المخازن: من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك <sup>(٦٧)</sup>.

وعنه عليه السلام أيضا: أظهر الله تبارك وتعالى الإسلام على يدي، وأنزل الفرقان على، وفتح الكعبة على يدي، وفضلني على جميع خلقه، وجعلني في الدنيا سيد ولد آدم، وفي الآخرة زين القيامة، و حرم دخول الجنة على الأنبياء حتى أدخلها أنا، وحرمتها على أمّهم حتى تدخلها أمّي، وجعل الخلافة في أهل بيتي من بعدي إلى النفح في الصور، فمن كفر بما أقول فقد كفر بالله العظيم <sup>(٦٨)</sup>.

## **الخصيصة الخامسة: (الأول في مواقف القيامة)**

عن الإمام الباقر عليه السلام: «دخل علي عليه السلام على النبي عليه وآله من آخر الليل، فلم يزل النبي عليه وآله يرحب به حتى دنا فأجلسه، ثم قال: يا علي بنت الليلة حيث ترى اطلب إلى ربِّي وأسأله أن يجمع عليك الأمة من بعدي، ولكن أعطيت سبع خصال وأنت معي، أنا أول من تنشق عنه الأرض وأنت معي ولا فخر، وأنا أول من يرد الموض وأنت معي ولا فخر، وأنا أول من يجوز الصراط وأنت معي ولا فخر، وأنا أول من يقرع باب الجنة وأنت معي ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة وأنت معي ولا فخر، وأنا أول من يشرب من الرحيق المختوم ختمه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وأنت معي ولا فخر، يا علي إن الرجل من شيعتك ليشفع في مثل ربعة ومضر<sup>(٦٩)</sup>.»

وأخيراً نقول بأنه ذكرت للرسول الأعظم عليه وآله، خصائص تزيد بمرات عما ذكرناه هنا، اكتفيينا بذلك بعضها، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا شفاعة محمد وآل الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## **المواهش:**

(١) مدينة العاجز ج ٢ ص ٤٣٩.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

(٣) البحار، ج ٨٤، ص ١٩٩.

(٤) البحار، ج ١٥، ص ٢٤.

(٥) نفس المصدر.

(٦) علل الشرائع: ج ١ ص ٥.

- (٧) الكافي ج ٨ ص ٩٤.
- (٨) شرح الكافي ج ١٢ ص ١٢.
- (٩) الكافي ج ١ ص ٤٤٠.
- (١٠) سورة الفرقان: ٥٤.
- (١١) أمالى الطوسي ص ٣١٣.
- (١٢) علل الشرائع ج ١ ص ٢٠٩، والكافي ج ١ ص ٤٤٢.
- (١٣) الكافي ج ١ ص ٢١.
- (١٤) علل الشرائع ج ١ ص ١٧٤.
- (١٥) البحار ج ١٦ ص ٣٤٢.
- (١٦) منتهى الآمال ج ١ ص ٤٣.
- (١٧) نفس المصدر.
- (١٨) نفس المصدر ص ٥١.
- (١٩) نفس المصدر ص ٥٤.
- (٢٠) تعليقية شرح إحقاق الحق للسيد المرعشى ج ٢، ص ٢٥٦—عن الشيخ عبدالله البحري صاحب المعلم.
- (٢١) عيون أخبار الرضا عاشئه، ج ٢، ص ٢٧٤.
- (٢٢) الكافي ج ٢ ص ١٠.
- (٢٣) البحار ج ١٥ ص ٤.
- (٢٤) علل الشرائع ج ١ ص ١٠.
- (٢٥) مجمع البيان ج ٢، ص ٣٣٤.
- (٢٦) نور الثقلين ج ١، ص ٣٥٩.
- (٢٧) سورة البقرة: ١٢٩.
- (٢٨) البرهان ج ١، ص ٣٣٦.
- (٢٩) سورة البقرة: ٨٩.
- (٣٠) البرهان ج ١، ص ٢٧٧-٢٧٨.

.١٥٧) سورة الأعراف: .٣١)

.٦) سورة الصاف: .٣٢)

.٢٧٠) قصص الأنبياء للراوندي، ص

.٩) سورة الجن: .٣٤)

.٣٦٠) أمالى الصدوق ص

.٢٥٤) أمالى الشیخ الصدوق رحمه الله، ص

.٥٧) الكافی ج ٨ ص

.٩٠) الكافی ج ١ ص

.٣٥١) العلل للصدوق ج ١ ص ١٧٥. ومعانی الأخبار ص

.٤٤٢) الكافی ج ١ ص

.٦٩) الوسائل ج ٤ ص

.٢٧٤) الكافی ج ٨ ص

.٣٨٢) البحارج ١٦ ص

.٤٤) في نسخة: منقادا للأمرهم، مؤمنا بظاهرها وباطنها.

.٢٤١) أمالى الصدوق، ص

.١) سورة الأسراء: .٤٦)

.٧٥) سورة الأنعام: .٤٧)

.١٢٧) بصائر الدرجات ص

.٤٩٧) البرهان ج ٤ ص

.٣٩) الإحتجاج ج ٢ ص

.٤٤٢) الكافی ج ١ ص

.٣٣٣) العلل ج ٢ ص

.٤٠) سورة الأحزاب: .٥٣)

.٥٨) الكافی ج ١ ص

- (٥٥) قوله: (خصشت) أي في المصيبة، أي اختصت وامتازت مصيتك في الشدة بين المصائب حق صار تذكرها مسلية عما سواها، وعمت مصيتك الأنام بحيث لا يختص بها أحد دون غيره.
- (٥٦) أي لأنفينا على فرافقك ماء عيوننا الحارى من شؤونه وهي منابع الدمع من الرأس.
- (٥٧) أمالى المفيد ص ١٠٣.
- (٥٨) سورة سباء: ٢٨.
- (٥٩) أمالى الصدوق ص ٢٨٥.
- (٦٠) البحار ج ١٦ ص ٣٢٦.
- (٦١) البحار ج ٨ ص ٣٦.
- (٦٢) الكافي -الروضة- ج ٨ ص ٣١٢.
- (٦٣) الروضة في فضائل أمير المؤمنين -شاذان بن جبرئيل القمي ص ٩٢.
- (٦٤) هكذا، وفي بعض المصادر (إحدى).
- (٦٥) أمالى الطوسي ص ٣٦٩.
- (٦٦) العلل ج ١ ص ١٢٧.
- (٦٧) أمالى الطوسي ص ٣٩٥، البحار ج ١٦ ص ٣٢٤.
- (٦٨) الحصول ص ٤١٣، البحار ج ١٦ ص ٣٢٦.
- (٦٩) مناقب الإمام أمير المؤمنين علیه السلام، ج ١ ص ٢٣٨ - محمد بن سليمان الكوفي.

عَلِيُّ سَوْلَانُ اللَّهِ

## نبينا ﷺ مبادئ وقيم

قصيّ الشیخ علیّ العربی

كَسْه لَبِّیکَ يَا ولیّ امر المسلمين، امثالاً لواجب الإطاعة لوليّ امر المسلمين سماحة آية الله العظمى الإمام الخامنائي دام ظله للاستفادة وللاستنارة بوعي بأهداف السيرة النبوية المباركة، رأى قلمي القاصر أن يلبي هذا الأمر العظيم راجياً من العليّ الجليل الموفقية والسداد.

### تعريف السيرة النبوية:

لا شكّ - لقارئي الكريم - أنّ المراد من سيرة الإنسان هي طريقة ونهجه في الحياة أو تاريخ حياته، وسيرة الرسول ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام هي النهجية والتحرّك وفق برامج حددتها لهم الديانة الإلهية الحاكمة، والمتمثلة بالإسلام العظيم، حيث إن الله تبارك وتعالى جعله القانون النهائي الشامل في مرحلة بلوغ البشرية ونضجها، فهو من حيث العقائد بلغ درجة الكمال في محتواه، ومن حيث التشريع بلغ أعلى مراحل التنظيم بحيث إنّه يلبي حاجات الإنسان في كلّ عصرٍ وزمانٍ<sup>(١)</sup>.

وتتجلى سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام في مجموع أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم تجاه الأحداث والظواهر المختلفة التي عاصروها وعاشوا معها خلال ثلاثة قرونٍ وأربعة عقودٍ تقريرياً. أي: منذ بعثة الرسول ﷺ حتى انتهاء

الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عليه السلام، وقد اهتم القرآن الكريم ببيان سيرة الأنبياء والصلحاء، ودعا إلى الاستهداء بسيرتهم، والاعتبار بسيرة الغابرين والاتعاظ بها، كما أكد على الاهتمام بسيرة خاتم الأنبياء وسيدهم محمد بن عبد الله عليه السلام في خطاب وجهه إلى رسوله الكريم بقوله عز من قائل **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**<sup>(٢)</sup>.

بلى، هي الحقيقة من هدفية السيرة النبوية الخالدة، فالاقتداء والاستهداء بها يعني السير والاتجاه نحو الصراط المستقيم، وهو الصراط الموصل إلى السعادة والفلاح، وقد تتمثل هذا الصراط في الأنبياء الذين أنعم الله عليهم بنعمة هدايته، حيث إنهم عليهم السلام يشكلون خط الرسالة الذي لا انحراف فيه أبداً، وقد حافظ الله على سلامته واستقامته ليكون قدوة للناس، قال تعالى: **﴿أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهَا هُمْ أَفْتَدُهُمْ﴾**<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا كانت دراسة أهداف السيرة النبوية المباركة بشكل صحيح عاماً من عوامل تحقق التربية الإسلامية للنفس التي لم تعاصرهم، وطريقاً لتعلم النهج الصحيح للحياة<sup>(٤)</sup>، لهذا يتجلّى من خلال قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَذَّاحاً فَمُلَاقِيهِ﴾**<sup>(٥)</sup> الحاجة الضرورية إلى القيادة الإلهية لسلوك هذا الطريق الطويل المحفوف بالمخاطر المخيفة؛ إذ بدونها - أي بدون القيادة الإلهية - سيقع الإنسان بلا أدنى شك في دوامة الضلال والضياع.

بعد هذه الإشارة العابرة تتّضح لنا هدفية الرسالة الحمدية التي سنبحثها بالاستعانة بالقرآن الكريم.

عوًدًا على ما تقدّم نسأل سؤالاً إياضيًّا، وهو: هل يمكن أن يُتركَ الإنسان بلا هدايةٍ ولا إرشاد؟

المجواب: نقول: إذا آمن الإنسان بعدلة الله تعالى في أجزاء الكون، فإنه لا بدّ أن يؤمن بعدلته أيضاً في الهدایة والإرشاد؛ ذلك لأن العدالة تأبى أن يخلق الخلق بالملائين ويتركهم يتيهون في ظلام الجهل والضلال، خاصةً بعد أن نجد أن الله تعالى قد أرشد حتى الحيوانات إلى ما فيه خيرها، فجعل لها غرائزها التي تهديها إلى صوابها، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَةً ثُمَّ هَدَى﴾<sup>(١)</sup>، فالله تعالى الذي خلق الأشياء، ثم هداها في طريقة تنفسها، وأكلها، وشربها، والحماية عن نفسها وغير ذلك، فالله حينما خلق الأشياء علم أنها تحتاج إلى وسائل تغذية وحماية وتنفس وغيرها، فهداها إلى كل ذلك بفضله وعدالته التي أبى على الكون إلا أن يسير ضمن خطوطٍ مترنة هي التي أرسلت إلى الأرض من يقود الإنسان إلى ما فيه خيره، ويضع له البرامج الكفيلة بإسعاده، وهم الأنبياء عليهم السلام.

ومن خلال هداية الله للأشياء ينبغي أن يهتدى الإنسان بهدى العقل ورسالة رب إلى منافعه ومصالحه الحقيقية، ومعنى هذا: أن الله تعالى أبى في الإنسان أن يجبره على اتباع العدل كما أجبر الشمس والقمر وباقى الكواكب أن تجري في مداراتٍ عادلة، وأجبر الأشجار والحيوانات أن تتبع أنظمةً معينةً، وأراد العدل فأجبر جسم الإنسان أن يتبع نظاماً معيناً، فالقلب يعمل ما دام الدم يجري في العروق، والمعدة تعمل ما دامت تحصل على الطعام السليم، وهكذا بقية الأجهزة الحيوية في جسم الإنسان، بل أراد سبحانه العدل في الإنسان وترك له أن يعمل بوحي وجданه الذي زرعه فيه من عالم الذر؛ لأن إجباره على اتباع العدل يعني سلبه أهم ميزاته، وهي:

الاختيار.

غير أنَّ الله تعالى تفضل على الإنسان بوسائل توعيةٍ عظيمةٍ، حيث خلق فطرته على سنته، وزوّده بالعقل والعلم، ومع ذلك أرسل إليه الأنبياء والرسل وأنزل معهم الناهج والشرع ليذكّروا الإنسان بوجданه، ويحسّنوا سريرته، وينظموا حياته ويهدوه سواءً السبيل، من هنا كان إرسال الرسل مسألةً تقتضيها عدالة الله، كما تقتضيها حاجة الإنسان إلى الدين والرسالة بعد أن أثبتت التجارب البشرية حتّى الآن عجز الإنسان عن التوصل إلى النظام الأفضل، والشريعة الأحسن لحياته، فالله تعالى حكمته وعلمه ولطفه أرسل الأنبياء هداية خلقه، حتى بلغ عدد الأنبياء مئةً وأربعةً وعشرين ألفَ نبيًّا، أرسلهم الله في مناطق مختلفةٍ، وعلى فترات متواترة زمنياً، وكان آدم عليه السلام بداية سلسلة الأنبياء، وكان محمد بن عبد الله عليهما السلام خاتم هذه السلسلة.

### أهداف البعثة:

**أهداف البعثة وفلسفه إرسال الرسول ﷺ من خلال القرآن الكريم:**

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَنْذُرُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٧)</sup>، في هذه الآية المباركة يدور الحديث حول أعظم نعمة إلهية، ألا وهي نعمة «بعثة الرسول ﷺ» والهدف من بعثته، ولحّقت هذه الآية الهدف من بعثة الرسول ﷺ في ثلاثة أمور:

**الهدف الأول:** تلاوة آيات الله على مسامعهم ليتدبروا فيها بعد بيانها لهم آية تلو آية، وهذا الهدف - أي التلاوة - يعتبر مقدمةً للهدين الآخرين؛ حيث يُعتبران

الهدف النهائي الكبير، وهما:

الهدف الثاني: التهذيب وتزكية النفس.

الهدف الثالث: تعليمهم الكتاب والحكمة، بمعنى إدخال هذه الحقائق - المستوحاة من الكتاب والحكمة - في أعماق ضمائرهم وقلوبهم.

توضيح الهدف الأول لبعثة النبي ﷺ :

إِنَّ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ عَنِ الْحَقَائِقِ إِلَيْنَا يَرْجُونَ مَرْجِعًا فَلَا يَجِدُونَ أَوْلَادًا مِّنْ إِيمَانِهِمْ آيَاتُ اللَّهِ مَدَّةً مِّنَ الزَّمْنِ حَتَّىٰ تَذَهَّبَ عَنْهُمُ الْوَحْشَةُ الَّتِي وَقَعُوا فِرِيسَةً لَّهَا مِنْ قَبْلٍ؛ لِّيَسْتُنَّ حِينَئِذٍ إِدْخَالَهُمْ فِي مَرْجِعِ الْعِلْمِ، ثُمَّ يَكُنُّ اقْتِطَافَ ثَارِ التَّرْبِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ<sup>(٨)</sup>.

من هنا كان الهدف الأول من بعثة النبي ﷺ هو بث الآيات القرآنية بينهم وبيانها لهم آيةً بعد آيةٍ، والذي من شأنه بث الوعي والإدراك وتفجير الطاقات الحية الكامنة داخل النفس البشرية، ومن أهمها استشارة العقل في البحث عن الطريق؛ لأنّ الآيات تبيّن معالم الطريق وهي أساس المهدى، ومن هذا نستفيد ونهندي إلى أنّ أول ما يجب على الواقعين والجماعيات الإسلامية القيام به هو بث الثقافة الصحيحة بين الناس لكي يقتنعوا بالإصلاح ويتحسّسوا ضرورته، ويتحصّنوا بها من الدعايات المغرضة، والأنسياق وراء كلّ قولٍ لا يعرف غير صناعة الكلمة الكاذبة والقول الباطل كما هو ديدن الطغاة والحكام الظلمة، حيث يستخدمون الكلام الباطل لتبرير ظلمهم للناس، ومحاربتهم لدعوة الإصلاح.

### **المعنى الجليّ للهدف الثاني:**

إنّ المراد من الهدف الثاني - أي قوله تعالى: ﴿وَيَرْكِبُهُمْ﴾ هو تطهير المجتمع من عقد النفس وأغلاها التي تقنع انطلاقهم نحو الهدى، ولا يمكن لأمةٍ مثقلةٍ بعقد الأحقاد والأضغان، والأغلال والحسد والاستئثار، وأصر المخوف والتهيّب والانطواء، لا يمكن لمثل هذه الأمة أن تنھض بمسؤولية الإصلاح والتقدم، أو أن تكون أهلاً لوحى الله وهداه؛ لذلك عمد الرسول ﷺ - وهو ينشد النھضة بذلك المجتمع - إلى تطهيره من أدran الشرك والتخلّف والماھلية.

### **المراد من الهدف الثالث للبعثة المباركة:**

طبعاً إنّ المراد من الهدف الثالث للبعثة النبيّ محمد ﷺ هو تعليم الكتاب والحكمة للمجتمع بعد ما تفاعل مع الآيات، واهتدى بها إلى غایاتها، وتزكّى بها، وبتوجيهاتٍ من النبي ﷺ فقد كان الرسول ﷺ أول مفسّرٍ ومؤوّلٍ لمعانيه، من هنا تصبح لدى الإنسان القابلية العقلية والنفسية لتلقي تعاليم الرسالة والتفاعل معها، ولعلّه - كما يقول المفسرون - لذلك تقدّمت تلاوة الآيات والتزكية على التعليم، وما أحوجنا - وبالذات مجاهينا العلميّة - أن نتعلّم ونعلم كتاب الله الذي يرشدنا للهدي والفلاح، إنّ الرسول ﷺ طهر النفوس والعقول من الأغلال والعقد، ثمّ قام بتعليم الأمة معاني الكتاب بعد تلاوته عليهم، ويستخرج لهم منها مناهج الحياة، سواء كانت في الأمور السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو العسكرية، حتّى أصبح القرآن بدليلاً حضارياً شاملًا عن المناهج المماھلية الضالّة، وقد عبرت عن هذا التحول التأريخي السيدة فاطمة بنت محمد ﷺ بقولها عن أبيها: «ابتعثه الله إقاماً لأمره، وعزيةً على إمضاء حكمه، وإنفاذًا لمقادير حكمته، فرأى الأُمم فرقاً في

أديانها، كفّاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمد ﷺ ظلّمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى الأ بصار غممها، وقام في الناس بالهدایة، فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العمایة، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم»<sup>(٩)</sup>.

وقالت عليهما السلام: «وكنتم على شفا حفرةٍ من النار، مذقة الشارب، ونهرة الطامع، وقبضة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلةٌ خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم»<sup>(١٠)</sup>.

**المراد من (الأميين) في الآية الشريفة:**

قال كثيرٌ من المفسّرين: إنَّ «الأميين» جمع أميٍّ، وهو الذي لا يعرّف القراءة والكتابة، ونسبة إلى الأم باعتبار أنه لم يتلقّ تعليمًا في معهدٍ أو مدرسة غير مدرسة الأم، والأظهر أنَّ المراد من «الأميين» هم الجهلة، إلا أنه ينبغي القول بأنَّ الأمي والجاهلي ليس الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ فإنَّ ذلك هو المعنى الحرفيُّ الظاهر للكلمة، فقد يُنْسَبُ العالم الذي يقرأ ويكتب إلى الجاهليّة والأمية؛ لأنَّه لا يتفاعل مع معارفه، قال الإمام الصادق عليهما السلام: «كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتابٌ من عند الله، ولا بُعثَ إليهم رسولٌ، فنسبهم الله إلى الأميين»<sup>(١١)</sup>.

وعدم القراءة والكتابة مظہرٌ واحدٌ من مظاهر التخلف والجهل، وللجاهليّة مظاهرٌ شتّى تصدق جميّعاً على كلمة الأميّ، وهذا ما تؤكّد عليه الآية الشريفة، على أنَّ نبیّ الإسلام بعثَ من بين هؤلاء الأميين الذين لم يتلقّوا ثقافةً وتعلّماً؛ وذلك لبيان عظمّة الرسالة وذكر الدليل على حقائقها؛ لأنَّ من الحال أن يكون هذا القرآن العظيم - وبذلك المحتوى العميق - وليد فکرٌ بشريٌّ، وفي ذلك المحيط الجاهلي، ومن شخصٍ

أُمِّيٌّ أَيْضًا، بَلْ هُوَ نُورٌ أَشْرَقَ فِي الظُّلُماتِ، وَدُوْحَةٌ خَضْرَاءٌ فِي قَلْبِ الصَّحَراءِ، وَهِيَ بِحَدِّ ذَاتِهَا مَعْجَزَةٌ بَاهِرَةٌ وَسِنْدُقَاطِعٌ عَلَى حَقَانِيَّتِهِ<sup>(١٢)</sup>.

هُنَاك شَبَهَةٌ حَاوِلَ الْبَعْضَ أَنْ يَدْسُسَهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ: ﴿مِنْهُمْ﴾:  
إِذْ نَسَبُوا إِلَى النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ الْأُمِّيَّةَ وَالْجَهْلِ!! فَمَا هُوَ الْجَوابُ عَلَى هَذِهِ الشَّبَهَةِ؟

سَعَى أَئِمَّةُ الْهَدِيَّةِ لِدَفْعِ هَذِهِ الشَّبَهَةِ بِصُورَةٍ مُنْطَقِيَّةٍ، فَقَدْ قِيلَ لِلْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَقْرَأْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَذَبُوا عَنْهُمُ اللَّهُ، أَتَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَّيْنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فَيَكُونُ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَلَيْسَ يَحْسَنُ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَكْتُبَ؟!

فَسُئِلَ: فَلِمَ سُمِّيَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ؟

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نُسِّبَ إِلَى مَكَّةَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَتُنَذِّرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فَأَمَّ الْقُرَى مَكَّةُ، فَقِيلَ أُمِّيٌّ»<sup>(١٣)</sup>.

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ مَأْثُورٍ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ تِسْمِيَةَ الْعَرَبِ بِالْأُمَّيْنِ كَانَ بِسَبِبِ حَرْمَانِهِمْ عَنِ كِتَابِ إِلَهِيٍّ، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ نَسْبَةَ الرَّسُولِ إِلَى ذَلِكَ كَانَ بِسَبِبِ اِنْتِمَائِهِ إِلَى أُولَئِكَ الْقَوْمَ جُغْرَافِيًّا وَنَسْبِيًّا، وَلَيْسَ لَأَنَّهُ شَخْصِيًّا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ الْكِتَابِ فَكِيفَ يَكُونُ أُمِّيًّا بِهَذَا الْمَفْهُومِ؟! طَبِعًا هَذَا التَّفْسِيرُ - الَّذِي يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْمَرَادَ مِنْ «الْأُمَّيْنِ» هُمُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ أُمَّ الْقُرَى - نَسْتَفِيدُ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ تَجْلٌ لِحِكْمَةِ اللَّهِ؛ حِيثُ يَبْعَثُ رَسُولَهُ فِي مَرْكَزِ الْبَلَادِ وَأَكْبَرِ مَدْنَاهَا وَأَهْمَهَا، وَحِيثُ بُؤْرَةُ الْفَسَادِ وَالْضَّلَالِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ أَثْرًا فِي التَّغْيِيرِ.

## الحكمة في القرآن الكريم:

في الحقيقة ذُكرَ لكلمة الحكمة معانٍ وتفاصيل كثيرة منها:

- المعرفة والعلم بأسرار العالم.

- ومنها: العلم بحقائق القرآن.

- والوصول إلى الحق بالقول والعمل.

- ومعرفة الله تعالى.

- وأنّها النور الإلهي الذي يميّز بين وساوس الشيطان وإهامات الرحمن.

والظاهر هو أنّ الحكمة تأتي بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الأمور بما فيها النبوة التي هي نوعٌ من العلم والاطلاع والإدراك، فهي في الأصل أخذت من مادة حكم) - على وزن حرف - بمعنى المنع، وبما أنّ العلم والمعرفة والتدبیر قناع الإنسان من ارتكاب الأعمال الممنوعة والمحرّمة، فلذا يُقال عنها إنّها حكمة<sup>(١٤)</sup>.

وجاء في تفسير الحكمة في ميزان الحكمة - أنقلها بتصرّفٍ - :

أولاً: أنّ المراد من الحكمة الواردة في الآية الكريمة هي المعرفة، كما جاء عن

الإمام الباقي عليه السلام<sup>(١٥)</sup>.

ثانياً: أنّ المراد منها: هي طاعة الله ومعرفة الإمام عليه السلام<sup>(١٦)</sup>.

ثالثاً: وأحسن كلمة حكم جامعة أن تحبّ للناس ما تحبّ لنفسك، وتكره لهم ما تكره لها<sup>(١٧)</sup>.

وغيرها من الأحاديث والروايات والحكم التي تحتّ المؤمنين على الاتّصاف بالحكمة؛ لهذا أراد النبي محمد ﷺ من تعليمه للحكمة بعد الآيات القرآنية

ليحسنوا فهمه وتطبيقه على الواقع حسب اختلاف الظروف وتقدم الحياة وتطورها، فالحكمة تستنبط الحلول لمشاكل الحياة ومفراداتها.

#### توضيح آخر للمراد من الحكمة من خلال التفاسير القرآنية:

يقولون: يبدو أنّ الحكمة الإلهية تُستَوْحى من الآيات المحكمة التي يرد إليها كل آيات القرآن وكلّ الحوادث الواقعه في الحياة؛ ذلك لأنّ محكمات القرآن هي التي تذكر الإنسان بالقيم الفطرية المترسكة في ضميره، وتثير دفائن عقله بالحقائق الكبرى التي يعرفها بذاته بعد التبصير بها.

وبكلمةٍ: المحكمات القرآنية هي مرتکزات العقل الإنساني، كالتوحيد والعدل والحرية والمسؤولية وما أشبه، وهي التي تعتبر مصدراً للتشريع الإلهي، كما يزعم الحكام الظلمة والمشرّعون الوضعيون - كما في دساتيرهم - أنّهم يعتمدونها في تشريعاتهم، وحينما بلغ الإنسان درجةً متقدّمةً من الوعي بهذه المركبات، ويعقلها عقل درايةٍ، ويتعمّق في معرفتها، هنالك يصبح فقيهاً قد أُوقي الحكم، وحينئذٍ يستطيع أن يستنبط سائر أحكام الشريعة منها، كما يتمكّن من اعتمادها في مواقفه السياسية والاجتماعية المتغيرة، وأعرف الناس بالحكمة، وأقدرهم على استنباط الأحكام الفرعية منها، وأوّعهم لبصائرها، هو الجدير بحكم الأمة؛ لأنّه أقرب إلى القرآن من غيره؛ ولأنّ القرآن هو الحكم الأول في الأمة الإسلامية، وإنما عيشه أوّعى الناس له وأقرب الناس إليه.

لذلك فإنّ الحكمة هنا تعني الولاية الإلهية والقيادة الشرعية؛ لأنّها وعاء الحكمة والمعارف الربانية، ومرتكز البصائر القرآنية، من هنا جاءت النصوص المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهما السلام تفسّر من جهةِ الحكم بالولاية كما تقدم، وتبيّن من جهةِ

أخرى أنّ الحكمة هي التفقة في الدين، قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ الْحِكْمَةَ الْمُرْعَفَةُ وَالْتَّفْقِيدُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ فَقِهَ مِنْكُمْ فَهُوَ حَكِيمٌ»<sup>(١٨)</sup>.

وهكذا تتوال تفسيراتهم للحكمة لتوضح أنها بلوغ مستوىً من علم الدين يمكن الإنسان من معرفة متغيرات الشرائع، وهو الفقه، نعم، لا يمكن فقه الإسلام بعمقٍ من دون فقه الزمن؛ لأنّ حكم الله يختلف من حادثةٍ لأخرى وواقعةٍ وثانية، وإنّما أصبح الفقهاء مرجعاً لأحكام الدين لأنّهم يعرفون الدين، ويعرفون شروط الزمن ومتغيرات الحوادث، فيستنبتون أحكامها منه؛ ولذلك جاء في مقدمة الرسائل العملية للمراجع هذا الحديث الشريف: «وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ فَارْجُعُوهَا فِيهَا إِلَى رَوَاةِ حَدِيثِنَا».

وهكذا كانت الحكمة هي العقل المزكي بالدين، وهي لا تتأتى عادةً إلا بعد الإمام بسائر أحكام الشريعة وقيم الوحي، ولأنّ القرآن آخر رسالةٍ بعثها ربُّ إلى عباده، وهي تستمرة حتى قيام الساعة برغم تطور الظروف، فإنّ البشرية احتاجت إلى الحكمة المرتكزة في أئمّة الدين للاحقة المتغيرات، وهكذا دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّهُ أن يبعث في العرب من يعلّمهم الحكمة والكتاب، فقال هو وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَأَبَّنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُنَزِّكِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

واستجابةً للنبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أولئك الأئمّيين فجعلهم الله به في مستوىً رفيع، حتى قال في بعضهم الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «علماء حكماء، كادوا أن يكونوا من الفقهاء أنبياء»<sup>(١٩)</sup>.

أذكر قوله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنسبة لفلسفته بعثة

الأنبياء عليه السلام: «فَبَعَثْتَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَأَتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءً، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فَطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُوا عَلَيْهِمْ بِالْتَّبْلِيغِ، وَيُشِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ» (٢٠).

#### أولاً: توضيح وتفسير كلمتين من الخطبة الشريفة:

أ) معنى واتر من مادة «وتر»، بمعنى الفرد في مقابل الشفع بمعنى الزوج، وجاءت هنا بمعنى الواحد، أي أن الأنبياء قد أتوا الواحد تلو الآخر من أجل هداية الناس.

وقال البعض معناها الموالة مع الفاصلة، كأن يقال: واتر ما عليه من الصوم، أي صام يوماً وأفطر آخر، في مقابل متدارك الذي يعني الموالة دون تخلّل الفاصلة.

ب) المراد من ليستأدوهم أي: ليطلبوا الأداء.

وإجابة على السؤال نقول: لقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الشريفة إلى أربعة أهداف رئيسية تقف وراء فلسفة بعثة الأنبياء، وهذا ثانياً من الجواب.

**الهدف الأول: طلب أداء ميثاق الفطرة.**

الهدف الثاني: تذكير الناس بنعم الله.

الهدف الثالث: إقامة الحجة على الناس من خلال الأدلة العقلية والفتريّة.

الهدف الرابع: إثارة دفائن العقول.

#### المراد من طلب أداء ميثاق الفطرة:

في الحقيقة حينما خلق الله تعالى الإنسان خلقه وأودع المعرفة التوحيدية في فطرته - ما لم تتدنس وتلوث وتتعرّف على الانحراف، ودون نشأة أصحابها ولادتها على الشرك بفعل انحداره من والديه مشركين - إلى عبادة الواحد الأحد، وسوف يتطلع إلى الصالحات فيتطلع إلى الخير وينبذ الشر ويعشق الحق والعدل في ظل هذه

الفطرة السليمة الموحّدة، ولو بقيت هذه الفطرة السليمة على حالها لحفّت العنيات الإلهيّة الإنسانيّة جماءً وهدتها إلى السموّ والكمال، ولسهلّ لهم الأنبياء السبيل إلى ذلك الكمال، ولقلّ حجم المسؤوليّة التي ينهض بعبيها هؤلاء العظام، غير أنَّ الانحراف عن الفطرة - سواء على مستوى المعرف التوحيدية لينتهي بالنزوع نحو الشرك والوثنية أو على المستوى العمليّ ليقود الاستسلام إلى الأهواء والشياطين - قد أدى إلى بعث الله للأنبياء وتحملهم لتلك المسؤوليات الخطيرة بغية إعادة البشرية إلى فطرتها الأصلية، وبقولٍ أجلٍ: جاء الأنبياء عليهما السلام ليعيدوا الأفراد المنحرفين إلى هذه الفطرة التوحيدية الموعدة لديهم<sup>(٢١)</sup>.

#### فلسفة البعثة:

إنَّ المراد من فلسفة البعثة هو تذكير الناس بنعم الله تعالى، تذكير الناس بنعم الله التي اعترتها الغفلة والنسيان، فالإنسان ينطوي على نعمٍ ماديّةٍ ومعنويةٍ جمّةٍ، ولو استغلالها كما ينبغي فإنّه سيشيد صروح سعادته وفلاحته، في حين سيفقد مثل هذه السعادة إذا ما نساحتا وتجاهل استعمالها واستغلالها، ومثله كمثل الفلاح الذي لا يستفيد من المياه لسقي أشجار حديقته ولا يقطف ثمار أشجاره عند الحصاد، فإذا ما جاء أحدهم وذكره بهذه النعم المنسيّة فإنّه يكون قد أسدى له أعظم خدمةٍ، وهذا ما ينهض به الأنبياء<sup>(٢٢)</sup>.

#### فلسفة إتمام الحجّة على الناس من خلال الأدلة العقلية والفطرية:

طبعاً المراد من ذلك هو: إقامة الحجّة على الناس من خلال الأدلة العقلية - إلى جانب المسائل الفطرية - وإرشادهم إلى الكمال في ظلّ التعاليم السماوية والأوامر

والأحكام الشرعية<sup>(٢٣)</sup>، ولتوسيع هذا التعريف نحتاج إلى تفكيكه لاستخراج بعض المصطلحات لنبيّها، ومن ثمّ نصل للمراد وذلك من خلال طرح النكات التالية:

المراد من مصطلح الحجّة هنا:

يتّضح معناه - لقارئي الكريم - من خلال ما يلي:

أولاًً: قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾<sup>(٢٤)</sup>، إنّ التاريخ يحدّثنا بأنّ العذاب لم ينزل على أمةٍ ما إلا من بعد أن يرسل الله إليهم هادياً ينذرهم، ويبلغهم ببيان التكليف وإلقاء الحجّة، طبعاً يوجد في أبحاث الموزة العلمية بحث باسم بحث البراءة - التي تعتبر قاعدةً أصوليةً استدلّوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ على أنّ فهم الآية يوضّح أنّ المسائل التي لا يمكن للعقل إدراكتها أو القطع بها، ولا يُعاقب عليها الإنسان حتى يبعث الله الرسل والأنبياء ليبيّنو الأحكام والتکاليف والوظائف، وهذا بحدّ ذاته دليلٌ على عدم العقاب في الأمور التي لم تُقم الحجّة عليها، وقاعدة «أصل البراءة» لا تعني شيئاً غير هذا، أي لا عقاب بدون حجّةٍ من العقل أو النقل.

كلمة «الرسول» الواردة في الآية الكريمة تعتبر عامّةً؛ حيث تشمل كلّ من حمل رسالة التوحيد بصورةٍ مباشرةٍ كرسول الله ﷺ أو غير مباشرةٍ مثل الأئمّة المعصومين علیهم السلام أو الفقهاء المجتهدین، قال الإمام المھدی ع: «أمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنّهم حجّت عليهم، وأنا حجّة الله»<sup>(٢٥)</sup>.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لَيْسَنَ لَهُمْ فَيُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢٦)</sup>، تشير هذه الآية الشريفة إلى بعده

خاصٌّ، وهو أنَّ دعوة الأنبياء وكتبهم السماوية نزلت من أجل إقام الحجَّة بلسان أول قومٍ بُعثوا إليهم، وكون الله عزَّوجلَّ عزيزاً فإنه حميدٌ أيضاً، لا يعذِّب الناس إلاّ بعد أن يتم حجّته عليهم، ولكن كيف؟! قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾؛ لأنَّ الأنبياء يرتبطون في الدرجة الأولى مع قومهم، وأول نور الوحي يشع من بينهم، وأول الصحابة والأنصار يُنتخبون منهم؛ لذلك فإنَّ الرسول يحبُّ أن يحدِّثهم بلغتهم وب Lansanهم ﴿يَعْلَمُ لَهُمْ﴾، أي: بكلٍّ وضوحٍ وبعباراتٍ مفهومةٍ وأمثلةٍ وقصصٍ، وفي الحقيقة فإنَّ هذه الجملة تشير إلى أنَّ دعوة الأنبياء لا تتعكس في قلوب أتباعهم بأسلوبٍ مرموزٍ وغير معروفٍ، بل كانت توضح لهم من خلال التبيين والتعليم والتربية وب Lansanهم الرا�ح.

ثم يضيف القرآن الكريم بعد أن بين لهم الدعوة الإلهية: ﴿قَيْضَلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٢٧)</sup>.

### الموجَّه والهادي الحقيقي لعباده:

طبعاً ليست الهدایة والضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ والتبيين، الله عزَّوجلَّ هو الموجَّه والهادي الحقيقي لعباده ولا يضلُّ أحداً أو يهديه إلاّ بحكمته البالغة، ولكي لا يتصور أحدٌ أنَّ هذا القول بمعنى الجبر وسلب الحرَّيات، يضيف القرآن مباشرةً ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وبمقتضى عزَّته وقدرته فإنه قادرٌ على كل شيءٍ، ولا أحد له قدرةٌ على المقاومة في مقابل إرادته تعالى، ولكن بمقتضى حكمته لا يهدي ولا يضلُّ أحداً بدون سببٍ ودليلٍ، بل الخطوة الأولى تبدأ من قبل العباد وبكامل الحرَّية في السير إلى الله، ثم يشعُّ نور الهدایة وفيض الحق في قلوبهم، كما في

سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِي نَّهْمَمْ سَبَّنَا﴾<sup>(٢٨)</sup>.

فيُستفاد من هذه الآية المباركة أن شرط الهدایة هو الجهاد؛ لأنّ الجهاد يبعد الإنسان عن حبّ الذّات والأنانيّات المقيّدة، وعندما يكون الإنسان مجاهداً فإنّ أبواب العلم والمعرفة ستكون مشرعةً أمامه، وما عليه سوى الحُجَّ والاجتِهاد.

وكذلك حال الّذين تاهوا في وادي الضلال وحرّموا من فيض الهدایة، فهو نتيجة لتعصّبهم الأعمى ومحاربتهم للحقّ، وغرقهم في الشهوات، وتلوّثهم بالظلم والجور، كما يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾<sup>(٢٩)</sup>.

حيث تكشف هذه الآية عن سبب موقفهم المنحرف من الحقّ، وهو إسرافهم من الناحية العمليّة، فلا يقنعون بما عندهم من الخير والنعمـة، وارتباـبـهم من الناحية النظريّة والنفسيّة، فلا يسلّمون للحقّ والبيّنـاتـ، وإذا أمعناـ النظرـ لـوجـدـناـ كلـتاـ الصـفتـيـنـ تـنـتهـيـانـ إـلـىـ صـفـةـ وـاحـدـةـ، وـهـيـ عـدـمـ التـسـلـيمـ لـلـحـقـ، وـعـدـمـ الـاـكـفـاءـ بـماـ أـعـطـاهـمـ اللـهـ، وـطـلـبـ الـمـزـيدـ، الـمـزـيدـ مـنـ النـعـمـ إـلـىـ حدـ الإـسـرـافـ، وـالـمـزـيدـ مـنـ الـأـدـلـةـ إـلـىـ حدـ الـجـدـلـ فـيـ الـآـيـاتـ الـواـضـحـاتـ.

بناءً على ذلك كله لم تشملكم الهدایة الإلهيّة بسبب أعمالكم وموافقكم.

### الآية الثالثة ومصطلح الحجّة هنا:

هذه الآية الشريفة تشير إلى حقيقة إقام الحجّة، وهي واحدةٌ من غاذج إرسال الأنبياء في مقابل طاغيت عصرهم؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، فعندما أرسل الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام آياته التي تستجلّي الفطرة، وتبرهن العقل، بعصاته ويده البيضاء، وأمره الله بأن يذكرهم بأيام الله حين ينتصر المظلوم على الظالم في الدنيا والآخرة، لعله يخرجهم بهذه التذكرة من ظلمات الإرهاب والعناد وعبادة الطاغوت

إلى نور الحرية والرفاه وعبادة الرحمن، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾<sup>(٣٠)</sup>.

وبالرجوع إلى الآية الأولى من هذه السورة المباركة نرى أن خلاصة دعوة رسول الإسلام النبي محمد ﷺ هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهذه دعوة كل الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر، كما جمعت في هذه الجملة - الخروج من الظلمات إلى النور -، أي الخروج من ظلمات الجهل إلى المعرفة، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلم الظالمين إلى نور العدالة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الذنوب إلى الطهارة والتقوى، ومن التفرقة والنفاق إلى نور الوحدة.

ومن الطريف أن «الظلمات» هنا - كما في بعض السور الأخرى - جاءت بصيغة الجمع، و«النور» بصيغة المفرد، وهذه إشارة إلى أن كل الحسنات والطيبات والإيمان والتقوى لها حالة واحدة في ظل التوحيد ونوره، فهي مترابطة ومتّحدة فيما بينها، فتصنع مجتمعاً واحداً متّحداً وظاهراً من كل جهة، بينما الظلمات تعني التشتت وتفرقة الصفوف، وحتى الطواغيت والمذنبين والمفسدين والمنحرفين في مسيرتهم الانحرافية نراهم غير متّحدين غالباً، وفي حالة حرب فيما بينهم.

وهنا توجد نقطتان وملاحظة:

إن التعبير في الآية المباركة «أن أخرج» يشير إلى نقطتين:

**الأولى:** بما أن القرآن الكريم كتاب هداية ونجاة للبشر، لكتبه بحاجة إلى من يطبقه ويجريه، فيجب أن يكون هناك قائد كالرسول لكي يستطيع أن يخرج الضاللين عن الحقيقة من ظلمات الشقاء وهدايتهم إلى نور السعادة؛

ولهذا فالقرآن الكريم بعظمته لا يمكن له أن يحل جميع المشاكل بدون وجود القائد والمنفذ لهذه الأحكام.

الثانية: إن صيغة الإخراج - في الواقع - دليل على التحرّك المشفوع بالتغيير والتحول، وكأن غير المؤمنين موجودون في محيط مُعلقٍ ومظلمٍ، والرسول - أو القائد - يأخذ بأيديهم ويدخلهم إلى جوٌ واسعٌ ومنيرٍ.

أما الملاحظة فهي:

إنه من الملفت للنظر أن بداية هذه السورة شرعت بمسألة هداية الناس من الظلمات إلى النور، ونهايتها ختمت بمسألة إبلاغ وإنذار الناس، وهذه توضح أنَّ الهدف الأصلي في كل الأحوال هو الناس ومصيرهم وهدايتهم، فإنزال الكتب السماوية وبعث الأنبياء في الواقع هو الوصول إلى هذا الهدف<sup>(٣١)</sup>.

إهلاك الله للأقوام:

طبعاً - كما يعلم قارئي الكريم - إن الله لا يسلب حضارة قومٍ أو يهلكهم هلاكاً مادياً، إلاّ بعد تحقق أمرين:

الأمر الأول: إقامة الحجّة:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَنْهَا عَنِيهِمْ آيَاتِنَا﴾<sup>(٣٢)</sup>،  
وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾<sup>(٣٣)</sup>.

إن التاريخ يحديننا بأن العذاب لم ينزل على أمّةٍ ما إلا من بعد أن يرسل الله إليهم هادياً ينذرهم، ويبلغهم رسالات ربهم، وكما تقدّم إن المراد من كلمة الرسول هنا هو العموم؛ حيث تشمل كلّ من حمل رسالة التوحيد بصورةٍ مباشرةٍ كرسول

الله ﷺ أو غير مبasher مثل الأئمة علیهم السلام، أو الفقهاء المحتهدين جامع‌الله، أو المؤمنين الوعين المخلصين.

#### الأمر الثاني: ممارسة الظلم:

فبالإضافة إلى أنّ سنن الله تقتضي زواله، ودمار مرتكبيه، فالطاغوت الذي يظلم الآخرين ويسلب حقوقهم لا يسلم من ردة الفعل إن لم ينزل عليه عذابٌ مباشرٌ من الله كالمرض وأمثاله، قال تعالى: «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ»، أجل، لا يعذّب الله قوماً حتى يتمّ عليهم حجّته ويرسل إليهم رسّله، وحتى بعد إقام الحجّة، فما لم يصدر ظلّم يستوجب العذاب فإنّ الله سبحانه لا يعذّبهم، وهو يراقب أعمالهم.

والتعبير بـ«ما كُنَّا» أو «وَمَا كَانَ رَبُّكَ» دليلٌ على أنّ سنّة الله الدائمة والأبدية التي كانت ولا زالت، هي أن لا يعذّب أحداً إلا بعد إقام الحجّة الكافية<sup>(٣٤)</sup>. وهل يلزم من قوله تعالى: «حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا» - كما ذكرنا فيما سبق - إرسال الرسل إلى جميع المدن؟

الحقيقة تفيد أنّ التعبير هنا بـ«حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا» إشارةٌ إلى عدم لزوم إرسال الرسل إلى جميع المدن والأماكن، بل يكفي أن يبعث في مركزٍ من مراكزها التي تنشر العلوم والأخبار رسولاً يبلغهم رسالاته؛ لأنّ أهل تلك المناطق في ذهاب وإيابٍ مستمرٍ إلى المركز الرئيسي لاحتاجتهم الماسّة، وما أسرع أن ينتشر الخبر الذي يقع في المركز إلى بقية الأحياء القرية والبعيدة، كما انتشرت أصداء بعثة النبي محمد ﷺ التي كانت في أم القرى «مكة» ل المناسبتها مع هدف إقامة الحجّة، وكانت مركزاً روحانياً في الحجاز، كما كانت مركزاً تجاريًّا أيضاً، فانتشرت أخبار

النبي ﷺ ووصلت جميع المراكز المهمة في ذلك الحين، وفي فترة قصيرة جداً، فهي المكان الأنسب حين تصل أصداء الرسالة منها إلى أوسع رقعةٍ من الأرض<sup>(٣٥)</sup>.

فعلى هذا تبيّن الآية حكماً كلياً وعاماً، وما يدعوه بعض المفسرين من أنها إشارة إلى «مكة» لا دليل عليه، والتعبير بـ«في أمها» هو تعبير عامٌ كليٌّ أيضاً لأنَّ كلمة «أم» تعني المركز الأصلي، ولا يختصُّ هذا بـمكة فحسب<sup>(٣٦)</sup>.

### من هنا تأتي النكتة التالية: هل تخلو الأرض من حجّة؟!

لقد أكد الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على حقيقةٍ أخرى، وهي عدم خلو الأرض من الحجّة الإلهية الظاهرية أو الباطنية، «ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبيٍّ مرسلاً، أو كتاباً مُنزلَ، أو حجّةً لازمةً، أو مَحْجَةً قائمةً»، والطريف في كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قرَنَ الكتب السماوية بالأنبياء والحجج الإلهية والسيرة المعتبرة، نعم، وراء كل كتابٍ سماويٍّ نبيٍّ من أنبياء الله يكشف أسراره، ويوضح معالمه، ويبين أحکامه إلى جانب إجرائه وتنفيذ مفاهيمه، كما يواصل نهجه بواسطة سنته واستخلافه للوصي والإمام من بعده ليحفظ رسالته ويواصل نهجه، وهذه من أهم عقائدنا في هذا المجال، حيث ورد عن إمامنا الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال: «لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما حجّة»<sup>(٣٧)</sup>، هذا الأمر الذي أكدَه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في قصار كلماته، «اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجّةٍ، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلاً تبطل حجج الله وبيناته»<sup>(٣٨)</sup>.

### دور الدين في الحياة بوجود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ :

الحقيقة كلَّ الحقيقة إنَّه لو لا وجود الأنبياء لتأهلت البشرية في غياب الشرك

والوثنية وعبادة الأصنام، ولاستحوذتْ عليها الشياطين وحالتْ دون عبوديتها ومعرفتها بالله؛ وذلك لأنّ العقل بمفرده لا يسعه الأخذ بيد الإنسان إلى السعادة بعد تجاوز موانع الطريق ومعوقاته، صحيحٌ أنّ العقل نورٌ خالدٌ، إلاّ أنّ شعاعه باهتٌ خافتُ ما لم يستند إلى ضياء الوحي الذي يخترق المكان ولا يقف عند حدودٍ فيهديه في اجتياز ظلمات الطريق، ومن هنا تتضح جسامته الخطأ الذي أصاب البراهمة الذين تنكروا لبعثة الأنبياء وإرسال الرسل، ولو كان العقل يدرك كافة أسرار الإنسان الباطنية والظاهرة، ويحيط بالعلاقة التي تحكم الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يخطئ في تشخيصه للأحداث، لأمكن القول بالاكتفاء بإدراكه وفهمه لكافة وقائع الحياة في هذا العالم والعالم الآخر، غير أنّ محدودية هذا الفهم والإدراك وضالة المعاليم مقارنةً بالمجاهيل - وهي المعاليم التي تتسم بالسعة والشمولية - لا تجعل من الصواب الاستناد إليها بمفردها.

طبعاً لا ننكر أنّ العقل هو حجّة الله التي أكدّها الإمام عاشور في هذه الخطبة، حيث قال عاشور: «وَيُشِيرُوا إِلَيْهِمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»، أي: ليكشفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنة في عقولهم، فقد أودع الله هذه العقول كنوزاً عظيمةً قيمةً لو ظهرت واستُغلَّتْ لشهدت العلوم والمعارف نهضةً عظيمةً وجباراً، غير أنّ هذه الكنوز اختفت واستترت إثر هذه الغفلة والتعاليم الفاسدة والذنوب والمعاصي والتلوّث الأخلاقيّ، ومن هنا فإنّ إحدى وظائف الأنبياء تكمن في إزالة هذه الحجب وإثارة تلك الكنوز المفعمة بالعلوم والمعارف؛ لهذا تواترت الروايات الشريفة التي صرّحت بأنّ العقل هو رسولٌ باطنيٌّ، حيث ورد في الحديث المروي عن الإمام الكاظم عاشور أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى النَّاسِ حِجَّتَيْنِ: حِجَّةُ الظَّاهِرَةِ، وَحِجَّةُ الْبَاطِنَةِ، فَمَا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئْمَمُ، وَمَا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ»<sup>(٣٩)</sup>، مع ذلك فرسالة هذا الرسول الباطن محدودةٌ

بينما ليست كذلك رسالة الرسول الظاهر الذي يستند إلى الوحي والعلم الإلهي المطلق، وبناءً على ما تقدم فقد اتّضح الرد على البراهمة للسوسيطائين الذين يقولون ما يأني به الأنبياء لا يخرج عن حالتين، إما أن تدرك العقول ما يقولونه أو لا يدرك، فإن أدركه العقل فلا حاجة للأنبياء، وإن لم يدركه فهو ليس بعقولٍ ولا يكن قبولة لأنَّ الإنسان لا يقبل قطَّ ما لا يُعقلُ.

والإشكال الذي يرد على هذا الاستدلال هو أنَّ هؤلاء لم يفرقوا بين اللامعقول والمجهول، وكأنهم تصوّروا أنَّ العقل يدرك جميع الأشياء، والحال أن لدينا تصنيفًا ثلاثيًّا بشأن المواضيع المطروحة، فالمواضيع التي تعرض علينا إما أن تكون موافقةً لحكم العقل أو مخالفةً له أو مجهولةً، ولا يسعنا هنا إلا أن نقول بكل تأكيد أنَّ أغلب الموضوعات من قبيل القسم الثالث، أي هي من قبيل الجاهيل التي كرّست رسالة الأنبياء وظيفتها في هذا المجال، أضف إلى ذلك فغالبنا ما يعترينا هاجس الخطأ والرلل في إدراكاتنا العقلية، ومن هنا برزت حاجتنا الملحة للأنبياء، وبعبارة أخرى: إلى تأييد العقل بالنقل الذي يسعه منحنا السكينة والاطمئنان في إدراكاتنا العقلية، ويزيل الوساوس والهواجس، ويأخذ بأيدينا إلى السبيل القويم<sup>(٤)</sup>.

إلهي نور قلوبنا دائمًا بنور القرآن وسنة النبي ﷺ وأبنائه المعصومين علیهم السلام، والحمد لله رب العالمين.

### المواهش:

(١) سلسلة دروس في العقائد الإسلامية، ص ١٢٥، بتصرّفِ.

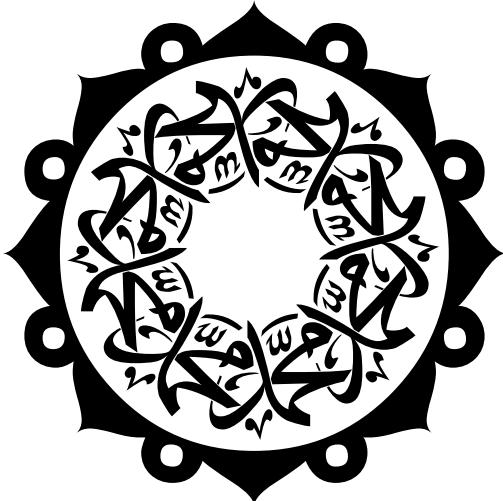
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٤) بتصرّفِ من قبسات من سيرة القادة المدّاة، ج ١، ص ١٨.

- (٥) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
- (٦) سورة طه، الآية: ٥٠.
- (٧) سورة الجمعة، الآية: ٢.
- (٨) تفسير الأمثل، ج ٢، ص ٥١١، بتصرّفِ.
- (٩) الاحتجاج، ج ١، ص ٩٩.
- (١٠) نفس المصدر، ص ١٠٠.
- (١١) نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٢٢.
- (١٢) بتصرّفِ من تفسير الأمثل، ج ١٨، ص ٢٣٣.
- (١٣) نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٢٢.
- (١٤) تفسير الأمثل، ج ٢، ص ٢١٦، بتصرّفِ.
- (١٥) ميزان الحكمة، رقم الحديث ٤٢٢٢.
- (١٦) نفس المصدر، رقم الحديث ٤٢٢٣.
- (١٧) نفس المصدر، رقم الحديث ٤٢٣٤.
- (١٨) ميزان الحكمة، ج ٢، رقم الحديث ٤٢٢٥.
- (١٩) نور الثقلين، ج ١، ص ٢٨٨.
- (٢٠) نهج البلاغة، أنصاريان، ج ١، ص ٢٠.
- (٢١) نقلًا عن نفحات الولاية، بتصرّفِ، ج ١، ص ١٤١.
- (٢٢) نفس المصدر، بتصرّفِ.
- (٢٣) نفس المصدر.
- (٢٤) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
- (٢٥) ميزان الحكمة، ج ٢، حديث رقم ٣٣٢٥.
- (٢٦) سورة إبراهيم ﷺ، الآية: ٤.
- (٢٧) بتصرّفِ من تفسير الأمثل، ج ٧، ص ٣٢٤.
- (٢٨) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
- (٢٩) سورة غافر، الآية: ٣٤.

- (٣٠) سورة إبراهيم ﷺ، الآية: ٥.
- (٣١) بتصرّفٍ من تفسير الأمثل، ج ٧، ص ٣٢٣، وتفاسير أخرى.
- (٣٢) سورة القصص، الآية: ٥٩.
- (٣٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
- (٣٤) بتصرّفٍ من تفسير الأمثل، ج ١٢، ص ١٩٨.
- (٣٥) بتصرّفٍ من نفس المصدر.
- (٣٦) نفس المصدر.
- (٣٧) الكافي، ج ١، ص ١٧٩.
- (٣٨) من الكلمات القصيرة في نهج البلاغة، ١٤٧، بتصرّفٍ من نفحات الولاية، ج ١، ص ١٤٦.
- (٣٩) ميزان الحكمة، ج ٦، حديث رقم ١٣٠٥٨.
- (٤٠) من نفحات الولاية بتصرّفٍ.



## عندما تتحدى الوجه وتتبدل!

رائد ميرزا الستري

كذلك إنّ ما يعطي الإنسان ارتياحاً واطمئناناً في مواجهته للإنسان الآخر هو الأمان الذي يتولّد من صدق المعاملة ووضوح الصورة، فعندما تتعامل مع إنسان يقدم لك وضوحاً في تصرفاته وسلوكه - بحيث تكون هذه التصرفات مملوءة بالصدق والمحبة - فإنّك تبادر هذا الإنسان أمناً وأماناً وراحةً وارتياحاً.

وعلى نقىض هذا الأمر عندما يحصل نوعٌ من الخداع والمماراة بحيث يتم إظهار شيءٍ وإخفاء شيءٍ آخر، فإنّ العلاقة حينئذ تكون في شكلها مأمونةً، إلا أنها في واقعها متزعزةً ومرتبكةً، ولذلك يقول الأمير عثيل<sup>(١)</sup>: «ما أصبح بالإنسان أن يكون ذا وجهين».

وهذه الحالة هي حالة النفاق التي يعيشها بعض الأشخاص، وهي ممارسةٌ خلقيّةٌ سيئةٌ تعتمد على إظهار الموافقة وإخفاء المخالفة، وعلى إظهار الإعيان وإبطان الكفر، وكأنّ صاحبها يشقّ له نفقاً في الأرض للاستثار من الأعداء<sup>(٢)</sup>، يقول المولى سبحانه حاكياً حال هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا آتُوهُمْ كَمَا آمَنُوا السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكُنْ لَا يَعْلَمُونَ \* وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَيْ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.  
﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهُدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ \* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جَنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

ويقول عنهم رسول الله ﷺ: «من خالفتْ سريرَه علانيته فهو منافقٌ كائناً من كان»<sup>(٥)</sup>، وعنه أيضاً ﷺ: «تجدون شرّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ»<sup>(٦)</sup>.

### خطورة المنافق:

خطورة المنافق أشدّ من خطورة الكافر؛ وذلك لأنّ الكافر عداوه واضحٌ، وهذا الوضوح يوفر استعداداً وحذراً يعطي قوّةً في المواجهة، وتحديد حجم الخطورة، بينما المنافق يعطيك صورةً تجعلك في أمانٍ واستئمانٍ، ويفاجئك بعد ذلك بطنعاتٍ عديدةٍ ترهق جسمك، ولربما تقضي عليه، بل تُقبره!! ويأخذ هو بالبكاء عليك.

وما يزيد المنافق خطورةً عندما يارس خبشه بحرفيّةٍ عاليةٍ، تجعل من طعناته طعناتٍ غير محسوسةٍ، بل تجعلك تعيش حالةً من الوهم والجهل بأتمّها كجراح الطبيب الذي يريد أن يعالجك، تحت مسمياتٍ جميلةٍ مقبولةٍ، كسمى «النقد البناء»، و«الرأي الآخر» ونحوه.

### أدوات المنافق وصفاته:

يعتمد المنافق على إظهار صدق الصورة الظاهرة، ويحاول أن يعيش التكتّم على الباطن، وفي ذلك يعمد إلى استخدام الأدوات التالية:

#### الكذب:

ليحافظ على صورته مشرقةً، وليقدم للناس بياضاً ناصعاً، هذا هو الهدف والوجه الذي يجاهد المنافق لإبقاءه طويلاً، فيعمد إلى الكذب كثيراً ليبرر موافقه، أملاً في نيل مبتغاه، فعن أمير المؤمنين ع: «بالكذب يتزّين أهل النفاق»<sup>(٧)</sup>.

### عذوبة اللسان:

اصطناع القناعات والماوقف والبطولات ضرورةٌ يلجمُ لها المنافق دوماً لتحسين الصورة؛ وقوية وجوده بين المؤمنين؛ وتعزيز تواجده كقيادةٍ يكن التعويل عليها، وهذه البطولات لا بدّ لها من حاكٍ يحكيها، وهو لسانه العليم، الذي لا يفتأّ يحكي القصص ويفبركها، يقول الرسول ﷺ: «أَخْوَفُ عَلَيْكُم مِنَافِقًا عَالَمَ الْلِسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَعْمَلُ مَا تَنْكِرُونَ»<sup>(٨)</sup>، وعنه ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم بَعْدِي كُلُّ مَنَافِقٍ عَلَيْمِ الْلِسَانِ»<sup>(٩)</sup>.

### المدح ظاهراً والغيبة باطناً:

ما يغيب المنافق أن تتعالى شخصياتٍ إيمانيةٍ كفؤةٍ عالياً، ويحرق قلبه غيظاً وحدقاً عندما يجد الشخصية المناسبة في المكان المناسب، فتراه في حركة دائمةٍ لإسقاط الشخصيات الإيمانية أينما كانت باعتماد أسلوب «المدح ظاهراً والطعن باطناً»، يقول الإمام الباقر ع: «بَئْسَ الْعَبْدُ إِذْ يَكُونُ ذَا وَجْهَيْنَ وَذَا لِسَانَيْنَ، يُطْرِي أَخَاهُ شَاهِدًا وَيَأْكُلُهُ غَائِبًا، إِنَّ أَعْطِيَ حَسْدَهُ، وَإِنْ ابْتُلَى خَذْلَهُ»<sup>(١٠)</sup>.

ونحن نعلم أنّ الغيبة تمارس دور الإسقاط للشخصيات بصورةٍ فعالةٍ، وما نهي الشريعة عنها إلا لذلك، وتعاظم النهي عنها حتى غدت من الكبائر ليس اعتباطياً لاغياً، فتقطيع العلاقات وحبائل الود والمحبة، وهدم الثقات بين أفراد المجتمع بعضهم البعض في غاية الخطورة، يقول المولى ع: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيْحِبُّ أَحَدًا كُمْ أَنْ يُكُلَّ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُتُمُوهُ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَحِيمٌ﴾<sup>(١١)</sup>.

ولكن أين المحب لنبي الله؟!

فالمشكلة في ممارسة هذه الأداة الفتاكه لا يقتصر على المنافقين وحدهم، بل يتعدّاه للفئات الإعانية، وهنا المصيبة الكبرى!!

اللعبة على أكثر من حبلٍ:

يصف المولى سبحانه المنافقين فيقول: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَوْلَاءِ وَلَا إِلَى هَوْلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾<sup>(١٢)</sup>.

التزبدب وصفٌ ملازمٌ لحالة النفاق التي يعيشها المنافق، فهو يحاول أن يعيش مع كلّ الأطراف المتناقضة في قناعاتهم، ويبدي القناعة لطறهم ولواقفهم، ويُسخر من مواقف وقناعات الطرف الآخر، وإذا جلس مع الطرف الآخر عاش معهم قناعاتهم وموافقيهم، وسخر من الطرف الأول، ممارسة الخداع بتعدد الوجوه، بوجهين أو أكثر لا مشكلة، ما دامت المسألة لا تتطلب أكثر من تبديل الأقنعة والوجوه، فتبديل الأول إلى الثاني يتم بسرعة فائقة ومن دون أيّة مشكلة.

يحكى لنا القرآن هذا السلوك للمنافق في عددٍ موضعٍ:

منها قوله: ﴿وَمَنِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ أَمَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ \* يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(١٣)</sup>.

ومنها قوله أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا آتُونَا كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ \* وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ \* اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾<sup>(١٤)</sup>.

هكذا هم المنافقون، ألوانٌ متعددة، وأقنعةٌ مختلفة، حسب الأ giochi، وحسب الأفراد.

## المظهر الجميل والخشوّع الساحر:

يقول رسول الله ﷺ: «إِيّاكُمْ وَتَخَشَّعُ النَّفَاقُ، وَهُوَ أَنْ يُرَى الْجَسَدُ خَاشِعاً وَالْقَلْبُ لَيْسَ بَخَاشِعاً»<sup>(١٥)</sup>.

ما أقدر المنافق على اصطناع الإيمان الزائف! والخشوع الساحر الخادع! حركات الجسد وجمود القلب، هكذا هو النفاق عندما يتلاعب بالجسد ليظهر مظاهر الإيمان والخشوع والقلب منها براء؛ إذ هو في وادٍ آخر من المعاصي والفحور، يقول الباري سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَانُوهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحذَرُهُمْ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُوقَكُونَ﴾<sup>(١٦)</sup>.

«تعوذوا بالله من خشوّع النفاق: خشوّع البدن ونفاق القلب»<sup>(١٧)</sup>.

هكذا حاهم، جمالُ في المظهر، ولكن فقدانُ للروح والقلب، فهم كالخشبة المستددة التي لا روح فيها.

## ما الذي يفضح المنافق؟

المنافق لا بدّ وأن يقع في مزالق وأخطاء تفضح سريرته وخبث باطنه، ولكن على رجال الله المخلصين أن يكونوا أذكياء بما يكفي لمعرفة هؤلاء.

## أقوالٌ ولا عملٌ:

مشكلة المنافق تكمن في أنه يتحدى كثيراً ولا يفعل شيئاً مما قد أمر به ودعا إليه، يقول الأمير عثيمان: «أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ولم يعمل بها، ونمى عن المعصية ولم ينتهِ عنها»<sup>(١٨)</sup>، فما أكثر الأقوال والادعاءات، ولكن في الواقع العملي لا

شيء، فهم أفضل مصدق للمثل الذي يقول: «أسمع جمعة ولا أرى طحناً». هرب عند المحنّة والشدّة:

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَأْفَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَاتَلُوا لَوْ نَعْلَمُ  
قَاتَلًا لَا تَعْنَاكُمْ هُمْ لِكُفُرٍ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي  
قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ \* الَّذِينَ قَاتَلُوا إِلَيْهِنَّمْ وَقَعْدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ  
فَادْرِءُوهُمْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتُ إِنْ كُمْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩).

لا يتلک المنافق ثباتاً على الموقف، بل إله يتنازل عن الموقف وأصحابه عندما تتعارض مع مصالحه الشخصية، فالمهرب عند الحنة خير دليل على نفاقه.

## قصّتان من واقع السيرة المحمديّة:

مسجد ضرار

يقول الباري سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لَمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلٍ وَتَيْخِلْفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* لَا تَقْمُ فِيهِ أَبْدًا لَمَسْجِدًا أَسْسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَطَهِّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (٢٠).

يحكى لنا القرآن الكريم في هذه الآيات المباركات قصة مسجد ضرار، وتبدأ قصة هذا المسجد، أنّ شخصاً يُدعى بأبي عامر دعا المنافقين إلى بناء مسجدٍ في حين سيتوجّه هو لقيصر الروم لطلب النصرة على رسول الله ﷺ، وما أجمل من بناء المساجد، فهو عملٌ بحسب ظاهره ولا أحسن منه، ولكنّ مواطن الدعوة لبنيائه ليست

كذلك؛ إذ كان الهدف من بناء هذا المسجد التجسس على المسلمين عندما يجتمعون فيه، ومن جهة أخرى تقوية شوكة المنافقين بإيجاد أتباع لهم وتفريق المسلمين. وفعلاً تم بناء المسجد، وحان وقت مباركة القيادة له بالصلاوة فيه، فتوّجّهوا لرسول الله ﷺ يدعونه لذلك، فما كان إلا أن أنزل الله سبحانه جبرائيل عليه السلام علىنبيه ﷺ يخبره بملابسات المسألة وبهلاك أبي عامر قبل وصوله لملك الروم، وعندئذ أمر الرسول الأكرم ﷺ بهدم هذا المسجد وإحراقه واتخاذ أرضه كنasaة تُلقي فيها الجيف.

ومن هذه القصة تتعرّف على أسلوب النفاق بالتلبيس بالموافق الحقة، والدعوة لله بحسب حسن الظاهر، وإبطان عكس ذلك تماماً، وعملهم هذا الظاهري لم يتمتّع بأي قيمةٍ أخرى، كما لم يتمتّع بأي قيمةٍ دنيوية، فالمسجد عندما انقلب وكراً لمحاربة الله ورسوله ﷺ فقد كلَّ قيمته!

#### معركة أحد:

علم الرسول الأعظم ﷺ بتجهيز المشركين وخروجهم من مكة تجاه المدينة للقى المسلمين، وعندها جمع رسول الله ﷺ أصحابه يشاورهم في الأمر، فأشار عليه جمع من أصحابه أن يبقى في المدينة فيلقى المشركين فيها بزعم أن ذلك أمكن للMuslimين على المشركين، ولكن قامت فئة من الصحابة التواقة للشهادة يشيرون على رسول الله ﷺ بالخروج خارج المدينة ولقاء المشركين، وتعالت أصواتهم عالياً مملوءةً بالحماس والشجاعة، حتى انقلب الرأي لهم واستحسن رسول الله ﷺ ذلك.

من ذلك كله كان رأس النفاق عبد الله بن أبي يقف بجانب من دعا إلى البقاء في المدينة، وكان غرضه من ذلك أن ينقلب على رسول الله ﷺ عندما يجده الجدد، ولكن خاب أمله، ولكن لم يكتف بذلك، بل قام وخرج مع رسول الله ﷺ هو وأتباعه، وفي الطريق دعاهم للتخلّف بحجّة أن بيتهم عورة لا حامي لها، وكان غرضه تثبيط همم المسلمين وذبّ الخلاف والفرقة بينهم، ولكنّ الجيش سار للمعركة وخاضها.

وبعدما هزم المسلمون جاء دور المنافقين في إثارة البلبة، وكأنّ الهزيمة كلّها ما جاءت إلا لمخالفتهم، ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوا لِإِخْرَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتْلُوا قُلْ فَادْرِءُوهُمْ وَعَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٢١)</sup>.  
هكذا هي أساليب النفاق، وهي صورٌ تبقى تتكرّر في المجتمعات الإسلامية، تنخر في جسدها، وتفتّ من وحدتها وتماسكها، ليبقى الوعي بخطورة هؤلاء ومحاربتهم والحذر منهم هو الأمل في بقاء الشوكة والعزّة للإيان والمؤمنين، يقول المولى سبحانه: ﴿هُمُ الْعَدُوُ فَاحذِرُهُمْ قاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُوفَّكُونَ﴾<sup>(٢٢)</sup>.

## المواهش:

(١) الري شهري، ميزان الحكمة، دار الحديث، قم - إيران، ط١، [١-٤]، ج٤، ص ٣٣٨.

(٢) وهذا هو وجه المناسبة لتسميتها بالنفاق.

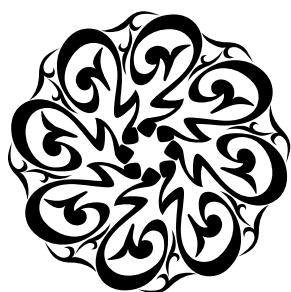
(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٣-١٤.

(٤) سورة المنافقون، الآيات: ١-٢.

(٥) الري شهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص ٣٤١.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٤٣.

- (٧) المصدر السابق، ص ٣٣٤٠.
- (٨) المصدر السابق، ص ٣٣٤٣.
- (٩) المصدر السابق.
- (١٠) المصدر السابق، ص ٣٣٤٢.
- (١١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
- (١٢) سورة النساء، الآية: ١٤٣.
- (١٣) سورة البقرة، الآيات: ٩-٨.
- (١٤) سورة البقرة، الآيات: ١٣ - ١٥.
- (١٥) الري شهري، ميزان الحكم، ج ١، ص ٧٤٥.
- (١٦) سورة المنافقين، الآية: ٤.
- (١٧) الري شهري، ميزان الحكم، ج ١، ص ٧٤٥.
- (١٨) الري شهري، ميزان الحكم، ج ٤، ص ٣٣٤١.
- (١٩) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٨-١٦٧.
- (٢٠) سورة التوبة، الآيات: ١٠٨ - ١٠٧.
- (٢١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.
- (٢٢) سورة المنافقين، الآية: ٤.



# مناقشة كتاب (آل البيت وحقوقهم الشرعية)

## الحلقة الأولى

حسن عبد الله القصاب

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، محمدٌ وآلـهـ الطـيـيـنـ الطـاهـرـينـ، سـيـمـاـ بـقـيـةـ اللهـ فـيـ الـأـرـضـينـ، مـوـلـانـاـ صـاحـبـ الـعـصـرـ والـزـمـانـ، وـالـلـعـنـةـ الدـائـمـةـ عـلـىـ أـعـدـائـهـ أـجـمـعـينـ، مـنـ الـآنـ حـتـىـ قـيـامـ يـوـمـ الدـيـنـ.

في أجواءٍ تملئها الدعاوى بالتمسّك بأهل البيت عليهم السلام وإظهار الحبة لهم وودهم، تطالعنا بين الفينة والأخرى بعض الكتب مدعيةً للإنصاف والنظرة الوسطية في الجانب العقدي، وهناك مساعٍ حثيثةٍ تبذل من أجل ترويجها المال الباهض لحرف التاريخ الإسلامي، هذا التاريخ الذي كُتب بأيدٍ ماجورة من بداية الأمر، وبإشرافٍ من السلطان الجائر، وهذا غُيّبت فيه الكثير من القضايا والمواقف، وغُيّبت فيه جهود المؤمنين المخلصين المضحين من أجل الإسلام، لترفع أولئك النفر الذين بذلوا كلّ ما يملكون من أجل هدم الإسلام وما جاء به النبي صلوات الله عليه وسلم وشرع السماء.

صدر كتيبٌ من المملكة العربية السعودية، وكاتبـهـ هوـ قـاضـيـ المحـكـمـةـ الـكـبـرـىـ بالقطيف، الشـيخـ صالحـ بنـ عـبدـ اللهـ الدـرـوـيـشـ، حينـماـ وـصـلـتـنيـ إـحـدـىـ النـسـخـ الـتـيـ كانتـ تـوزـعـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ مـنـ الشـيـاطـىـنـ الـمـؤـمـنـ بـهـ دـفـعـتـهـ تـبـيـيـنـ موـقـفـ أـهـلـ السـنـةـ مـنـ أـهـلـ الـبـيـتـ عليهم السلام، وـأـنـ أـهـلـ السـنـةـ قدـ عـرـفـواـ مـقـامـهـمـ وـاتـبـعـوهـمـ وـتـمـسـكـواـ بـهـمـ، كـمـاـ أـمـرـ بـذـلـكـ النبي صلوات الله عليه وسلم حينـماـ قـالـ:ـ (إـنـيـ تـارـكـ فـيـكـمـ الثـقـلـيـنـ)، كـتـابـ اللهـ وـعـتـرـتـيـ أـهـلـ

بيتي، فما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، وأحبّوهم كما أمر الله تعالى بذلك في قوله:  
﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

فهل يا ترى هذه الدعوى صحيحة من قبل فضيلة الشيخ القاضي؟! أم هي مجرد دعوى فارغة من كل جوانب الصواب؟!

وحاول فضيلة القاضي أن يبيّن معتقدات أهل السنة والجماعة بما يدور حول أهل البيت عليهما السلام، فهل هذه المعتقدات هي ما جاء به النبي الأكرم ﷺ واعتقد بها المحققون من علماء الفريقيين؟! أم هي دعوى لفضيلة القاضي تجنب الصواب؟! وهل هذه المعتقدات التي أوردها القاضي موجودة على أرض الواقع؟! أم هي موجودة في بطون الكتب والمصنفات؟!

فهل يا ترى نجح القاضي في هذه الدعوى أم لا؟! وهل طبق هذه المعتقدات الموجودة في كتابه أم هي أمور لا تعدو عن الجانب النظري؟!

وللإنصاف إن الواقع يشهد بأنّ أغلب الأمور التي ذكرها سماحة القاضي هي مخالفة لما هو واقع في الخارج، وهذا ما يلاحظه المنصف في التأمل في هذا الكتيب الصغير، فوجدتُ الكثير من الشبهات التي وردت في هذا الكتيب الصغير، والكثير من النقاط التي تطرح وتكون بأسلوب إغفال الطرف الآخر عن الحقيقة واستعمال التوجيهات والتأنيات، وإبراز العاطفة للآل، فسنرى في الخاتمة هل أنّ الكاتب ومن قسّى بمقالته قد تمسّكوا بأهل البيت عليهما السلام؟! أم أنّ الشيعة هم من تمسّكوا بأهل البيت عليهما السلام؟!

وهذه الإشكالات وإن كان علمنا قد قاموا بردّها وإبطالها، إلا أنّ هناك فراغاً كبيراً يجب ملؤه في ساحة الشباب المؤمن، والأمر الآخر أنّ أكثر كتابات العلماء

والفقهاء لا يستوعبها الشباب لدقّتها وصعوبتها عبائرها، فأخذت على عاتقي الردّ على ما جاء في هذا الكتيب محاولاً الكشف عن هذه الشبهات مبتعداً عن الأسلوب المعقد ومحتصراً بعض المطالب.

ونسأل الله التوفيق والسداد لخدمة الإسلام والمسلمين، ولخدمة أيتام آل

محمد ﷺ.

### المناقشة الأولى:

وهي في التفريق بين آل البيت وأهل البيت، حيث كتب بالخط العريض - عنواناً للكتيب - (آل البيت وحقوقهم الشرعية)، فما هو الفرق بين المصطلحين؟ بين الآل والأهل؟

المحواب: كلمة (آل) في اللغة تُطلق على أهل بيت الرجل، وقال ابن منظور: وآل الرجل أهله، وآل الله وآل رسوله أولياؤه، أصلها (أهل)، ثم أبدلت الهمزة فصار في التقدير (أَل)، فلما توالّت الهمزتان أبدلوا الثانية ألفاً<sup>(١)</sup>. فمن الناحية اللغوية ترجع كلمة (آل) إلى (أهل)، ولا تُطلق كلمة (آل) إلا على من حاز شرف النسب دون وضيع النسب، فيقال: آل الرسول، آل علي.

ما تقدم كان الكلام في معنى (أهل) و(آل) من جهة المعنى اللغوي، فهل هناك فرق بين الكلمتين من الناحية الشرعية الاصطلاحية أو لا؟

بيان مطلب: ممّا هو معروف أنّ عنوانين (آل البيت، أهل البيت، العترة، القربي ...) على المستوى اللغة أو الاستعمال خارج الدائرة الشرعية لها إطلاق ينطبق على كلّ ما من شأنه الاتصال بها بالسبب أو النسب - بالحقيقة أو بالمجاز - أو بأيّ ملاك آخر تُعرف عليه، فمن الواضح عند أهل اللغة وفي عرف الناس أنّ آل الرجل هم كلّ

من يتّصل به ممّن ينتسب إليه ولو بعد حين، فما زلنا نقول للرجل إنّه من آل فلان وبينه وبين فلان عشرات البطون، وكذا الأمر في القربي والعترة وأهل البيت، فإنّ كلّ من يسكن دار الرجل من نساءٍ ورجالٍ هم أهل بيته، وحتى الزوجة وإن كان بنحو المجاز، وعموم هذه الألفاظ على مستوى اللغة والعرف حقيقة لا تخفي على أحدٍ، ولكنّ الذي يهمّنا هو مناقشة هذه العناوين، هل بقيت على إطلاقها هذا في استعمالات الشارع أم قيدها في مجموعةٍ خاصةٍ من الناس؟ أي خصّص اللفظ في دائرةٍ معينةٍ من الناس؟ وإذا كان قيدها بأشخاصٍ محدّدين، فهل ترك تحديد هويتهم لاجتهادات المجتهدين أم حدّدهم بنفسه؟ وإذا حدّدهم بنفسه فما هو الدليل على ذلك؟ وإذا ثبت أنّ الشارع حدّد هويتهم بنفسه، فهل يصحّ بعد ذلك الالتفات إلى اجتهادات المجتهدين وترك تلك النصوص؟

من هنا ننطلق في بيان من هم أهل البيت في ضمن النصوص الشرعية، وهل يتّفق المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي أو يفترقان؟

فمن هم أهل البيت؟

**الجواب:** أهل البيت كما في جملةٍ من النصوص هم أهل الكساء، والشواهد على هذا الأمر كثيرة، منها:

**الشاهد الأول:** آية التطهير:

فقد روى الحاكم عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أنه قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرجمة هابطةً قال: «ادعوا لي، ادعوا لي»، فقالت صفية: من يا رسول الله؟ قال: «أهل بيتي؛ علياً وفاطمة والحسن والحسين»، فجيء بهم، فألقى

عليهم النبي ﷺ كسامه، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهم هؤلاء آلي، فصل على محمدٍ وآل محمد»، وأنزل الله عزوجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

#### الشاهد الثاني: حديث الثقلين:

ما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ في حديثه المتواتر المشهور: «إِنِّي تاركٌ فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما أن تمسكتم بهما فلن تضلوا أبداً».

#### الشاهد الثالث: آية المباهلة:

في شأن نزول آية المباهلة، وهي الواقعه التي أذنَ الله تعالى فيها لنبيه الكريم ﷺ بباهله نصارى نجران، بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَنْوَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَتِسَاءَنَا وَتِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَادِيْنَ﴾. فأخذ النبي ﷺ الأكرم ﷺ ابنيه الحسن والحسين، وأخذ أحدهما فاطمة الزهراء عليها السلام لتمثل نساء المسلمين، وأخذ علياً ليكون نفسه الشريفة، وعندما جمعهم ليقابل بهم نصارى نجران وعرفهم للملأ بقوله: «اللهم هؤلاء أهل بيتي».

#### الشاهد الرابع: آية المؤدة:

حيث أخرج أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة، وابن أبي حاتم في تفسيره، والطبراني في معجمه الكبير، وغيرهم عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله، من قربتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمة وابنها». ١٤٢٩ - ربیع الثاني - السنة الرابعة - العدد ١٤

وقاله الرازى فى تفسيره وعلق عليه بقوله: فثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ، وإذا ثبت وجوب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم.

#### الخلاصة:

إنّ النبي ﷺ خصَّ مصطلح أهل البيت في الروايات الواردة في أصحاب الكساء، كما في حديث الكساء، وحديث الثقلين، وآية المباهلة، فإنّ المتمسّك بأهل البيت والقرآن هو الناجي من الضلال والهلاك، وغيرها من الروايات المتواترة في شأن نزول آية التطهير لأهل البيت علیهم السلام، كما سيأتي ذكره إن شاء الله، وسيأتي ما يؤيد هذا الخبر، بل قد وصل بسنته حد التواتر اللغطي والمعنوي كذلك.

#### المناقشة الثانية:

وهي في دخول زوجات النبي ﷺ في أهل البيت، فهل زوجات النبي ﷺ يدخلون أيضاً في سياق آية التطهير أو لا؟ فقد يدعي البعض بأنّ سياق الآيات التي نزلت فيها آية التطهير كانت تتحدث عن زوجات النبي، وأنّ آية التطهير تتوسط هذه الآيات، فدخول زوجات النبي في أهل البيت مما لا شك فيه.

**الجواب:** وما يدل على أن زوجاته لسن ممن يدخل في هذه الآية:  
**أولاً:** الروايات الواردة في شأن نزول آية التطهير صريحة في الحصر بهؤلاء - وهم الخمسة، وهي روايات بلغت حد التواتر في حصر أهل البيت بهؤلاء، وإدخال غيرهم يحتاج إلى دليل.

**ثانياً:** في الكثير من هذه الروايات لما قال رسول الله ﷺ: «اللهم هؤلاء أهل بيتي...» قالت أم سلمة: فأنا معهم يا نبي الله؟ قال: «أنت على مكانك وأنت على خير»<sup>(٣)</sup>.

وروى الحاكم النيسابوري أنّ أمّ سلمة قالت: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟  
قال: «إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ، وَهُؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، اللَّهُمَّ أَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ»<sup>(٤)</sup>.

وفي روايةٍ أخرى قالت أمّ سلمة: يا رسول الله، ألسنتُ من أهل البيت؟ قال: «إِنَّكِ  
إِلَى خَيْرٍ، إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ، إِنَّكِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ»<sup>(٥)</sup>.

أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها مع ما لها من الفضل والمنزلة عند النبيّ وال المسلمين إلا  
أنّ النبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلام قال لها: إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ، إِنَّكِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ، وعندما يُفصّل  
النبيّ بين أهل بيته وأزواجه، لا بدّ من وجود فرقٍ بينهما، وإلا استلزم من التفصيل  
اللغوية والعبقريّة، أو تحصيل ما هو حاصلٌ، وكلا الأمرين باطلٌ.

وروى مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم، عندما سُئلَ: مَنْ هُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟  
نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها  
فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرّموا الصدقة بعده<sup>(٦)</sup>.

#### لفت نظرٍ:

جاء في صحيح مسلم روایتان مرویتان عن زید بن ارقام، وفي هاتين الروایتين  
شيء من التهافت، نشير إليه إجمالاً:

**الرواية الأولى:** قال يزيد بن حيّان: انطلقتُ مع حصين بن سبرة وعمر بن مسلم  
إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال إليه حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً،  
رأيت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلام، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصلّيت خلفه، لقد لقيت يا  
زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلام.

قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سنّي، وقدم عهدي، ونسّيت بعض الذي كنتُ

أعِي من رسول الله ﷺ، فما حدّثكم فاقبوا، وما لا [أحدّ لكم] فلا تكفلونيه، ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً باءً يُدعى حمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ ذكر، ثم قال: أما بعد، ألا أيّها الناس، فإنّا أنا بشرٌ يُوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين، أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله وراغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي. فقال الحسين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكنّ أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل عليٍّ، وآل عقيلٍ، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كلّ هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

**الرواية الثانية:** قال يزيد بن حيان: دخلنا عليه فقلنا... وساق الحديث ما جاء عن الغدير، غير أنه قال: ألا وإنّي تاركٌ فيكم ثقلين، أحدهما كتاب الله عزّوجلّ، وهو حبل الله من اتّبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالٍ، فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يُطلقها... إلى تتمّة الحديث.

#### الملاحظة بين الروايتين:

نلاحظ في نصّ الرواية الثانية أنها مقطوعةٌ، فهو لم يذكر الثقل الثاني، مباشرةً انتقل ليبين من هم أهل بيته، وهل هم نساؤه أو لا؟  
نلاحظ في نصّ الرواية الأولى أنها مقطوعةٌ أيضاً من حيث عدم الأمر بالتمسّك

بالثقل الثاني، وإنّا أوصاهم خيراً بأهل البيت عليه السلام، ولم يقل لهم: تنسّعوا بهم.

اللماحة الثانية على الرواية الأولى أنها لا تستقيم من الناحية العربية، حيث لما سأله حسين زيداً: أليس نساءه من أهل بيته؟ انظر إلى الجواب: قال: نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، تجد أن هذه العبارة لا تستقيم مع اللغة العربية؛ فهو أولاً يريد أن يثبت أنهن من أهل البيت، وبعد ذلك يستدرك بأداة (لكن) أهل بيته من حرم الصدقة بعده، ومما لا خلاف فيه بين المسلمين بأنّ زوجات النبي صلوات الله وسلامه عليه لم تحرّم عليهم الصدقة، بل تحريم الصدقة على بني هاشم على اختلافٍ في المسألة.

فكيف يستقيم المعنى؟! مما يدلّ على وجود تناقضٍ في كلتا الروايتين اللتين ذكرهما مسلم، وللوهلة الأولى حكم النووي بتناقض هاتين الروايتين لو لا تأويلاه التي أتى بها من بعد ذلك، حيث أظهر أنه لا تناقض في المقام بذكر بعض الدعاوى التي تفتقر إلى دليلٍ ترکن إليه النفس، فهي مجرد أمورٍ ظنّية، ولكي نصحح كلتا الروايتين لا بد أن نضيف حرف نفيٍ في الرواية الأولى حتى تستقيم مع الرواية الثانية التي نفت كون نسائه من أهل البيت، فتكون العبارة الصحيحة: «نساءه لسن من أهل بيته، أهل بيته من حرم الصدقة بعده»، وهي التي توافق الكثير من النصوص الواردة في هذا المقام.

### عودٌ على بدء:

عن أبي سعيد الخدري قال: أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، فعدّهم في يده، فقال: خمسة؛ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين<sup>(٧)</sup>.

فمع وضوح هذه الروايات والنصوص الشرعية كيف نتمسّك بالسياق أو غيرها مما يتسبّب به الغريق؟!! فهذه السيدة أم سلمة عليها السلام تهم أن تدخل، لكن النبي الأكرم صلوات الله عليه يمنعها من الدخول مع ما لها من الفضل وال منزلة عند الله عز وجله، والنبي صلوات الله عليه وأهل البيت عليهم السلام. أمّا ما ورد عن سياق الآية، حيث كان السياق في صدد ذكر زوجات النبي صلوات الله عليه فيظهر بطلانه من وجوهه:

أولاً: السياق لا يدل على شمول الزوجات في أهل البيت عليهم السلام، فقد وردت كثير من مقاطع الآيات في سورة واحدة، ولكن كل مقطع يتحدث عن أمرٍ مغايرٍ للذى قبله.

ثانياً: وهو الأمر المهم أيضاً في نفي دلالة السياق - إن آية التطهير نزلت في وقت مختلف عن الآيتين - ما قبلها و ما بعدها، فإن ممّا أجمع عليه أهل النقل من المسلمين كافة أن آية التطهير قد نزلت لوحدها منفردة دون ما قبلها وبعدها، وهذا شيءٌ متفقٌ عليه، فمن هنا يبطل القول بأنّا نازلنا في خصوص النساء؛ لورود سبب نزولٍ صحيحٍ عند الجميع بأنّا نزلنا في أصحاب الكساء عليهم السلام.

ثالثاً: إن السياق للأية يدل على اختلاف موارد النزول، حيث إن الآيات ما قبل آية التطهير فيها تهديدٍ ووعيدٍ لمن يخالف النبي صلوات الله عليه، ثم تأتي آية التطهير - والتي تحتوي على مضامين راقية وعالية ومقامات معنوية لا ينالها أي شخص - ومن ثم تستأنف التهديد والتقرير، وهذا ممّا ينافي كون مجموع الآيات قد نزلت في الأشخاص أنفسهم.

رابعاً: حتى لو سلّمنا بأن آية التطهير متوسطة بين آيتين تتحدث عن زوجات النبي فنقول: يمكننا أن نكتفي بما ورد في السنة من خروج زوجات النبي صلوات الله عليه من

الكساء، كما ورد عن أم سلمة حَفَظَهُ اللَّهُ عَنْهَا، وأنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخرجها من الكساء ولم يُدخلها مع ما لها من فضلٍ ومنزلةٍ عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعند أهل البيت عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وال المسلمين جميعاً.

### موقف معارض:

ولا يُلْتَفَتُ إلى بعض الرواية الذين يقولون بأنّها نازلةٌ في خصوص زوجات النبي، وأنّهنَّ من أهل البيت بعد معرفة حال هؤلاء الرواية من أمثال عكرمة مولى عبد الله بن عباس ممن عُرِفَ بمنصبه وعدائه لأهل البيت، وكذبه المشتهـر بين علماء الرجال والحديث، وكذلك كذبه الصريح على مولاه ابن عباس، ومخالفة هذه المرويات المكذوبة للكثير من النصوص والأحاديث الصحيحة المعتمدة المتفق عليها بين المسلمين.

فعكرمة كان يصرُّ على أنَّ الآية نازلةٌ في خصوص أزواج النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أنه كان يishiـفي الأسواق ويعلن عن هذا الرأي، ويُخـطئ الناس باعتقادهم باختصاص الآية المباركة في أهل البيت عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مما يدلـل على أنَّ الرأي السائد عند المسلمين كان هذا الرأي، وهو أنَّ الآية نازلةٌ في خصوص أهل البيت دون النساء والأقارب، حتى أنه كان يقول: من شاء باهـلـته في أنَّ الآية نازلةٌ في أزواج النبي خاصةً، وفي تفسير الطبرـي: أنه كان ينادي في الأسواق بذلك، وفي تفسير ابن كثير أنه كان يقول: من شاء باهـلـته أنها نزلـت في نساء النبي خاصةً، وفي الدر المنشور كان يقول: ليس بالـذي تذهبون إليه، إنـما هو نساء النبي.

ومن شاء أن يتعرـف على شخصيـة عكرمة فليراجع ترجمة هذا الرجل وما قالـه علماء العـامة حولـه.

### المناقشة الثالثة:

لماذا تحصرون الآية عن زوجات النبي ﷺ وتدخلون بقية الأئمة علیهم السلام؟!  
مقدمة قبل الجواب: يجدر الالتفات إلى نقطة مهمة في المقام، وهي أنه لا يجب على الطائفة الإمامية الحقة أن تُجيز على كل التساؤلات في هذا المجال من خلال كتب أهل السنة والجماعة ومن نفس طرقيهم؛ لوجود الكثير من المعتقدات التي هي أمورٌ خاصةً واردةً من طرقنا نحن فقط، ولا يمكننا إثباتها من طرقيهم، وهذا لا يعتبر نصاً في معتقداتنا، مع ملاحظة أننا في كل مسألةٍ وعتقدٍ نلتزم فيها بدليلٍ من أقوال أو أفعال أهل البيت علیهم السلام، وقولهم القول الفصل والحكم عندنا، ولا ملازمة حينما لا ثبت لهم صحة المعتقد من طرقيهم على بطالة هذا الأمر.

وإلا انعكس الأمر إليهم، فإنّ أهل السنة والجماعة يُثبتون معتقداتهم من كتبٍ هم اعتمدوها، والطرف الآخر لا يعتقد بصحتها أصلاً، فنحن نطلب من أيّ شخصٍ أن يُثبت لنا صحة خلافة الخلفاء الثلاثة ومن كتبنا - حتى تمحّنا بها - حتى تتبعكم فيها، دون إثباتها خرط القتاد.

الجواب: لا شكّ ولا شبهة بأنّ زوجات النبي ﷺ خارجاتٌ وغير مشمولاتٍ للآية المباركة، وأمّا دخول بقية الأئمة من ولد الحسين علیهم السلام فدخولهم لنصوصٍ أخرى واردةٌ من جهتنا.

لإنعام الفائدة نذكر هذه الرواية التي تدلّ على مبتغانا في المقام، وهو ما ذكره الفقيه المحدث السيد هاشم التوبلاني البحراني قدس شانه في غاية المرام، حيث ينقل السيد حديث المناسبة لأمير المؤمنين علیه السلام في زمن الخليفة الثالث: «...أيّها الناس، أتعلمون أنّ الله أنزل في كتابه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِتَذَهَّبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُظَاهِرُكُمْ﴾

تَطْهِيرًا؟ فجمعني فاطمة وابني الحسن والحسين، ثم ألقى علينا كساءً وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامي، يؤلمني ما يؤلمهم، ويؤذيني ما يؤذيهما، ويجربني ما يجرحهم، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»، فقالت أم سلمة: وأنا يا رسول الله؟ فقال: أنت إلى خيرٍ إنما نزلت فيّ وفي ابنتي، وفي أخي علي بن أبي طالب، وفي ابني، وفي التسعة من ولد ابني الحسين خاصةً، ليس معنا فيها أحدٌ غيرنا، فقالوا لهم: نشهد أن أم سلمة حدثتنا بذلك، فسألنا رسول الله ﷺ فحدثنا كما حدثنا»<sup>(٨)</sup>.

إن هذه الآية - كما اتفقت عليه الإمامية وبعض من علماء العامة - نص صريح في تطهيرهم من الذنوب والمعاصي - أي العصمة. فمن هذا التصریح في العصمة نقطع بعدم دخول زوجات النبي ﷺ لخالفة بعضهن صراحة للنبي الأكرم ﷺ والقرآن الكريم، وأماماً لأئمة التسعة من ولد الحسين علیهم السلام. فهم محل اتفاق بين الإمامية على أنهم معصومون، فيدخلون في ضمن الآية المباركة؛ لأن مفادها هو العصمة لأئمة أهل البيت علیهم السلام.

### إشكال و رد:

وهناك أيضاً إشكال يعترض به المستشكل على تعميم آية التطهير لجميع أهل البيت علیهم السلام أنها نزلت في الخمسة، فكيف تعممون الآية لمن لم يكونوا موجودين في ذلك الزمان؟!

الجواب عن هذا الإشكال واضح، حيث إن الآية لا شك ولا شبهة أنها نزلت في الخمسة الذين هم تحت الكساء، ولكن لا يمنع من تطبيقها على مصاديق أخرى لم تكن داخلة معهم تحت الكساء ( زمنياً) إلا أن الآية تنطبق عليهم من ناحية كونهم

أبرز المصاديق لمفهوم أهل البيت عليهم السلام، وأمثلة هذا الأمر كثيرة في القرآن الكريم، فمثلاً: آية التبّين: ﴿إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيَّا فَتَبَيَّنُوا أَنَّ تُصِيبُوَا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتَصْبِحُوَا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، فإنّ شأن النزول كان لشخصٍ من الأشخاص في زمانٍ من الأزمان، فقد نزلت الآية في الوليد بن عقبة في زمن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، إلا أنّ من المسلم عند جميع العلماء والفقهاء أنّ مورد النزول لا يمنع من انطباقها على مصاديق أخرى على مر الزمان، ونفس الأمر بالنسبة إلى آية التطهير، فيما أنّ الأئمة الأطهار قد عصموا من الزلل والخطأ - كما ثبت في محله عقلياً ونقلياً. فيكونوا من أبرز مصاديق الآية المباركة.

#### المناقشة الرابعة:

ما حال حمزة وجعفر بن أبي طالب وغيرهم من بني هاشم؟! أليسوا جميعاً من أهل البيت؟! أليس هذا تضييع لأهل بيت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه؟! أليس هذا تساهل في حقّهم؟!

**الجواب:** إنّ الطائفة الشيعية المحقّة لا تنكر فضيلة آل بيت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وأقربائه من أمثال سيد الشهداء الحمزة بن عبد المطلب رض، والشهيد جعفر بن أبي طالب رض، وابن عباس رض، والعباس بن عبد المطلب رض، ولكن في مقام إدخالهم في أهل البيت نتمسّك بن أطلق عليهم النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه هذا المسمى فقط، والنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه لا ينطق عن الهوى، إنّما هو وحيٌ يوحى. والنصوص المتواترة والواردة والصریحة في أنّ أهل البيت هم خصوص النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وفاطمة رض والحسن رض والحسين رض واضحة، فمن أراد أن يزيد شيئاً من تلقائه نفسه لا مانع لدينا ولكن هات الدليل.

### توضيح مهمٌ:

إنَّ القرآن الكريم جاء ليوضح معلم الدين وأصول العقيدة والشريعة، وجميع المسلمين يتَّفقون بأنَّ القرآن الكريم لم يتعَرَّض إلى جميع تفاصيل الشريعة والعقيدة، بل ألمح لبعضها وترك البعض الآخر، وترُكُه لا يعني عدم أهميَّة هذا الأمر المتروك، بل أوكل أمره إلى النبيِّ الأكرم ﷺ حتَّى يُتمَّه، فجاءت السنة النبوية لتكمِّل ما لم يرد في القرآن الكريم، ولتفصيل الآيات وتشريحها وتفسيرها.

وأمَّا إنكار بعض الأمور مدعياً أنها لم ترد في القرآن الكريم ادعاءً باطلًّا فارغًّا، ينمي عن جهلٍ في معرفة الإسلام وحقيقة الشريعة الإسلامية، كمن يدَعُّى عدم وجوب نصِّ الإمام من بعد النبيِّ ﷺ لأنَّ القرآن الكريم لم ينطِّرق إلى هذا الأمر، وغيرها من المسائل المختلفة.

### تتميم للفائدة:

نقتبس بعض تلك الروايات التي نصَّتْ على أنَّ هذه الآية المباركة قد نزلتْ في خصوص هؤلاء الخمسة:

- فمن هذه الروايات ما رُوِيَ في صحيح مسلم<sup>(٩)</sup>، حيث قالت عائشة<sup>(١٠)</sup>: خرج النبي ﷺ وعليه مرتلٌ مرحلاً من شعر أسود، فجاء الحسن بن عليٍّ فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلتها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال:  
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.
- ما رواه الترمذى في صحيحه<sup>(١١)</sup> عن أم سلمة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ جلَّ على الحسن والحسين وعلىٰ وفاطمة كسرى ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصةً، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فقالت أم سلمة: وأنا يا رسول الله؟! قال: إِنَّكِ على

خیر.

قال الترمذى تعليقاً على الرواية: وهو أحسن شيء روينا في هذا الباب.

- ما نُقلَ في الصواعق المحرقة تحت عنوان: «الآيات الواردة في أهل البيت»، الآية الأولى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيذْهَبَ عَنْكُمُ الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قال: أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري أَنَّهَا نزلت في خمسة: النبي ﷺ، عليٌّ رضي الله عنه، فاطمة، والحسن، والحسين (١٢).

- ما نقله صاحب أسد الغابة (ابن الأثير) عن أم سلمة: أن النبي ﷺ جلّ عليّاً وفاطمة والحسين والحسين كساء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت أم سلمة: يا رسول الله أنا منهم؟! قال ﷺ: إنك على خير (١٣).

## **خلاصة المناقشات الخامسة:**

إنَّ الشيعة الإمامية يعتقدون بأنَّ المراد من أهل البيت هم أصحاب الكسائِ  
الخمسة، بإضافة التسعة المعصومين من ذرية الحسين عليه السلام، والدليل على هذا القول  
ما تقدَّم من توادر النصوص في خصوص هؤلاء الخمسة، والنصوص الخاصة في  
إضافة التسعة المعصومين عليهم السلام.

إلى هنا تم مناقشة الكاتب بشأن تحديد من هم أهل البيت، وسيأتي قريباً - إن شاء الله - الحلقة الثانية في مناقشة بقية المطالب الواردة في الكتاب، نسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لراضيه وينجّبنا معاصيه، بحقّ محمدٍ وأهل بيته الطيبين الظاهرين، ونسأله أن يعجل في فرج مولانا صاحب العصر والزمان، وأن يفرج عنّا وعن

جميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها، وأن ينصر الإسلام والمسلمين ويخلد الكفار والظالمين، وبيؤيد حماة الدين، إنه على كل شيء قادر.

### المواهش:

- (١) لسان العرب، مادة (أهل).
- (٢) المستدرك على الصحيحين، ٣ / ١٤.
- ملاحظة: ولمن أراد أن يراجع بعض المصادر التي تدل على أن الآية تحصر أهل البيت عليهما السلام بهؤلاء الخمسة، فالصادر هي: ( صحيح مسلم ٧ / ١٣٠ ، السنن الكبرى ٢ / ١٤٩ ، جامع البيان ٢٢ / ٥ ، تفسير ابن كثير ٣ / ٤٨٥ ، جامع الأصول ١٠ / ١٠١ ، صحيح الترمذى ١٢ / ٨٥ ).
- (٣) تاريخ ابن عساكر ٥ / ١ / ب ، الدر المنشور ٥ / ١٩٨ ، مستند أحمد ٦ / ٢٩٢ و ٣٢٣ .
- (٤) في المستدرك ٢ / ٤٦ .
- (٥) الدر المنشور ٥ / ١٩٨ ، مشكل الآثار ١ / ٢٣٣ ، تسير الوصول ٣ / ٢٩٧ ، جامع الأصول ١٠ / ١٠٠ .
- (٦) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ١٥ ص ١٧٩-١٨٢ . (باب فضائل علي بن أبي طالب عليهما السلام)، طبعة دار إحياء التراث العربي.
- (٧) مجمع الزوائد ٩ / ١٦٥ / باب فضائل أهل البيت عليهما السلام .
- (٨) غاية المرام، ج ١، ص ٢٨٤-٢٨٥ .
- (٩) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ١٥ ص ١٩٤ / باب فضائل الحسن والحسين عليهما السلام/طبعة دار إحياء التراث العربي.
- (١٠) ذكرت هذه الرواية المرويّة عن طريق عائشة إلزاماً للمخالف الذي يعتقد بصحة صحيح مسلم، وإلا فإن الآية لما نزلت كان النبي الأكرم عليهما السلام في بيته أم المؤمنين أم سلمة عليهما السلام، ولا نقبل بهذه الرواية إلا من باب الإلزام وحسب.
- (١١) صحيح الترمذى، ج ٢، ص ٣١٩ .
- (١٢) الصواعق المحرقة، ص ١٤٣-١٤٤ .
- (١٣) أسد الغابة لابن الأثير، ج ٣، في ترجمة علي بن أبي طالب عليهما السلام .

# إعجاز نغمات آيات القرآن

سعيد جعفر حماد

كثير الإعجاز القرآني - مع ملاحظة المعاني التي يرمي إليها القرآن الكريم ولو إجمالاً هو حجةٌ خالدةٌ لكلٍّ من لبس شيئاً من ذوق أدب اللغة العربية فضلاً عن عرف محيط رسول الله ﷺ وما اكتنفته ظروفه عند نزول الآيات الكريمة، وعرف الناس في صدر الإسلام إعجاز القرآن بوجданهم من خلال تحديه المشركين بأن يأتوا بسورةٍ من مثل سوره، ومن عدم مقدرة المشركين والخلق على ذلك، وقد وصف أئمة الهدى عليهما السلام إعجاز القرآن الكريم بصفاته العجيبة<sup>(١)</sup> وإن لم يذكروا لفظة العجزة أو الإعجاز، وما أقرب بيان العنوان إلى الوجدان والفطرة من بيان نفس العنوان.

وقد بدأ البحث في الإعجاز البصري للقرآن تحت عنوان: «الإعجاز في نظم القرآن» في القرن الثالث للهجرة، فنطّر إليه المحافظ المعتزلي<sup>(٢)</sup> (٢٥٥هـ) في كتابه: «نظم القرآن»، وعلي بن ربن الطبرى<sup>(٣)</sup> في كتاب: «الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ».

وتواترت البحوث في الإعجاز في القرن الرابع، فتحدث في الإعجاز أبو الحسن الأشعري، وبندار الفارسي، وأبو جعفر بن جرير الطبرى، والحسن بن محمد القمي، وأبو هلال العسكري، وفي هذا القرن ألف محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي أول كتاب في الإعجاز تحت عنوان: «الإعجاز»، وأشهر من تكلم في الإعجاز في هذا القرن علي بن عيسى الرماني المعتزلي<sup>(٤)</sup> (٣٨٦هـ)، وحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي

(٣٨٨هـ).

ولا ينحصر الإعجاز القرآني في البيان، بل يشمل الإعجاز العلمي، الإخبار بالغيب... إلخ، وفي دراسات متأخرة تُطْرَقَ إلى الإعجاز في نغمة القرآن الكريم - وقد يعبر عنه بالإعجاز التأثري - ، وهو متفرّغٌ عن الإعجاز البصري، ويعرف بأنه الإعجاز من جانب اتساق نظم القرآن وتناسب إيقاعاته الألحانية الساطية على الإحساس، والتي تأخذ بمجامع القلوب.

وفي مطالعة اقتطفت بعض الأساتذة في وصف هذا الإعجاز، فقيل في وصفه بأن القرآن في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام، يمتاز بأسلوب إيقاعي غنيًّا مملوء نغماً، حتى يكون من الخطأ الشديد في هذا الباب أن نفضل فيه بين سورة وأخرى، أو نوازن بين مقطع وقطع، لكننا حين نومي إلى تفرد سورة منه بنسق خاصٍ إنما نقرّ ظاهرةً أسلوبيةً بارزةً يؤيدّها الدليل، وتدعّمها الشواهد، ويتأكد أن القرآن نسيجٌ واحدٌ في بلاغته وسحر بيانيه، إلا أنه متنوعٌ تنوعًا أحانيَّ الوجود - إن صحة التعبير - في أغامه.

وقد قالوا: بأن مرد هذا الإعجاز في القرآن بالدرجة الأولى هو ما يستثيره في القلب من إحساسٍ غامضٍ مجرّد أن تصطف الحروف في السمع بهذا النمط الفريد، وذلك العزف بلا آلات وبلا قوافٍ وبلا بحورٍ وبلا أوزانٍ، فحينما نصغي إلى ما يقوله زكريا عليه السلام لربه حيث يقول: ﴿قَالَ رَبِّي إِنِّي وَهَنَّ الْعَظَمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَّ رَبِّ شَقِيًّا﴾<sup>(١)</sup>، وكذا إذا نسمع كلام عيسى عليه السلام في المهد صبياً: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>، أو نسمع

النغمات التي في الآية التي تحكي خشوع الرسل: ﴿إِذَا تُتَكَّلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سَجَدًا وَبَكَيَا﴾<sup>(٤)</sup>، أو نستمع النغمات التي تقضى القلب: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيْوِمِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾<sup>(٥)</sup>، أو ذلك الإيقاع الرحمني الذي يخاطب الله به نبيه محمدًا ﷺ بموسيقى عذبة تملك شغاف القلب: ﴿طَهِ \* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِشُفْقَى \* إِلَّا تَذَكَّرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى \* تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتَ الْعَلَا \* الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى \* لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ \* وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَّ وَأَخْفَى \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾<sup>(٦)</sup>.

نرى بأنّ هذا التشكيل والسبك والتلوين في المحروف والعبارات في معمار القرآن هو نسيجٌ ليس له نظيرٌ في سبكه، وكلّ عبارات جمله بيّنةٌ بيسيرٍ وسهولةٍ للغاية، ليس فيه أثر اعتمالٍ وافتعالٍ واعتسافٍ، وإنّا تسيل الكلمات في بساطةٍ شديدةٍ لتدخل القلب فتشير ذلك الإحساس الغامض بالخشوع، من قبل أن يتيقّظ العقل فيحلّل ويفكّر ويتأمّل، مجرد قرع الكلمة الأذن وملامستها للقلب يثير ذلك الشيء الذي لا نجد له تفسيراً، ولربما لم يخطئ السيد قطب حينما ردّ سحر القرآن البصاني إلى نسقه الذي يجمع بين مزايا النثر والشعر ولو على مستوى الظواهر، قال:

«فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة، والتفعيلات التامة، فنان بذلك حرّية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية، والفوائل المتقاربة في الوزن التي تغنى عن التفعيل، والتفقيبة التي تغنى عن القوافي، وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا، فشأن النثر والنظم جميّعاً»<sup>(٧)</sup>.

وإنّ هذه الألحان الداخلية لتبث في القرآن حتّى من اللفظة المفردة في آيةٍ من آياته، فتكاد تستقل بجرسها ونغمها بتصوير لوحةٍ كاملةٍ فيها اللون زاهٍ، وفيها الظلُّ شفافٌ أو كثيفٌ.

وحين تسمع همس السين المكررة يكاد يستشفّ نعومة ظلها مثلما تستريح إلى لطافة وقعها في قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْحَنْسِ \* الْجَوَارِ الْكَنْسِ \* وَاللَّيلِ إِذَا عَسْعَسَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾<sup>(٨)</sup>.

يبينما تقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقةً بالياء المشبّعة المديدة في لفظة ﴿تَحِيدُ﴾ بدلاً من (تنحرف) أو (تبعد) في قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾<sup>(٩)</sup>.

وتقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْنِحَ عَنِ التَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾<sup>(١٠)</sup>.

تصوّر مشهد الإبعاد والتنحية بكلّ ما يقع في هذا المشهد من أصواتٍ، وما يصاحبه من ذعرٍ، الذي ييرّ بحسيس النار ويسمعه ويقاد يصلاه!

ويأخذك من الغيط مثل ما يأخذ جهّتم حين تسمع لفظ ﴿تَمَيَّز﴾ في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيَظِ﴾<sup>(١١)</sup>، ويستولي عليك القلق وأنت تكرّر هاء السكت في أكثر فواصل سورة الحاقة، فتخشى وأنت تتلو قوله تعالى: ﴿مَا أَعْنَى عَنِي مَالِيَهُ \* هَلَكَ عَنِي سُلْطَانِي﴾<sup>(١٢)</sup> أن تكون مصداقاً لها، فيرافقك مع تلاوتها القلق.

وتحسّن عنف لفظة «الكبكة» في قوله: ﴿فَكُنْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> حتى لتكاد تتصرّر أولئك الجرميين يُكبّون على وجوههم أو على مناخرهم، ولا يقيم أحدٌ لهم وزناً!

ومن الإعجاز النغمي في القرآن النغم الصاعد فيه خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورةً، وينشئ في كل لحنٍ مرتعاً للخيال فسيحاً، فنتصور مثلاً - ونحن نردد دعاء زكرياً عليه السلام - وهو شيخٌ جليلٌ مهيبٌ - على كل لفظة ينطق بها مسحةٌ من رهبةٍ وشعاعاً من نورٍ، ونتمثل هذا النبي عليه السلام وهو شيخٌ جليلٌ على وقاره متاجج العاطفة، متهدج الصوت، طويل النفس، ما تبرح أصواته كلماته تتجاوب في أعماق القلوب الصافية بشدة التأثير، بل إنّ زكرياً عليه السلام في دعائه لربنا يحرّك حتى القلوب المتحجرة بتعيره الصادق عن حزنه خوفاً من انقطاع عقبه وهو قائمٌ يصلّي في المحراب لا يقطع ينادي اسم «ربه» نداءً خفيّاً، ويكرّر اسم «ربه» بكرةً وعشياً، ويقول في لوعة الإنسان المحرم، وفي إيمان الصادق الصفي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظُمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَّ رَبِّ شَقِيقاً، وَإِنِّي خَفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾<sup>(١٤)</sup>، وإنّ البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آيةٍ بيائها المشدّدة وتنوينها المحوّل عند الوقف ألفاً ليّنةً كأنّها في الشعر ألف الإطلاق، فهذه الألف اللينة الرخية المناسبة تنسقت بها - شقيّاً، ولّياً، رضيّاً - مع عبد الله زكرياً، ينادي ربّه نداءً خفيّاً...

وفي بعض مواقف الدعاء القرآنية الأخرى صخبٌ رهيبٌ، فها هو ذا نوح عليه السلام يبدأ ليلاً نهاراً على دعوة قومه إلى الحق، ويصرّ على نصحهم سراً وعلانيةً، وهم يلجمون في كفرهم وعنادهم، ويفرّون من الهدى فراراً، ولا يزدادون إلا ضلالاً واستكباراً، مما على نوح - وقد يأس منهم - إلا أن يتلئ فوه بكلمات الدعاء الشائرة عليهم، بالحانها الرهيبة، وإيقاعها العنيف، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا تَذَرْ عَلَى

الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا \* إِنَّكَ إِنْ تَذَرُّهُمْ يُضْلُّوا عَبَادَكَ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاجِراً  
كَفَارًا \* رَبُّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا  
تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا <sup>(١٥)</sup>.

فهذا شأن الإيقاع في القرآن وليس الفاصلة فيه كقافية الشعر تُقاس بالتفعيلات والأوزان، وتضبط بالحركات والسكنات، ولا الألفاظ فيه تحشّد حشدًا، وتلتصق إلصافًا، بل الفاصلة طلقة من كل قيد، والنظم بنجوة من كل صنعة، والألفاظ بمعزل عن كل تعقيد، والأسلوب يؤدي غرضه كاملاً غير منقوص، فيتناغم مع الموقف بحسبها، يلين أو يشتد، ويهدأ أو يهيج، ينساب انسياجاً كالماء إذ يسقي الغراس، أو يعصف عصفاً كأنه صرصر عاتية تهبر الأنفاس.

وربما استمع الإنسان إلى قصيدة، وهي تتشابه أهواها وتنتساق أنغامها، ولكن لا يلبث أن يلّها، ولا سيما إذا أعيدت عليه وكررت بتوقعٍ واحدٍ، بينما يرى في القرآن أنه على لحنٍ متنوعٍ ونغمٍ متعددٍ، ينتقل فيه بين أسبابٍ وأوتادٍ وفواصل على أوضاعٍ مختلفةٍ، يأخذ منها كلٌّ وترٌ من أوتار القلب نصيبه بسواءٍ، تناغمت حالته بما يناسبها من أوضاعٍ، نظم تقتضيه معانٍ الهادبة، فلا يتعرّض للمؤمن - على كثرة ترداده - ملالةً أو سأمً، بل لا يفتأ يطلب منه المزيد، وقد حاولت العرب أن تتحذّذ ما يقرب منه في التنظيم الصوتي في أشعارها، لكنّها كانت تذهب مذهب الإسراف والاستواء الممل في الأغلب، ولا سيّما عند التكرار.

وأما في نشار العرب - سواء المرسل منه أو المسجوع - فلم تكن عهدهـة قطّ ولم يكن يتمنّى لها ذلك على ذلك النحو من السهولة والمرونـة والعذوبة التي في القرآن الكريم، بل ربما كان يقع لها في أجود منثورـها عيوبٌ تغضّ من سلاسة تركيبـه، بما لا

يُكَنُّ مَعَهَا مِنْ إِجَادَةِ تِرْتِيلِهِ، إِلَّا بِتَكَلْفٍ يَبْدُو عَلَيْهِ أَثْرُ التَّكَلْفِ وَالْتَّعْسُفِ الَّذِي مِنْ شَأْنِ الْكَلَامِ الْإِكْتِنَافِ بِهِ.

قال الأستاذ دراز: «ويجد الإنسان لذةً، بل وتعترى به نشوءً إذا ما طرق سمعه جواهر حروف القرآن، خارجةً من خارجها الشحيحة، من نظم تلك المروفة ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها، هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالثٌ يهمس، ورابعٌ يهرب، وأخر ينزلق عليه النفس، وأخر يحتبس عنده النفس، فترى الجمال النغميًّا ماثلاً بين يديك في مجموعة مختلفة، ولكنها ممتدة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاؤة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تناقر، وهكذا ترى كلاماً ليس بالبدوي الجافي، ولا بالحضري الفاتر، بل هو ممزوج مؤلفٌ من جزالة ذاك ورقة هذا، مزيجاً كائناً عصارة اللغتين وسلامة اللهجتين.

نعم، من هذا الثوب القشيب يتَّأَلِّفُ جمال القرآن اللفظي، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف، تتضمن لآلئ نفيسة، وتحتضن جواهر ثمينة، فإن لم يلهك جمال الغطاء عمّا تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الستار عما وراءه من السر المصور، ففلقت القشرة عن لبها، وكشفت الصدفة عن درّها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى تلك الفخامة المعنوية، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهى، ولقيت منه ما هو أبدع وأروع، لك روح القرآن، وجذوة موسى التي جذبته إلى نار الشجرة في شاطئ الوادي الأئمِّي في البقعة المباركة، فهناك نسمة الروح القدسية: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وذكر السيد قطب عن الإيقاع الموسيقي في القرآن أنه من إشعاع نظمه الخاص، وتتابع لانسجام الحروف في الكلمة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة، وبذلك

قد جمع القرآن بين مزايا النثر وخصائص الشعر معاً، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الموسيقي الداخليّة، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغنى عن التفعيل، والتقويمية التي تغنى عن القوافي، فشأنه شأن النثر والنظم جميعاً.

وحينما تلا الإنسان القرآن أحس بذلك الإيقاع الداخلي في نفسه، يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة، يتوازي قليلاً أو كثيراً في السور الطوال، لكنه على كل حال ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني.

وقال الرافعي: «كان العرب يتسلّجون الكلام ويترافقون الشعر، وكان أسلوب الكلام عندهم واحداً، حرّاً في المنطق، وجلاً في الخطاب، في فصاحة كانت تؤاتيهم الفطرة، وتقدّهم الطبيعة، فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً نغمية رائعة، كأنها لإتلافها وتناسقها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهن هذا المعنى، وكان أبين لعجزهم، وكل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية يرون أن ليس في الفن العربي بجملته شيء يعدل هذا التناسب الطبيعي في ألفاظ القرآن وأصوات حروفه، وما أحد يستطيع أن يستطع في ذلك حرفاً واحداً، والقرآن يعلو على الموسيقى، إنه مع هذه الخاصّة العجيبة ليس من الموسيقى».

إنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي في الأنغام الموسيقية، بسبب تنوع الصوت مدةً وغنّةً وليناً وشدّةً، وما يتهيأ له من حركات مختلفة، وبقدر ما يكسبه من الحدّة والارتفاع والاهتزاز ما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى، فلو اعتربنا

ذلك في تلاوة القرآن، لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلّها، في هزّ الشعور واستشارة الوجد النفسيّ، وبذلك يقول ما ورد من الحثّ على تحسين الصوت عند قراءة القرآن.

وما هذه الفوائل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صوراً تامةً الأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقةً مع آياتها في قرارات الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت، والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه من العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهذا الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو المدّ، وهو كذلك طبيعيٌ في القرآن<sup>(١٧)</sup>.

والتعبير بالموسيقى المراد منه نظم النغمات الألحانية المختلفة، ولكن حيث إن الاستعمال العرفيًّا للكلمة غالباً ما يكون في الملهيات، كان من غير المناسب التعبير عن نغمات القرآن بها.

وقال بعض أهل الفن: كثُر في القرآن ختم الفوائل بحروف المدّ واللين والإلحاد والنون، وحكمة وجودها التمكّن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه: إنهم - أي العرب - إذا ترثّفوا يلتحقون بالألف والياء والنون؛ لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترثّفوا، وجاء في القرآن على أسهل موقفٍ وأعذب مقطعٍ، فإن لم تنتهِ بوحدةٍ من هذه - كان انتهت بسكون حرفٍ - كان ذلك متابعةً لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبةً للون المنطق بما هو أشبه وأليق بوضعه، وأكثر ما يكون في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرفٍ قويٍّ يستتبع القلقة أو الصفير أو نحوهما مما هو موصوفٍ بضروربٍ أخرى من النظم الموسيقيّ.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتيّ في اللغة، وأثرها طبيعيٌ في كلّ نفسٍ، فهي

تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كلّ نفسٍ، سواء كانت تفهمه أو لا تفهمه، فقد تألفتُ كلماته من حروف، ولو سقط واحدٌ منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرفٌ آخر لكان ذلك خللاً بيّناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وفي جرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى البعض، ولرأيت لذلك هجنةً في السمع، ولم يكن يستطيع الوليد بن المغيرة أن يبرز ذهوله من بيان القرآن الكريم ونظمه على الرغم من كفره، وقد مات على كفره، قال بعد أن سمع القرآن:

«والله إنّ لقوله حلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً، وإنّ أعلاه لمشرٌ، وإنّ أسفله لمدقٌ، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه».

### تناسب نغمة حروفه مع صدى معانيه:

من عجيب نظمه وبديع أسلوبه تناسب أجراس حروف كلماته المختارة، مع وقوع معانيه في النفوس، وكأنّا اللفظ والمعنى يتواكبان ويتساقان في السطو على الأسماع ومشاعر القلوب معاً، ذاك على السمع وهذا على الفؤاد في التئامِ وتوئامِ، فإنّ كان تكريياً فلفظُ أنيقٌ، أو تشريفاً فتعبيرٌ رحيقٌ، وإنّ كان تهديداً فكلمةً غليظةً، أو تهويلاً فلفظةً شديدةً، وهكذا تتجسد معاني القرآن في قوله الفاظه وتتببور في أجراس حروفه، فهو عندما يهدّد أو ينذّر أو يخبر عن وقوع عذابٍ أليمٍ - فيما سلف بأقوامٍ ظالمين - تراه يصكُّ الآذان بألفاظٍ ذات أصواتٍ نحاسيةٍ مزعجةٍ، قد تحولت الكلم إلى جلاميد صخرٍ أو قوامع من حديدٍ، وكأنّها رجمٌ وصواعق ورعدٌ.

عندما تقرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُفْضَى عَلَيْهِمْ قَيْمَوْتُوا وَلَا يُخْفَفُ﴾

عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كُفُورٍ \* وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا عَيْرَ الَّذِي كَنَّا نَعْمَلُ ﴿١﴾، فإنَّه يخيِّلُ إِلَيْكَ جَرْسُ الْلَّفْظَةِ غَلِيظُ الصَّرَاطِ، المُخْتَلِطُ التَّجَاوِبُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، الْمُبَعْثُ مِنْ حَنَاجِرِ مَكْتَظَةٍ بِالْأَصْوَاتِ الْخَشِنةِ، كَمَا تَلْقَى إِلَيْكَ ظُلُّ الْإِهْمَالِ هَذَا الْأَصْطَرَاطُ الَّذِي لَا يَجِدُ مِنْ يَهْتَمُّ بِشَأنِهِ أَوْ يَلْبِيَهُ، وَتَلْمِحُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلَّهُ صُورَةُ ذَلِكَ الْعَذَابِ الْغَلِيظِ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَصْطَرِخُونَ.

وَحِينَ يَسْتَقْلُ لَفْظٌ وَاحِدٌ بِهَذِهِ الصُّورِ كُلَّهَا، وَيَدِلُّ الْلَّفْظُ عَلَيْهِ قَبْلَ دَلَالَةِ الْمَعْنَى، يَكُونُ ذَلِكَ فَتًّا مِنَ التَّنَاسُقِ الْبَدِيعِ، وَعِنْدَمَا تَسْتَمِعُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثًا قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

وَكَأَنَّكَ تَحْسُّ بِسَمْعِكَ صَوْتَ هَذِهِ الرِّيحِ الْعَاتِيَةِ، وَهَا صَرِيرٌ وَصَرَاطٌ وَقَعْقَعَةٌ وَهِيَاجٌ، تَنْسَفُ وَتَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ، فَتَصُورُ وَقْعَ عَذَابٍ شَدِيدٍ أَلَمَّ بِقَوْمٍ ظَالِمِينَ.

وَتَقْرَأُ: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطَئَنَّ﴾، فَتَرْتَسِمُ صُورَةُ التَّبْطَةِ فِي جَرْسِ الْعَبَارَةِ كُلَّهَا، وَفِي جَرْسِ «الْلَّبَطَنَ» خَاصَّةً، وَإِنَّ اللِّسَانَ لِيَكَادَ يَتَعَرَّ، وَهُوَ يَتَخَبَّطُ فِيهَا حَتَّى يَصُلُّ بِيَطَءٍ إِلَى نَهَايَتِهَا.

وَتَتَلَوُ حَكَايَةُ هُودٍ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَبْيَنَةٍ مِنْ رَبِّيِّ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عَنْدِهِ فَعَمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلَزِمَكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، فَتَحْسُّ أَنَّ كَلْمَةَ ﴿أَنْلَزِمَكُمُوهَا﴾ تَصُورُ جُوَّ الْإِكْرَاهِ، بِإِدْمَاجِ كُلِّ هَذِهِ الْضَّمَائِرِ فِي النُّطْقِ، وَكَذَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، كَمَا يَدْمِجُ الْكَارِهُونَ مَعَ مَا يَكْرِهُونَ، وَيَشَدُّونَ إِلَيْهِ وَهُمْ مِنْهُ نَافِرُونَ، قَالَ السَّيِّدُ قَطْبُ: «وَهَكَذَا يَبْدُو لَوْنُ مِنَ التَّنَاسُقِ - تَنَاسُقُ جَرْسِ الْلَّفْظِ مَعَ نَوْعِيَّةِ الْمَعْنَى - أَعُلَى مِنْ

البلاغة الظاهرية، وأرفع من الفصاحة اللغظية، اللتين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن.

وهكذا عندما تُتلى عليك جملةً من آيات العذاب وتجعلها متجلسةً إليك وكأنها بين يديك.

### اتّضاح النغمة بالفصاحة والصوت الحسن:

وبعد أن اتّضح معنى النغمة القرآنية، وصياغته المنتظمة على أنغم صوتيةٍ، وألحانٍ شعريةٍ جذابةٍ، فلا بدّ من الإشارة إلى أنّ بروز ذلك بشكلٍ واضحٍ يكون مع قراءة القرآن بصوتٍ حسنٍ وحزينٍ، ويتماشى مع المقاصد القرآنية، حيث دلت الروايات الحاثة على ذلك في قراءة القرآن وترتيبه الكريم:

- رُوِيَ عن الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِالْحُزْنِ، فَاقْرُئُوهُ بِالْحُزْنِ»<sup>(١٨)</sup>.

- ورُوِيَ عن الرسول ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِالْحُزْنِ، فَإِذَا قَرَأْتُهُ فَابكُوا، فَإِنْ لَمْ تبكُوا فَتباكُوا»<sup>(١٩)</sup>.

- وقد كان دأب الأئمة من أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على ترتيل القرآن بالحزن وبحسن الصوت الجاذب للقلوب، روى محمد بن علي بن محبوب الأشعري في كتابه بالإسناد إلى معاوية بن عمّار، قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: الرجل لا يرى أنه صنع شيئاً في الدعاء وفي القراءة حتى يرفع صوته؟ فقال: لا بأس، كان علي بن الحسين عَلَيْهِ أَحْسَنُ النَّاسِ صوتاً بالقرآن، فكان يرفع صوته حتى يسمعه أهل الدار، وإنّ أبا جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ

كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان إذا قام من الليل وقرأ رفع به صوته، فيمرّ به مارّ الطريق من السقائين وغيرهم، فيقومون فيستمعون إلى قراءته»<sup>(٢٠)</sup>.

- ورويَ أنَّ موسى بن جعفر عليهما السلام كان حسن الصوت، حسن القراءة، وقال يوماً من الأيام: إنَّ عليَّ بن الحسين عليهما السلام كان يقرأ شيئاً لما احتمله الناس، قيل له: ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي بالناس ويرفع صوته بالقرآن؟ فقال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحمل من خلفه ما يطيقون»<sup>(٢١)</sup>.

- روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين عليهما السلام أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان السقاوة يرثون فيقفون ببابه يسمعون قراءته، وكان أبو جعفر عليهما السلام أحسن الناس صوتاً»<sup>(٢٢)</sup>.

- رُويَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن»<sup>(٢٣)</sup>.

- ورويَ عن أبي جعفر الباقر عليهما السلام أنه قال: «ورجع بالقرآن صوتك، فإنَّ الله عزوجل يحب الصوت الحسن يرجع فيه ترجيعاً»<sup>(٢٤)</sup>.

- وعنده عليهما السلام قال: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإنَّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»<sup>(٢٥)</sup>.

- وعنده عليهما السلام قال: «زينوا القرآن بأصواتكم»<sup>(٢٦)</sup>.

- ورويَ عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليهما السلام في قوله تعالى: «ورَتَّلَ القرآنَ تَرْتِيلًا» قال: «هو أن تتمكّن فيه وتحسّن به صوتك»<sup>(٢٧)</sup>.

- وعن علقة بن قيس قال: كنت حسن الصوت بالقرآن، فكان عبد الله بن مسعود يرسل إلى فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا فداك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنْ حسن الصوت زينةٌ للقرآن»<sup>(٢٨)</sup>.

### ذم التغنى بالقرآن الكريم:

الكلام في إعجاز نغمة القرآن بلحاظ ما يلفت من صدى الصوت عند قراءة نفس الآيات القرآنية الناشئة من سبك خاص ل كلماتها مع غض النظر عن نوع طريقة قراءة القرآن، نعم، تكون النغمة بارزة إذا كانت القراءة فصيحة، وتتضح مع الصوت الحسن، وتمتاشي أكثر مع المقاصد القرآنية إذا كانت على نحو حزين، وأما الطريقة اللهوية فقد نهى عنها الشارع الأقدس؛ فروي عن النبي ﷺ: «اقرءوا القرآن بالحان العرب وأصواتها، وإياكم ولمن أهل الفسوق والكبائر، فإنه سيجيء من بعدي أقواماً يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية، لا يجوز تراقيهم، قلوبهم مقلوبة، وقلوب من يعجبه شأنهم»<sup>(٢٩)</sup>.

والفقهاء قد حرموا تلحين الغناء المنسجم مع أهل الفسق والطرب اللهوبي، أما نغمة القرآن في نفسها فليس لها ربط بتلحين القرآن الكريم بتكلف على نحو الغناء الذي ينسجم مع أهل اللهو كما قد يتوهّم به بعض، بل جله كذلك، مذموم للغاية كما أشارت إليه الرواية.

وأما ما روي عنه ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»<sup>(٣٠)</sup>، فهو على ما فيه من ضعف السندي كما أشار إليه صاحب المذايق<sup>(٣١)</sup> فليس المراد منه التغنى على طريقة أهل اللهو - وحاشى رسول الله ﷺ أن يقول ذلك - ، فقد ذكر العلماء

ثلاثة معانٍ للمراد من التغني بالقرآن الكريم في هذا الحديث:

**المعنى الأول:** الاستغناء بالقرآن، قال الشيخ الصدوق قدس الله رحمه وبراهيمه: معنى التغني بالقرآن هو الاستغناء به لما رُويَ أنَّ قراءة القرآن غنىًّا لا فقر بعده<sup>(٣٢)</sup>.

وقال الشريف الرضي: وإنما أراد - عليه الصلاة والسلام - ليس منا من لم يستغنِ بالقرآن عما سواه، وتغنى ها هنا بمعنى استغنى، وهو تفعّل من الاستغناء لا من الغناء<sup>(٣٣)</sup>.

واستشهد بقول العجاج:

أرى الغواني قد غنّين عنّي      وقلن لي عليك بالتجنّي

أي: استغنين عنّي وقلن لي: استغنْ عنّا كما استغنينا عنك، وهذا عند موت الشباب، وانقضاء الآراء<sup>(٣٤)</sup>.

**المعنى الثاني:** تحسين الصوت وتحزينه، ذكره الشيخ الطبرسي في تفسيره وغيره<sup>(٣٥)</sup>.

**المعنى الثالث:** ما يراه الفيض الكاشاني، وهو التغني بالقرآن والترجيع به، ولا ينافي هذا النهي عن الغناء؛ لأنَّ الغناء المنهي عنه ما كان على لحن أهل السوق والكبائر، وعلى ما كان معهوداً في زمن الأئمة عليهم السلام في فساق الناس وسلطان بنى أمية وبني العباس من تغنى القيّنات بين الرجال، وتتكلّمُن بالباطل، ولعبهن بالملاهي من العيدان والقضيب ونحوها<sup>(٣٦)</sup>.

وكيف كان، فليس المراد من التغني بالقرآن في الحديث تلحين القرآن بألحان

الغناء أو الترجمة به على نحو اللهو؛ ولذا لا يقبل مثل ظاهر ما حكاه ابن الأثير عن ابن الأعرابي <sup>أنه قال</sup>:

كانت العرب تتغنى بالركباني إذا ركبت، وإذا جلست في الأفنية، وعلى أكثر أحواهم، فلما نزل القرآن أحب النبي ﷺ أن تكون هجيراهم بالقرآن مكان التغنى بالركباني <sup>(٣٧)</sup>.

أو ما قاله جار الله الرمخشري:

كانت هجيري العرب التغنى بالركباني – وهو نشيد بالمد والتمطيط – إذا ركبوا الإبل، وإذا انبطحوا على الأرض، وإذا قعدوا في أفنائهم، وفي عامة أحواهم، فأحبّ الرسول أن تكون قراءة القرآن هجيراهم، فقال ذلك، يعني: ليس منا من لم يضع القرآن موضع الركباني في اللهج به والطرب عليه <sup>(٣٨)</sup>.

إلا أن يكون المعنى بأن النبي ﷺ أمرهم بالرجوع إلى القرآن وقراءته – لا على نحو كيفية اللهو والطرب المنسجم مع أهل الفسوق – بدلاً من التلهي والتغنى بالركباني، وفي حديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء كإذنه لبني يتغنى بالقرآن» <sup>(٣٩)</sup> فقلوا في تفسيره بأن المراد من أذن هو استمع، ويتجلى النبي في القراءة أي يواكب على قراءته والرجوع إليه، قال الشريف الرضي في تفسير الحديث: المراد: ما استمع الله لشيء كاستماعه لبني يداوم تلاوة القرآن، فيجعله دأبه ودينه، وهجيراه وشغلها، كما يجعل غيره الغناء مُستروحاً حزنه، ومُستفاسح قلبه، ليس أن هناك غناءً به على الحقيقة، وهذا كما يقول القائل: قد جعل فلان الصوم لذته، والصلوة طريته، إذا أقامهما مقام شغل غيره باللذات، وطربه إلى المستحسنات <sup>(٤٠)</sup>.

وأغلب العامة فسرت «يَعْنِي بالقرآن» هنا بآئته يجهر به<sup>(٤١)</sup>، وبعضهم قال يحسن الصوت<sup>(٤٢)</sup>.

### المواهش:

- (١) لاحظ أصول الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن.
- (٢) سورة مريم، الآية: ٤.
- (٣) سورة مريم، الآية: ٢٩.
- (٤) سورة مريم، الآية: ٥٨.
- (٥) سورة طه، الآية: ١١١.
- (٦) سورة طه، الآيات: ٨-١.
- (٧) التصوير الفي في القرآن للسيد قطب، ص ٨٦
- (٨) سورة التكوير، الآيات: ١٥-١٨.
- (٩) سورة ق، الآية: ١٩.
- (١٠) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
- (١١) سورة الملك، الآية: ٨.
- (١٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٩.
- (١٣) سورة الشعراء، الآية: ٩٤.
- (١٤) سورة مريم، الآيات: ٤-٦.
- (١٥) الآيات الأخيرة من سورة نوح.
- (١٦) النبأ العظيم، ص ٩٤ - ٩٩، والآية آية ٣٠ من سورة القصص.
- (١٧) إعجاز القرآن، ص ١٨٨، و ٢١٦.
- (١٨) الكافي، ج ٢، ص ٦١٤، رقم ٢.
- (١٩) أمالى السيد المرتضى، ص ٢٥. مستدرک الوسائل، ج ٤، ص ٢٧٠. سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٤٢٤، ح ١٣٣٧.

- (٢٠) مستطرفات السرائر، ص ٤٨٤.
- (٢١) الاحتجاج، ج ١، ص ١٧٠.
- (٢٢) الكافي، ج ٢، ص ٦١٦.
- (٢٣) روى الحديث الفريقيان، فمن طرق الإمامية: الكافي، ج ٢، باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن، ص ٦١٥، ح ٩، وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢١١، باب تحريم الغناء في القرآن الكريم، ومن طرق العامة: مصنف عبد الرزاق، ج ٢، ص ٤٨٤، ح ٤١٧٣، ورواه المقدسي في الأحاديث المختارة، ج ٧، ص ٨٨، ح ٢٤٩٦.
- (٢٤) الكافي، ج ٢، ص ٦١٦، باب في من يظهر الخشية عند قراءة القرآن، ح ١٣، وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢١٢، باب تحريم الغناء بالقرآن، بحار الأنوار، ج ٨٩، كتاب القرآن ٢١ ص ١٩٥ - ١٩٠.
- (٢٥) عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق رضي الله عنه؛ وسائل الشيعة، ج ٦ ط آل البيت عليهم السلام، ص ٢١٢، باب تحريم الغناء في القرآن الكريم. والإتقان في علوم القرآن للسيوطى، ص ٢٦٨.
- (٢٦) مستدرك الوسائل، للمحدث النوري، ج ٤، ص ٢٧٣، بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٩٠.
- (٢٧) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٠٨.
- (٢٨) مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج ١، ص ٤٦. بحار الأنوار للمجلسي ج ٨٩، ص ١٩٠. مجمع الزوائد للهبيشي، ج ٧، ص ١٧١.
- (٢٩) الكافي ج ٢، ص ٦١٤-٦١٦، رقم ٣٦٩ و ٣٠.
- (٣٠) معاني الأخبار، ص ٢٧٩. الأimalي، السيد المرتضى، ج ١، ص ٢٤-٢٥. مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٢٧٣ - ٢٧٤. بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٣٤٢ - ٣٤٣، وج ٧٦، ص ٢٥٥، وج ٨٩ ص ١٩١ - ١٩. وورد هذا الحديث أيضاً في مصادر أساسية من مصادر السنة، كمسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٥، سenn الدارمي، ج ٢، ص ٤٧١، صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٠٧، وج ٨، ص ٢٠٩..الخ.
- (٣١) الحدائق الناضرة، ج ١٨، ص ١١٣.
- (٣٢) معاني القرآن، ص ٢٦٤، رقم ١٣.
- (٣٣) المجازات النبوية، للشريف الرضي، ص ٢٣٤.

- (٣٤) بمعنى الحاجة، أو المقاصد والغاية، راجع لسان العرب، ج ١، ص ٢٠٨، وحاشية المجازات النبوية ص ٢٣٤.
- (٣٥) تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي، ج ١، ص ٤٦، المبسوط للشيخ الطوسي، ج ٨، ص ٢٢٧، والمجموع للنووي ج ٢٠، ص ٢٣١، وقال الشافعي: وموافقوه معناه تحزين القراءة وترقيقها، انظر الديجاج على مسلم للسيوطى ج ٢، ص ٣٩٢.
- (٣٦) تفسير الصافي، للفيض الكاشانى، ج ١، ص ٧٢.
- (٣٧) نهاية ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٩١.
- (٣٨) الفايق في غريب الحديث، ج ٢، ص ١٧.
- (٣٩) صحيح مسلم، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ج ١، ص ٥٤٥، ح ٧٩٢. المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ج ١، ص ٧٦٠، ح ٢٠٩٦. صحيح بن حبان، ج ٣، ص ٢٧، سنن النسائي، ج ٥، ص ٢١، ح ٨٠٤٨.
- (٤٠) المجازات النبوية، ص ٢٣٣.
- (٤١) غريب الحديث لابن سلام، ج ٢، ص ١٣٩. فتح الباري، ج ١٣، ص ٤١٩. عون المعبود، ج ٤، ص ٢٤١. لسان العرب، ج ١٣، ص ١٠.
- (٤٢) شرح مسلم للنووي، ج ٦، ص ٧٨.



## الطائفية البخينة

قراءةٌ في فكر سماحة العلامة الشيخ عيسى أحمد قاسم حَفَظَهُ اللَّهُ

غازي عبد الحسن إبراهيم

كثيرٌ حينما عادت الحياة إلى جسد الأمة الإسلامية - بعد انتهاء مرحلة الموت السريري - من خلال الانتصار التاريخي للشعب الإيراني المسلم بقيادة الإمام الخميني قَدِّسَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْبَاعُهُ، راهن المعسكران الغربي والشرقي على انطفاء وهج الحماس الشوري النبعث من منطلقاته الدينية التي تستوعب كافة المسلمين، بل كافة الأحرار، في مدة أشهرٍ قلائل، وإلاًّ فسنواتٍ مثلها، وبعد أن خاب ظنّهم وبان فشلهم، تحركوا بأدوارٍ متعددةٍ في ظلّ هدفٍ موحدٍ، ألا وهو القضاء على الإسلام المحمدي الأصيل؛ لضمان استقرار الغدة السرطانية «الكيان الصهيوني الغاصب»، ومن تلك الأدوار: - بدؤوا في إثارة الأقلّيات المختلفة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، مستغلّين ما أسموه مرحلة الفوضى التي تمرّ بها الثورة.

- دعم المجموعات الإيرانية المعارضة، من قبيل فلول الشاه المقبور وبعض التنظيمات التي حملت السلاح لمحاربة الثورة كمنافقي خلقٍ.

- الحصار الاقتصادي والسياسي الذي تتزعّمه أمريكا بعية الدول الأوروبيّة.

- الحرب العسكرية المفروضة التي شنّها المقبور صدام حسين.

وبعد أن تبيّن عدم جدوايّة هذه الأمور، لجئوا إلى سلاح الفتنة الطائفية لمحاصرة المدّ الشوري الإسلامي، ومنع تأثيره - كما يزعمون - من الوصول للمناطق السنّية في البلاد الإسلامية، عبر تأطيره بإطارٍ شيعيٍّ.

حيث إن انتشار المد الشوري الإسلامي يشكل خطراً على الوجود الصهيوني أمريكي في المنطقة؛ باعتبار أن ركيزته الأساس هي الوحدة الإسلامية الباعثة للصحوة، مما يستدعي توجّه أنظار كافة المسلمين إلى العدو المشترك الذي اغتال الأمين العام لحزب الله، السيد عباس الموسوي، ودمّر الضاحية - وهي معقل حزب الله - في لبنان الجريح، كما اغتال مؤسس حركة حماس الشيخ أحمد ياسين، ودمّر قطاع غزة - وهو معقل حركة حماس - في فلسطين المحتلة.

فقد أئف إسرائيل - الأمريكية الصنع - لم تفرق بين مسلمٍ سنيٍّ ومسلمٍ شيعيٍّ فدم المسلم السني امترج بدم أخيه المسلم الشيعي في بحر الشهادة والذود عن الإسلام العزيز والحافظ على المقدسات، وبهذا الدم سيتحقق النصر الآتي بإذن الله تعالى، وما يهون الخطب هو وجود رجالاتٍ من الطائفتين الكريتين - السنّية والشيعيّة - واجهوا هذه المؤامرة بوعيهم الإسلامي، وإخلاصهم وحرصهم على دين الله عزّ وجلّ، وإعلاء كلمة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

- الشيخ سليم البشري، وهو شيخ الأزهر في وقته، الذي قال في رسالة وجهها للسيد عبد الحسين شرف الدين العاملاني: «العمل بمذهبهم - أي مذهب الشيعة الاثني عشرية - يجزئ المكلفين، ويبرئ ذمّهم، كالعمل بأحد المذاهب الأربع بلا ريب»<sup>(١)</sup>.

- الشيخ حسن البنا، رائد الحركة الإسلامية المعاصرة، وواحدٌ من الرواد الذين عاشوا فكرة التقرير بين الشيعة والسنّة، فكان من المساهمين في أعمال التقرير بين المذاهب.

- الشيخ عبد الحليم سليم، شيخ الأزهر، والمرجع الأعلى للإفتاء وقتها.

- الشيخ محمود شلتوت، وهو شيخ الأزهر في وقته، الذي أفتى بفتواه المشهورة:

«إنَّ مذهبَ الْجعفريَّةِ - المعروضُ بذهب الشيعة الإمامية الثانية عشرية - مذهبٌ يجوز التعبد به شرعاً، كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية - بغير الحق - لذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتاتعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهد تقليدهم، والعمل بما يقرّونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات»<sup>(٢)</sup>.

- الشيخ محمد الفحّام، وهو شيخ الأزهر في وقته، وقد بعث برسالة للشيخ حسن سعيد، - وهو من كبار علماء طهران - مسترجعاً ذكرياته في طهران عام ١٩٧٠، حيث ذكر فيها: «وقد أُمّاّجت هذه الزيارة في نفسي ذكريات جميلة، ذكريات الأيام التي قضيتها في طهران سنة ١٩٧٠، فعرفت فيها طائفةً كبيرةً من طوائف العلماء الشيعة الإمامية، وعرفت فيهم الوفاء والكرم الذي لم أعهد من قبل، وما زيارتهم اليوم إلا مظهر وفائدهم، جزاهم الله كلّ خير، وشكر لهم مساعهم الجميل في التقرب بين المذاهب الإسلامية التي هي في الحقيقة الواقع شيءٌ واحدٌ في أصول العقيدة الإسلامية التي جمعت بينهم على صعيد الأخوة التي جسّدتها القرآن، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

وغيرهم الكثير من العلماء، هذا على صعيد علماء الطائفة السنّية الكريمة.

أمّا على صعيد علماء الطائفة الشيعية الكريمة، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر:

- السيد عبد الحسين شرف الدين العالمي، صاحب كتاب المراجعات، الذي هو عبارة عن مجموعةٍ من المناظرات العلمية الراقية من حيث الشكل والمضمون، بين السيد عبد الحسين شرف الدين وشيخ الأزهر الشيخ سليم البشري.

- آية الله العظمى السيد حسين البروجردي، وهو المرجع الأعلى لحوza قم

المقدّسة العلميّة في وقته.

- الشّيخ محمد تقي القميّ، وهو مبعوث السّيّد البروجردي لالأزهر الشّريف.

- السّيّد نوّاب صفوی، مؤسّس حركة «فدائیی الإسلام»، وقد زار جامع الأزهر الشّریف والتّقی بشیوخه، وقد قال: «النعمل متّحدین للإسلام، ولننسَ کلّ ما عدا جهادنا في سبيل عزّ الإسلام، أما آن للمسلمین أن يفهموا ويدعوا الانقسام إلى شیعةٍ وسنة؟!».

- الإمام الخمینی، مؤسّس الجمهوريّة الإسلاميّة في إیران، الّذی تمیّز خطباته بشعار الوحدة الإسلاميّة، ومقارعة الشّیطان الأکبر والغدّة السّرطانية، وقد قال في إحدى خطباته عام ۱۳۸۴هـ: «الآيدي القدرة الّتی تبیث الفرقہ بين الشیعی و السنّی فی العالم الإسلاميّ، لا هي من الشیعہ ولا من السنّة، إنّا آيدي الاستعمار الّتی ترید أن تستولي على البلاد الإسلاميّة من أیدینا، والدول الاستعماريّة - الدول الّتی ترید نهب ثرواتنا بوسائل مختلفةٍ وحیلٍ متعدّدةٍ - هي الّتی توجد الفرقہ باسم التشیع والتسنّن».

ومن جملة هؤلاء العلماء السائرين على هذا النهج القويم، سماحة العلام المحقق الشیخ عیسیٰ احمد قاسم حفظه الله، وهو شمسٌ في سماء البحرين، عُرف بتقواه وكفاءته العلميّة، وحرصه على السلم الأهليّ وتفعيل الوحدة الإسلاميّة والوطنيّة، وفي هذا السياق أطلق المجلس الإسلاميّ العلمائيّ - الّذی يترأّسه سماحة الشیخ عیسیٰ احمد قاسم حفظه الله - شعار المجلس لعام ۱۴۲۸هـ تحت عنوان: (نحو وحدة وطنية وإسلاميةٍ جامعة).

وفیما يلي أستعرض قراءةً شاملةً لمفهوم الطائفية الّذی تناوله سماحة الشیخ عیسیٰ احمد قاسم حفظه الله في خطب الجمعة على مدى سنواتٍ عدّةٍ.

## **الطائفية البغيضة:**

يرى سماحته في الطائفية بأنّها استعداءً من طرف لطرف، واستباحةٌ إضرارٍ به، وشريخُ اجتماعيٌّ، وتربيّة أجيالٍ على الكراهيّة، وأنّ لها لغتين، لغةٌ لفظيّةٌ، ولغةٌ عمليّةٌ، وكلٌّ منها لغةٌ فعالةٌ مفسدةٌ تهدم الصالح من البناء، ولا تتحدد بحدودٍ، بل تنتشر كانتشار النار في الهشيم.

يقول سماحته: «للطائفية لغتان؛ لغةٌ لفظيّةٌ، ولغةٌ عمليّةٌ، وكلٌّ منها لغةٌ فعالةٌ مفسدةٌ، تهدم الصالح من البناء، وإذا كان لها أن تقيّم شيئاً فإنّما تقيّم عمارةً خراباً، ولا أرى في الطائفية المجنونة إلا أنها تهدم كلّ خيرٍ، ولا تستطيع أن تقيّم على الأرض صالحاً».

الطائفية استعداءً من طرف لطرف، واستباحةٌ إضرارٍ به، وشريخُ اجتماعيٌّ واسعٌ، وتربيّة أجيالٍ على الكراهيّة، وسلب حقوقٍ، وإسقاط قيمةٍ، ومشاعر بغضّاءٍ بلا عقلٍ ولا إيمانٍ.

وطائفية الكلمة - أي الكلمة التي تأتي عن الكلمة - لا تبقى طائفية الكلمة، وإنّما تقتد إلى كل مساحات الحياة لتصبغها بلون الطائفية السوداء الكالحة.

وطائفية منطقة لا تبقى طائفية منطقة، إنّما من شأنها أن تقتد إلى كل مناطق المسلمين، وإلى كل أقاليمهم لتنشر الخراب، لتنشر البغضاء، لتنشر سُنة الاحتراق، فإذا حدثت طائفية في العراق فعلينا أن نفكّر فيها هنا، إذا حدثت طائفية في الكويت فعلينا أن نفكّر فيها هنا، إذا حدثت طائفية هنا فعلى كل المسلمين أن يفكّروا فيها للتخلص منها.

وطائفية المساجد لا تبقى طائفية مساجد، وإنّما تخترق كلّ الجدران، وكلّ

الأبواب، ولو كانت الجدران محكمةً، ولو كانت الأبواب موصدةً لتدخل الجامعة، لتدخل الدائرة، لتدخل السوق، لتدخل كل قرار، لتدخل أفكار الصبية، أفكار الصبيا، أفكار الشيوخ أفكار كل الأعمار لتدمّر، لتفسد، لتحول الحياة عذاباً. والطائفية منطلقاً هي إما سياسيةٌ مربوطةٌ بسياسة داخليةٍ، أو سياسيةٌ مربوطةٌ بسياسة خارجيةٍ، وكلها شرٌ.

كل سياسةٍ تُتَّخذ من الطائفية مركباً لتبني قدمها هي سياسة شرٌ قاتلة لنفسها والآخرين، وقد يكون منطلق الطائفية هو الحقد العام على الإسلام من غير المسلمين، ومن أعداءِ داخليين في المجتمع الإسلامي، ويأتي منطلق آخر خطير أيضاً وهي العصبية العمياء بخلفية من تربية جاهلة لا تعرف الإسلام، ولا تقدر الأمور، وتقوم في تنشئتها للجييل على الكراهية البغيضة للمسلمين، والاستخفاف بكل فهمٍ للإسلام غير الفهم الذي تربى عليه حتى لو كان هذا الفهم سقيناً؛ فلا بدّ من بعد ذلك من تيار عام داخل المسلمين، تيارٌ معتدلٌ يرفض الدعوات والموافق الطائفية ويدينها بصورةٍ مبكرةٍ، وبشكلٍ جديٍ حازم.

وحين تُشار الطائفية في أي بلد يجب أن يهرب ضدّها كل المسلمين؛ لأنّها لن تحرق طائفةً منهم فحسب، وإنما ستكون محرقةً كل الطوائف والفئات»<sup>(٤)</sup>.

ويرى سماحته بأن نشر العداوة بين الطائفتين الكبيرتين المسلمين هو هدمٌ لكيان المسلمين، وتمكينٌ للأعداء، وحذر - في سياق كلامه - من صناع الطائفية، وقدم دعوةً للتخيّبة - شيعةً وسنيةً - وكل المهيمنين بشأن الإسلام، بأن يوحّدوا الصفّ في مواجهة دعوات التفريق والتخرّب التي تستهدف صفوف المسلمين.

يقول سماحته: «نشر العداوة بين الطائفتين الكبيرتين هدمٌ لكيان المسلمين، وتمكينٌ لأعداء الله منهم، لا يفعّل تأجيج هذه العداوة وإشعال نارها إلا

غافلٌ أو مجرمٌ، وهناك صناعٌ للطائفية، أتحدث عن بعضهم، على مستوى العناوين فقط:

(١) شخصٌ جاهلٌ، أسرته - هذا الشخص الجاهل، ومن يقابلها قد يكون عالماً، وقد يكون مثقفاً بالثقافة غير الفقهية، وقد يكون زعيمًا سياسياً، وقد يكون غير ذلك - النظرة الخانقة، فهو ينظر للإسلام نظرة خانقةً، مجزوءةً، ليست له النظرة التي يستطيع من خلالها أن يرى أين تكمن مصلحة المسلمين، وأين تكمن مصلحة الحقّ، إذا كان المذهب السنّي هو الحقّ فهل تكمن مصلحة المذهب السنّي في أن يشن حرباً على التشيع؟ وهو يلتقي معه في مساحة كبرى من الإسلام؟ وإذا كان الحق كلّ الحقّ في التشيع فهل من صالح التشيع أن يشن حرباً على التسنين في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية والسنّة تلتقي مع الشيعة في كثيرٍ من القضايا؟ وهل أن الفكر الشيعي الصافي الأصيل، وما قدّمه الأئمة عليهم من دروسٍ نظريةٍ وعمليةٍ في هذا المجال، تبعث على شنّ حربٍ من هذا النوع؟ أو أنّ الأئمة عليهم يرفضون أن تخلق حالة من العداوة، وأن تضرم نار العداوة بين المسلمين، وأنه إذا كانت هناك دعوة - ولتكن - فإنّها هي دعوة على منوال ما أوصى به الكتاب الكريم ﴿إذْعُ إِلَى سَيِّلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾، وعندنا: ﴿جَادَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

(٢) غزارة الحقد الذي قد يغزو القلب والإنسان في سنّيه الأولى، جدّة غافلة، أبٌ غافلٌ، أمٌ غافلة، بدل أن توضح حدود الحقّ وتقيّز الحقّ عن غيره، وما ينبغي أن يكون عليه التعامل بين المسلمين منخلق الرفيع، والتراحم والتعاون على الخير، ورفع حاجة المحتاج، وعزّ المعاوز، شيعياً كان أو سنّياً، هذه الجدّة أو تلك الأمّ أو ذلك الأب يزرع الحقد على الشيعة والتّشيع، أو على السنّة والتسنين، ليس مطلوباً منا أبداً أن نزرع هذا الحقد في نفوس أبنائنا، مطلوب جدّاً جدّاً أن نقدم لهم الرؤية

الدينية الصافية، والمدرسة الحق، وهي مدرسة أهل البيت عليهما السلام، وعلينا مع ذلك أن نزرع في نفوسهم الخلق الإسلامي، وكيفية التعامل الصحيح مع المسلمين.

٣) عالم لا ورع له، أو أي شخص، شخص لا ورع له يبحث عن جمهور من طائفة سنّية أو شيعية لأغراض دنيوية.

٤) شخص يعمل على التفريق بين المسلمين بالوكالة عن عدوهم، ويتقاضى أضخم الأجر على هذه العمالة.

٥) حاكم يعتمد في تثبيت حكمه ووضعه على إضعاف الأمة بالفرق، ولقد كان دور الدولتين الأموية والعباسية في التفريق بين المسلمين واضحاً جداً حتى أبعد مذهب الإمام جعفر الصادق عليهما السلام، وأسقطت صحة التعبد به وهو أصل المذاهب. وهنا الدعوة تتوجه للنخبة - من الشيعة والسنّة، ولكل المهتمين حقاً وصدقأً بشأن الإسلام - بأن يوحّدوا الصف في مواجهة دعوات التفريق والتخرّب التي تستهدف صفوف المسلمين»<sup>(٥)</sup>.

### نظريّة الفوضى البناءة والدم الحرام:

لا يخفى ما للدم الحرام من حرمة في الإسلام، وإن أحله فراغة الأرض ومرجوjo شريعة الغاب بستار الديمقراطية، فإنّي اباحة الدم الحرام من خلال خلق فوضى في المجتمعات الإسلامية - من قبل ساسة الاستكبار - عن طريق الحروب الطائفية غايته إيجاد حالة اليأس من الإسلام، والتشكيك في قدرته على تلبية حاجة الفرد والمجتمع، ومن ثم طرح بدائل في المجتمعات الإسلامية، ألا وهو ديمقراطية الغرب بخلفيتها الفكرية، وبأخلاقياتها، وبأهدافها الماديّة بعيداً عن قيم الدين.

يقول سماحته: «تحلّه - أي الدم الحرام - دائمًا مطامع المستكبرين، ويحلّه الجهل

باليسلام، والبعد عن الإسلام، أحل الدم المرام:

- سنّياً سنّياً: فهو حلالٌ على هذا المستوى في أفغانستان، وفي فلسطين، وفي تركيا، والجزائر، والصومال، والسودان.

- وأحل سنّياً شيعياً: كما هو الوضع في العراق وفي باكستان.

- ويكن أن يحلّ شيعياً شيعياً في معارك أخرى، وهو قد حصل في إيران، وفي لبنان، أقول وراء أن يحلّ الدم المسلم المرام مطامع استكبارية عالمية من الخارج تثير الفتنة في داخل هذه الأمة وتُغذّيها تحت شعار مُدمِّرٍ تبنّاه جناح متطرفٍ في أمريكا، وهو ما يُسمى بالفوضى البناء، والفوضى البناء تعني أن يُعمل جدًا - ومن خلال كلّ الوسائل - على خلق فوضى في المجتمعات الإسلامية عن طريق المروء الطائفية والقومية والعرقية وإلى آخريه، وهذه الفوضى هي التي يمكن من بعد ذلك - ومن بعد أن يحصل يأسٌ من الإسلام، ومن حلٍ من الداخل - أن تقود إلى ديمقراطية الغرب بخلفيتها الفكرية، وبأخلاقيتها، وبأهدافها المادّية بعيدًا عن قيم الدين، وعن انتماء هذه الأمة إلى الهوية الإسلامية، وبحيث تضمن تبعية الأمة للمستكبر.

فيما شيعة وسنة في الخليج وفي البحرين، احذروا؛ فإنكم غير متrocين، فمصالح من الخارج، وربما تبعتها مصالح من الداخل، أو كانت معها في عرض واحدٍ تتوجه إلى خلق الفتنة الحارقة داخلكم، فابغضوا قلمًا يثير الفتنة، حاربوا هذا القلم، وابغضوا وحاربوا أيّ لسانٍ يثير مسألة الطائفية البغيضة، لا تحتاج إلى نظرٍ معنٍ حتى تعرف أنّ فتنة سيئة قاتلةً مقصودةً لهذا المحيط الخليجي، ووقود هذه الفتنة مستضعفو الشيعة والسنة، فيما إخوتي السنة والشيعة، احذروا أن تكونوا وقداً لأطماع المستكبرين؛ مستكברי أمريكا، ومستكبرى أوروبا، وكلمة للحكومة: قليلٌ من

عدلٍ يقي كثيراً من شرٍّ، وفي العدل - لا الظلم - دوام الملك، والفتنة لا تحمي ملكاً، وإنما تُدمر أوطاناً، وتُهلك الحرف والنسل، والغلبة في فتن البيت الواحد هزيمةٌ، والفتنة من الطابع السياسي - وحيث لا تتعدها - خطيرةٌ مدمرةٌ، أمّا الفتنة السياسية أو غيرها إذا دخلها العنصر الديني أو المذهبي فهي أكثر خطورةً وأشدَّ تدميراً، ليرحم أصحاب الفتنة هذا البلد الصغير بكلٍّ فئاته وأبنائه، ومنهم هم نفسمهم»<sup>(٦)</sup>.

وفي صدد حديثه عن الشحن الطائفي الموبوء بجرائم الحقد والكراهية، الذي تتعرّض له الساحة الإسلامية العامة، والساحة المحلية، يقول سماحته: «المنطقة مشتغلةٌ بالتحضير الميداني العسكري، والسياسي، النفسي، وعلى كلٍّ الأصعدة لحربٍ عدوانيةٍ جديدةٍ بإرادةٍ وتخطيطٍ أمريكيين، والفتنة الطائفية بين الإخوة من أبناء الأمة الإسلامية الواحدة وقع الاختيار عند المخطط على أن تكون من بين الآليات الفعالة الأهم في هذه الحرب، ومعلومٌ أنَّ تأثير الفعل يحتاج إلى قابلٍ، والمسلمون - حسب واقع علاقتهم حتّى داخل المذهب الواحد والقومية الواحدة والقطر الواحد - لا يملكون عصمةً أمام مؤامرات الفرقـة والشتـات والاقتـال، وذلك من بُعد شاسعٍ ارتکبـوه عن الإسلام، ونحن على يقينٍ بأنَّ تأجيج الفتنة بين المسلمين، وإثارة الأحقاد والأرجيف المفسدة في صفوفـهم، مما يغضـب الله ورسولـه ﷺ، ويُعـكـنـ منهمـ أعدـاءـهمـ والمترـبـصـينـ بهـمـ الدـوـائـرـ، والسـاحـةـ العـامـةـ الإـسـلامـيـةـ، والسـاحـةـ المـحلـيـةـ فيـ هذاـ الـبلـدـ تـتـعرـضـ لـشـحنـ طـائـفيـ فوقـ العـادـةـ، وـضـخـ مـسـتـمرـ لـمـشـاعـرـ الحـقدـ وـالـكـراـهـيـةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـ الشـيـعـيـ وـالـمـسـلـمـ السـنـيـ، وـلـكـلـمـاتـ تـسـتـفـزـ النـفـوسـ، وـتـدـفـعـ إـلـىـ الـموـاجـهـاتـ المـجنـونـةـ الـتـيـ حـرـمـ اللهـ تـبارـكـ وـتـعـالـىـ وـرـسـوـلـهـ ﷺـ.

وهي كلماتٌ تُحدِّر دائمًا طائفـةً من المسلمين بأنَّ حرب الطائفة الأخرى لها على الأبواب، وأنَّها مصمـمةـ أنـ تـسلـبـهاـ كـلـ المـوـاقـعـ وـالـامـتـياـزـاتـ إـلـىـ حدـ الإـسـقـاطـ وـالـإـلغـاءـ،

وسحق المذهب الآخر، وكأنّ الطائفة الأولى صفرٌ على الشمال، ولا تملك أيّ إمكاناتٍ للدفاع عن نفسها، الله أعلم ماذا وراء كلّ هذه التهويّلات والاختلاقات والتّوهمات من تصوّرٍ وتصديقٍ وتوقّعٍ، ونيّةٍ في نفوس أصحابها، وليس لنا وقفة مناقشةٍ حتّى موضوعيّةٍ مع هذه الممارسات، ولكن من الضروريّ أن نذكّر النفس وكلّ الإخوة من المسلمين شيعةً وسنيةً بوجوب الحذر من الانسياق وراء هذا التخويف للمسلم من مسلمٍ، وحرق العلاقات الإسلاميّة بينهما لحساب الاطمئنان إلى الأجنبيّ الذي ما فتاً يكيد بالإسلام والمسلمين، كما ندعو المستهدفين بهذه الحملات المنظمة المستمرة إلى مقابلتها بالصبر أو التّصبر وقايةً لشرٍّ مستطيرٍ يوقع المسلمين كلّهم في هول أعظم نكبة، علينا أن نصرّ بأن يضع الشيعيّ يده في يد السنّيّ، وأن يضع السنّيّ يده في يد الشيعيّ، غير ملتفتين إلى كلّ الأصوات النشار من هذا الطرف أو ذلك الطرف ممّن يُريد أن يُشعل الفتنة»<sup>(٧)</sup>.

### **الطائفية العبادية والطائفية السياسية:**

يرى سماحته أنّ الطائفية في منطلقها العباديّ واقعٌ لا مفرّ لنا من الاعتراف به، وهو موجودٌ في المذهب الواحد فضلاً عن المذاهب المتعددة، ولا معالجة جذريةٍ بالنسبة لهذا الواقع إلا بظهور الإمام المنتظر<sup>عليه السلام</sup>، بيد أنّ الحوار العاقل والهادئ مسألةٌ دينيّةٌ حتميّةٌ للتعاطي مع هذا الواقع.

يقول سماحته: «هناك طائفيةٌ عباديّةٌ في داخل الإسلام، المذهب السنّي والمذهب الشيعي يختلفان بدرجةٍ من الاختلاف في مسألة العبادات، كيفية العبادة، هناك اختلافٌ على قضيّة الإمامة، هذا الاختلاف من دون الاختلاف على الإمامة، وهنا الاختلاف الفقيهيّ نجده في المذهب الواحد، ونجده عند الفقيه الواحد من فقهاء السنّة،

من أئمّة السنة الأربعـة، يقول بالرأي ثم يصير إلى رأيٍ اجتهاديٌّ غيره؛ لأنّ المسألـة عند مالك والشافعيٌّ وأبي حنيفة مثلاً، المسألـة عندـهم مسألـة اجتهادٍ.

الشيء الذي لا نرتقبـه من الإمام المعمـوم علـى الله هو أن يتغيـر الرأي الواقعيٌ عنـه، الإمام علـى الله عملية توصيلـ الحكم عنـه - والتوفـر علىـ الحكم - ليست قائمةً علىـ الاجـتـهـاد، المـهمـ، هـذا الاختـلاف العـبـاديـ الذي يـقسـمـنـا طـائفـتينـ منـ نـاحـيـة عـبـادـيـةـ، لاـ مـفـرـ لناـ منـ الـاعـتـرـافـ بـهـ، وـلاـ مـعـالـجـةـ سـرـيعـةـ وـلاـ طـوـيـلـةـ المـدىـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـهـ إـلـاـ يـوـمـ أـنـ يـظـهـرـ الإـمامـ القـائـمـ (عـجـلـ اللهـ فـرـجـهـ وـسـهـلـ مـخـرـجـهـ)، وـيـتـبـيـنـ كـلـ الـمـسـلـمـينـ وـاقـعـ الـأـمـرـ، هـنـاكـ رـبـاـ خـرـجـ شـيـعـيـ مـنـ تـشـيـعـهـ عـنـادـاـ، وـدـخـلـ أـفـواـجـ مـنـ السـنـنـ فـيـ التـشـيـعـ استـسـلامـاـ لـلـحـقـ، سـتـجـدـونـ أـنـصـارـاـ لـلـإـمـامـ القـائـمـ عـلـىـ اللهـ فـيـ روـسـيـاـ مـنـ الشـيـعـيـنـ، وـفـيـ الـصـيـنـ، وـفـيـ أـمـريـكاـ، وـفـيـ كـلـ مـكـانـ، وـرـبـاـ تـجـدـونـ مـنـ يـوـاجـهـ الإـمـامـ القـائـمـ (عـجـلـ اللهـ فـرـجـهـ وـسـهـلـ مـخـرـجـهـ) مـنـ دـاخـلـ الـمـسـاجـدـ، حـينـ يـكـونـ دـخـولـهـ الـمـسـجـدـ لـلـإـضـرـارـ، لـلـتـجـسـسـ عـلـىـ الـمـؤـمـنـيـنـ لـعـدـوـ كـافـرـ خـارـجيـ مـثـلاـ»<sup>(٨)</sup>.

وـفـيـ صـدـ الـتـعـاطـيـ الإـيجـابـيـ مـعـ الطـائـفـيـ الـعـبـادـيـةـ، يـقـولـ سـماـحتـهـ موـضـحاـ ذـلـكـ بـمـوـقـفـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـىـ اللهـ فـيـ تـعـاطـيـهـ مـعـ مـعاـوـيـةـ: «عـلـيـنـاـ أـنـ نـتـعـاملـ مـعـهـاـ التـعـاملـ الـذـيـ أـوـصـيـ بـهـ اللـهـ عـلـىـهـ، تـبـقـيـ أـخـوـتـناـ إـلـاسـلـامـيـةـ إـذـاـ طـمـعـتـ فـيـ أـنـ يـكـونـ أـخـيـ السـنـيـ شـيـعـيـاـ، فـلـيـكـنـ ذـلـكـ مـنـ خـلـالـ الـحـوارـ الـهـادـيـ وـالـطـرـحـ الـعـلـمـيـ الـبـعـيدـ عـنـ أـيـ تـعـصـبـ وـتـشـنـجـ، إـذـاـ طـمـعـ أـخـيـ السـنـيـ فـيـ أـنـ أـكـوـنـ سـنـيـاـ مـعـهـ، فـلـيـسـلـكـ نـفـسـ الـسـلـوكـ، وـهـذـاـ هـوـ الـطـرـيقـ الـحـقـ فـيـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ».

وـيـقـولـ سـماـحتـهـ: «أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـىـ اللهـ لـمـ يـشـنـ حـرـبـاـ عـلـىـ مـعاـوـيـةـ لـأـنـ مـنـ مـعـهـ كـانـ لـاـ يـحـتـرـمـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـىـ اللهـ وـلـاـ يـأـخـذـ الـحـكـمـ مـنـ طـرـيـقـهـ، يـعـنـيـ لـيـسـ لـأـنـ أـهـلـ الشـامـ لـمـ يـأـخـذـوـ أـحـكـامـ صـلـاتـهـمـ وـصـوـمـهـمـ عـنـ طـرـيقـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـىـ اللهـ حـارـبـهـمـ..

إنّا حاربهم لأنّ معاویة من البغاء، خارجٌ على إمام زمانه، أمّا مسألة اختلاف المذهب وأنّ أي عالمٍ كان يذهب مذهبًا غير مذهب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الفقه كان يحاربه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يعرف عنه ذلك، فلا حرب بين المسلمين سنّةً وشيعةً، ولا إضرار دنيويٍّ لهذا الاختلاف المذهبيِّ العباديِّ»<sup>(٩)</sup>.

أمّا البليّة كلّ البليّة، فيرى سماحته بأنّها تكمن في الطائفية السياسية ذات النفس الإقصائيِّ التي يهندس لها - عادةً - مهندسو السلطة وموقع النفوذ، يقول سماحته: «البليّة كلّ البليّة في الطائفية السياسية، والطائفية السياسية ماذا تعني؟! تعني محاولة إقصاء طرفٍ لطرفٍ، محاولة تفزيه في أعماله من ناحيةٍ ماليةٍ، من ناحيةٍ ثقافيةٍ، من ناحيةٍ أمنيةٍ، هنا تجري محاولةٌ دائمةٌ لإقصائه وطرده عن موقع التأثير، عن موقع النموّ، عن موقع الرشد وما إلى ذلك، الطائفية السياسية تعني استعمال الموقع ضدّ طائفةٍ معينةٍ، تعني تسخير الطاقات والإمكانات في هذا البلد أو ذاك من أجل ملاحقة طائفةٍ معينةٍ في مستواها العلميِّ والثقافيِّ والاقتصاديِّ وما إلى ذلك.

هذه الطائفية في العادة من أين تبدأ؟ هل تبدأ من القاعدة؟ من الشعب؟ أو تبدأ في العادة من السلطة؟ المعقول والذي يسمح به الواقع العمليِّ أنّ الضعيف لا يتحرّش بالقويِّ، وأنّ الضعيف يحاول أن يهدّد الطريق للمصالحة مع القويِّ حتّى تسلم له بعض مصالحه، والسلطة بما تملك من إمكاناتٍ، وفي تقديرٍ من التقديرات، وفي حالة السلم أقوى من الشعب، الشعب أقوى من السلطة حين تهبّ ريح الفتنة، وحين تشتدّ وتشتعل نارها، أمّا في حالات السلم فالسلطة أملك للأمر، والناس - كلّ الناس - ليسوا طلابٍ فتنـة، و تتبعـهم الفتـنة، ويحبـون الـراحة والـاسترخـاء، ويحبـون التـفرـغ لأعـماـلـهـمـ وـلـأـفـكـارـهـمـ، ولـتـمـوـهـمـ الذـانـيـ، ولـمـصـالـحـهـمـ الشـخـصـيـةـ، فـيـ المـتـصـورـ أنـ الحـرـبـ الطـائـفـيـةـ وـأنـ الفتـنـةـ الطـائـفـيـةـ، وـأنـ الطـائـفـيـةـ السـيـاسـيـةـ إنـاـ تـبـدـأـ منـ مـوـقـعـ

السلطة، وربما استجابت لها الشعوب بسرعة، وإن كان عن غفلة منها»<sup>(10)</sup>.

ويقول سماحته - متسائلاً وهو ينتقد دعاة الطائفية وأبواء الصحافة - : «لماذا إهاب الجو؟! ودق طبول الحرب، حرب الطائفية؟! أنا في نظري أن الصحافة تخطي كل الخطأ - إذا أحسنت النية - حين تحاول إثارة غبار الطائفية، والطائفية بغيضة ممزقة، تعبر عن مرضٍ داخليٍ قاتلٍ فتاكٍ، من أحب إثارة الفتنة الطائفية من موقع شعبيٍ أو من موقع رسميٍ فهو إنما يحاول أن يهدم البيت على غيره وعلى نفسه، الوطن بيت الجميع، وعلى الجميع أن يرعوا هذا البيت، وأن يحافظوا على بنائه، وبناؤه لا يستقيم مع الفرقه والشتات والتناحر.

الصحافة تخطي حين تثير جوًّا ملهباً تدعى أنها تحاول أن تعالج به أمر الطائفية، وهذه الحملة تمثل في نفس الوقت إثارة روح الطائفية والتشنّج وإلفات أنظار الناس إلى ما يمكن أن يكون منبع فتنة كبرى»<sup>(11)</sup>.

وفي إطار رفضه للطائفية شعاراً ودعوةً وممارسةً، يقول سماحته: «لا للطائفية شعاراً، دعوةً، ممارسةً، لا للطائفية التي تستبيح الآخر، تنقص حقه، تحاول تفريمه والإضرار به، تستر خص حقوقه، تستهدف تهميشه، ترتاح لظلوميته، تتأخر عن نصرته عند ظلمٍ مسنه، لا لطائفيةٍ تزق المجتمع، تفصم عرى الألفة والمحبة والأخوة بين أبنائه، تهدم الجسور، وتحفر الخنادق، وتقطع الصلات، وتوسّع الشفقة، وتوهن الإسلام، وتُطمع فيه أعداءه، نعم للاعتراف بالحقوق والمشاركة العامة في المطالبة بها حتى إقرارها، وإذا كنا شيعةً وسنةً فإن الإسلام يرعى حقوق الجميع، وإن الوطنية الواحدة قاعدة حقوق ثابتة مشتركة، وهنا ينبغي التنبيه على أمرين مهمين:

أولاً: ينبغي أن لا يتضائق الشيعة من وصول إخوانهم السنة لشيءٍ من حقوقهم، وإنصاف الحكومة لهم والتوسيعة عليهم في الوظائف والخدمات والمشاريع الدينية

والثقافية وغيرها مما يشارك في راحة الحياة وتقديم المستوى، والصحيح هو أن يفرح المسلم لخير أخيه المسلم، فهنئا للإخوة السنة أن يُوسع عليهم، أن ينالوا حقوقهم، أن يتقدم مستواهم.

ثانياً: من حق الشيعة - بل من واجبهم - أن يطالبوا الحكومة بكامل حقوقهم من حيث إنهم مواطنون كاملو الوطنية، وأن يصرروا على تطبيق العدل والإنصاف بعيداً عن شعارات الطائفية، ولا يليق بالإخوة السنة أن يحملوا هذه المطالبة بالحق من الشيعة على الطائفية؛ فإن الحق أحق أن يتبع، والإنصاف فيه خير الجميع، وسدّ لأبواب الشر، ولا يصح أن يسر أحداً ظلم أخيه له في الدين والوطن، وأن يقف من ذلك موقف المتفرّج الذي لا يعنيه من جرح أخيه شيء، ولا يسيئه اختلال موازين الحق والعدل والإنصاف.

وملخص القول إنه إذا أردنا أن نكون مسلمين كما يحب لنا الإسلام ويرضى، فعلى الشيعي أن يفرح لخير أخيه السنّي، وأنه قد نال شيئاً من حقوقه في ذمة الحكومة، وعلى السنّي أن يفرغ لشّر أخيه الشيعي، ويهب معه للمطالبة بحقه الثابت في ذمة الحكومة، على أنّ الأمر لا يعني المواجهة بين حكومة وشعب، ولا يتوجه إلى خلق حالة توّرٍ وصراع، وإنما كلّ الأمر هو أن يؤخذ بالعدل، وتؤدي الحكومة وظيفتها الواجبة، ويعطى لكلّ ذي حق حقه في جو من المودة والمحبة والاطمئنان الذي يعم الجميع»<sup>(١٢)</sup>.

### الجرح العراقي وشبح الطائفية:

ويحذر ساحته من تجربة العراق الجريح، ويقول: «كاد العراق أن يختنق طائفياً وقد حاول عقلاؤه - ولا زالوا - يحاولون جادين أن يتجاوزوا به كارثة هذا الخطر

الميت، وفي البحرين من يتعمّد الاقتراب بواقعنا من إثم الانشقاق والمواجهة، ونداؤنا: لا تغرقوا سفينتكم الواحدة، ومن يفعل لا بدّ أنّه سيغرق مع من سيغرقون، وليس بيد طرفٍ دائمًا أن يثير العاصفة، ويتراءج بها إلى الحدّ الذي يريد، وفي الوقت الذي يريد، لا يضمن أحدٌ نجاته من محقة الفتنة الطائفية المجنونة، وإن احتمى بقلعة أو اعتصم بجبلٍ، وإذا أُسْسَ هذا الجيل لطائفيةٍ حاقدةٍ فإن انفجرت – أي هذه الطائفية – أيامه فستحرقه، وإن تأخر انفجارها فسيحترق بنارها جيلٌ لاحقٌ ليعلن سابقه بعد أن يُفيق على هول الكارثة، وخيانة المؤسسين للفتنة».<sup>(١٣)</sup>

ويقول سماحته أيضًا وهو يحدّر من استيراد الفتنة من الخارج أو صناعتها في الداخل: «ربما بدأت بوادر طائفيةٍ تطفح على السطح في العراق منذرةً بتفجر خطيرٍ وهي أمنيةٌ سعي إليها المحتلُ الأجنبي والإرهابيون في العراق على السواء، وطائفيةٌ الخطف والذبح واستباحة المال والعرض والدم كفرٌ عمليٌ لا إيمانٌ – وقيد الكفر بكونه عمليًّا لمن يفهمه – وجاهليةٌ لا إسلامٌ، وهي قتل مصيرًا أسود ينتظر الإنسان والأرض باليابس منها والأخضر، ويرجي للعراق ألا يسقط في محقة الطائفية البغيضة بدرءٍ من الله، ثمّ بجهد الوعين المخلصين المشفقين على مصير الإسلام والمسلمين من أبنائه، والقوى الإسلامية الخيرة من خارجه.

وعلى البحرين أن تشارك – حكومةً وشعبًا – ما استطاعت في إطفاء هذه الفتنة وأمثالها وأشباهها في العراق وأيّ بلدٍ آخر من بلاد الجوار وغيرها من أقطار الأمة المسلمة، وأن نحدّر جمِيعًا من استيراد مثل هذه الفتنة القاضية من الخارج، أو التأسيس لها ابتداءً من الداخل، فإنّها خيار المجانين، والأمة إذا لم تنكر هذه الجرائم البشعة مجاهرةً بإنكارها، وإذا لم تقف في وجهها بكلّ الوسائل الممكنة، فهي أمّةٌ مضيعةٌ لديتها، خائنةٌ لأمانتها، متعرّضةٌ لغضبٍ من الله وعدابٍ أليم».

ويختتم سماحته الحديث عن الجرح العراقي النازف، ويقول: «فلنتقِ الله في دماء المسلمين وحرمة أهل القبلة، فأي شهادة سيؤديها نهر دجلة بين يدي العدل الحكيم وهو يفيض بدماء الأبرياء من أهل القبلة، وتتقاذف أمواجه جثث المؤمنين شيئاً وشيئاً، ونساء وأطفالاً، وهي مثلُ بها، ألا من عاقل؟! ألا من غير؟! ألا من منكر؟! إما إنكاراً وإلا بلاءً وعذاباً من الله يعم هذه الأمة»<sup>(١٤)</sup>.

### أسس الاتحاد:

يرى سماحة الشيخ بأنَّ الأمة الواحدة لا بدَّ لها من أسسٍ ترتكز عليها، وهذه الأسس في واقعها هي العمود الفقري لذلك الجسد الواحد، وقد تحدث سماحته عن ثلاثةٍ من الأسس لاتحاد الأمة، وهي تتفاوت من حيث التأثير:

١) الالقاء الفكري.

٢) القيم المعنوية.

٣) تشابك المصالح.

يقول سماحته: «للاتحاد أسس، الاتحاد يقوم على الالقاء الفكري أو التقارب الفكري، فما من أمَّةٍ يمكن أن تنشأ وأن تتوحد إلا وهي ترتكز إلى مرتکزٍ فكري واحدٍ تلتف حوله بهمٍ واحدٍ، أو بفهمٍ متقاربٍ، ومن دون ذلك لا يمكن أن تقوم قائمةً لأمةٍ، ولا يمكن أن يتحقق اتحاداً»، ويقول أيضاً: «بالنسبة للاتحاد في إطار الإسلام، حين يكون عندنا فهمٌ متكاملٌ للإسلام، لتعاليم الإسلام، لأخلاقيات الإسلام، لمفاهيم الإسلام، لوصايا الإسلام، لأحكام الإسلام، كلّما كان اتحاداً في الفهم أو تقاربٍ في الفهم، لمجموع أحكام الإسلام، أخلاقيات الإسلام، مفاهيم الإسلام، كلّما توحدت الأمة وانتظمت في مجموعةٍ كبرى متناسقةٍ ومنظومةٍ كبرى متناغمةٍ

كلّ جهودها تتلاقى من أجل إنجاح أمرها في الدنيا وفوزها في الآخرة»، وأيضاً: «لا بدّ من قيمٍ معنويةٍ، الحياة لا يمكن أن تستمرّ حتّى دنيوياً بغير قيمٍ معنويةٍ، أقدم مثلاً بسيطاً: الله عزّوجلّ أوجب الصدق وحرّم الكذب، هذه قيمةٌ من قيم الدين، وهذا حكمٌ من أحکام الله عزّوجلّ، استبدلوا هاتين القضيتين بقضيتين معاكستين، لو أحلّتْ حرمة الصدق محلّ وجوب الصدق، ووجوب الكذب محلّ حرمة الكذب، ماذا سيكون؟ الأب يكذّب ابنه، والمربي يكذّب تلميذه، الأم تكذّب ابنها، كلّ يواجه الآخر بالكذب، الطبيب، الحاكم، الحكم، مراكز السفر، مراكز التموين، الكلّ يتعامل بالكذب، ولاعطي مدة عشرة أيام أو أقلّ من هذا للتعامل بالكذب في العالم، فليتبين العالم خلق الكذب لعشرة أيام فقط، في كلّ مؤسّاته، وفي كلّ بيته، وفي كلّ مرافق وجوده، كيف ستكون الحياة؟! تأمّلوا قليلاً، ستجدونها تنتهي أو تقارب الانتهاء، الطيار حين يكذّب، أنت حين تكذّب الطيار، باع السمن حين يكذّب، باع الدواء حين يكذّب، انظروا ماذا سيكون؟! فلا بدّ من قيم، أيضاً تشابك المصالح يعدّ عاملًا من عوامل الاتحاد وبناء الأمة الواحدة، ولكنه لا يكون بقوة عامل الانفاف الفكريّ حول المحور الواحد، وعامل القيم المعنوية وإن كان له دورٌ كبيرٌ جدّاً، تشابك المصالح يدفع للاتحاد، ولمحاولة القضاء على الفتنة وسدّ بؤرها»<sup>(١٥)</sup>.

### هل أنت طائفي؟

نرى سماحته يتّجاهر بتشييعه وانتتمائه لمذهب أهل البيت علیهم السلام، موضحاً بأنّ ذلك الانتماء إنما هو عن نظرٍ وبرهانٍ، ترسّحت عنه قناعةٌ تامةٌ وإيمانٌ أكيدٌ، ونراه أيضاً يدافع عن معتقدات الشيعة، ويبيّن رؤها التوحيدية الخالصة المستندة إلى الكتاب والسنة، والمعتمدة على البراهين الساطعة والأدلة القاطعة.

يقول سماحته: «تسألني هل أنت مذهبٌ؟ أقول لك: نعم، أنا مؤمنٌ بمذهبٍ معينٍ من المذاهب الإسلامية لا غبار عليه في رأيي، وهو المذهب المتلقى عن أهل البيت عليهما السلام، وانتمائى له عن نظرٍ وبرهانٍ ترسّحت عنه قناعةً تامةً وإيمانً أكيدً، وفي الوقت نفسه لا أكفر أحداً من إخوانى المسلمين، ولا أكنّ لهم حقداً، ولا أستحلّ أن أمكر بهم لهذا المذهب أو ذاك، وتسألنى: هل أنت طائفى؟ أقول لك: إذا كان ذلك بمعنى أنّي أحبّ لطائفى الاستقامة والخير والتقدم، وأحبّ منها ولها العدل - وهو الشيء الذي أحبّه لكل المسلمين، بل ولكلّ إنسانٍ - فأننا - بهذا المعنى - طائفى، وهو معنى لا يؤخذُ عليه أحدٌ أبداً، وهو من أكبر معاني الانفتاح الإنساني الكريم، وإذا كان معنى الطائفية أن أحبّ لطائفى المدى ولغيرها الضلال، ولها الاستقامة ولها الانحراف، ولها الخير ولها الشرّ، وأن يسودها العدل وأن يعامل الغير بالظلم، فهذه طائفيةٌ أمجّها، وأكرّها، والسبب واضحٌ؛ ذلك لأنّ ديني ومذهبى يُكرّهُها لي ولكلّ منتببيه، فهي طائفيةٌ ينبعها القرآن الكريم، وسنة المعصومين عليهما السلام، وسيرتهم الوضاءة الشريفة.

نعم، أبغض الكفر والفسق والظلم والعدوان أين كان، ومن أيٌّ كان، وأؤمن بواجهته بما يُستطاع، ومن منطق حبّ الخير للإنسان كلّ إنسان؛ إذ لا خير في الكفر، والخير كله في الإيمان والهدى والاستقامة والالتزام»<sup>(١)</sup>.

ويقول أيضاً وهو يدافع عن مذهب التشيع لأهل البيت عليهما السلام: «المسلمون كلّهم موحدون، ومنهم أتباع أهل البيت عليهما السلام، وتوحيد هؤلاء الأتباع - وهم الشيعة الاثنا عشرية - نقىٌّ خالصٌ لا شوب فيه؛ ففي هذه المدرسة لا اثنينية، ولا تعدد على مستوى الذات الإلهية المتعالية، ولا تعدد في الصفات خارجاً، ولا بين الذات والصفات كذلك، ولا مثلية ولا تشبيه، ولا تجسيم ولا تعطيل، ولا جبر ولا

تفويض، وإنما هو أمرٌ بين أمرتين، والجبر مستلزمٌ للظلم، والتقويض مستلزمٌ للعزل،  
ولا محدودية من مكانٍ أو زمانٍ أو غيرهما.

وكما تقول هذه المدرسة بتوحيد الذات والصفات، تقول بالتوحيد في الفاعلية  
والخلق والتدبير والرزق، والتوحيد في التشريع، والتوحيد في العبادة والطاعة، وأن لا  
عبادة لغير الله، ولا طاعة لأحدٍ إلا بإذنه ومن أجله، وإنما ليس من حيثيةٍ من  
حيثيات التوحيد الصادق الدقيق إلا وتلزم به عقيدة هذه المدرسة التي تعتمد كتاب  
الله وسنة المعصومين عليهم السلام هادياً ودليلاً، ولا تخرج على فطرة الروح والعقل  
ومسارهما القويم، وتقرّر هذه المدرسة شرط العصمة في الرسول صلوات الله عليه وسلام وتشخصه فيه  
كما في سائر الرسل، تقرّره وتشخصه في الإمام من بعده بأدلة قاطعةٍ ساطعةٍ، وتؤمن  
قام الإيمان كسائر المسلمين باليوم الآخر وثوابته العقائد المشتركة.

وهل في هذا الإسلام من غبيٍ أو كذرٍ حتى يتبرأ منه من يُفهم من كلامه بأنَّ  
الشيعة على ملةٍ وقيمٍ - والملة الدين - وهو على ملةٍ وقيمٍ آخر؟! وأي قيمةٍ من  
قيم الإسلام وأخلاقه الكريمة لا تختضنها مدرسة التشيع الحق وتصدرّ عليها؟! وهل  
يستتبع الشيعة من مسلمٍ دماً أو عرضاً أو مالاً؟! أو يخرجون على خلقٍ من خلقٍ  
القرآن العظيم والسنة المطهرة؟! ولعله بأنّ مريدي الفتنة لن يبلغوا مأربهم إن شاء  
الله، وسيقابلهم هذا الشعب شيعةٍ وسنةٍ بوعيٍ توحيدٍ وحدويٍ يبطل سحرهم،  
وإننا لنطالب النيابة العامة بتقديم المخرج للشيعة من الإسلام حسب المستظر من  
لغة الصحافة المنسوبة إليه إلى المحاكمة لما في ذلك من تحريضٍ على الفتنة الطائفية  
والعنف والإضرار بالمواطنين الشيعة من أكثر من جانبٍ، ولما فيه من تقويضٍ  
للوحدة الوطنية وزرع روح الكراهية والعداوة الضاربة بين المواطنين»<sup>(١٧)</sup>.

فعلى الرغم من طائفته الإيجابية التي هي بمعنى أنه يجب لطائفته الاستقامة

والخير والتقدم، ويحبّ منها ولها العدل، وهو الشيء الذي يحبّه لكل المسلمين، بل ولكل إنسان، يقول سماحته: «أنا واحدٌ من هذا الشعب، ومن الطائفة الشيعية الذي يؤمن بالذهب الشيعي كل الإيان - إن شاء الله - ، وفي نفس الوقت أعادى الشيعي الذي يحاول أن يثير فتنة طائفية، وأواجه الشيعي الذي يحاول أن يثير فتنة طائفية، وأواجه الصحافة التي تحاول أن تثير فتنة طائفية، وأواجه السلطة ما استطعت إذا حاولت أن تثير الفتنة الطائفية، فلنبق أخوة مسلمين متحابين، فليضع كل منا يده في يد الآخر من أجل بناء وطن واحد متماسك يعمر بالمحبة والودة، ويسير على هدى الله، وفي طريق الله، وعلى أساس من العدل، وإن لي وصيّة واضحة للحكومة في البحرين وغير البحرين، بأن تأخذ بالعدل وتتمسك به، وتأخذ بالمساواة وتتمسك بها، من أجل إقامة بناءً وحدويًّا متينًّا سميكًّا قويًّا فولاذيًّا يقف أمام كل الأعاصير»<sup>(١٨)</sup>.

ويقول سماحته أيضاً: «ومن ناحية سياسية، ومن منطلق مذهبي، أجدهي مع حكومة سنية في سيرتها المنصفة للشيعة والستة على السواء، ولست مع حكومة شيعية في سيرتها المجحفة بحقّ أهل السنة، إذا وجدت الأولى فساكون معها في سيرتها العادلة، وإذا وجدت الثانية فساكون ضدّها في سيرتها الباغية، ومن ناحية المرشحين أنا مع مرشح سني يقف مع حقوق الشعب على مرشح شيعي يقف ضدّها، هذا صدق، وأنا مستعد أن أبرهن عليه في أي امتحان في مورده، وأنا أستقي ذلك من وحي مذهبي»<sup>(١٩)</sup>.

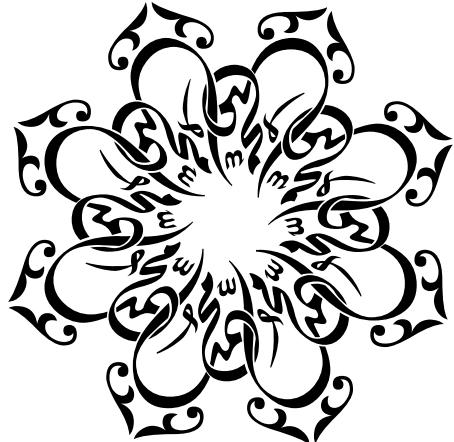
ويختتم سماحته باستنكار الجرائم الطائفية، والمطالبة بإنكارها من أيّ مذهب إذا كان مرتكبها من أبنائه قبل أهل المذهب الآخر، وأوصى باحترام الآخر، وبأن تكون الكلمات محسوبة، والطرح معتدلاً، والمشاعر منضبطة.

يقول سماحته: «والصحيح أن ثدان هذه الجرائم النكراء من أهل أي مذهبٍ إذا كان مرتكبها من أبنائه قبل أهل المذهب الآخر، إذا كان مرتكب جريمةٍ من هذا النوع شيعياً فعلى الشيعة أن يكونوا هم المبادرين لإدانة هذا الجرم حتى لا يُحمل رد الفعل على الطائفية، وإذا كان الجرم سنّياً كان على الإخوة السنة أن يكونوا هم المبادرين في الإنكار، وأن يقفوا في وجه الجرم وقفه حقيقةً جادةً؛ لأن رد الفعل الشيعي ربما حمل على الطائفية، ومن أراد الاحتراس لبلده من فتنة الطائفية أو غيرها فلتكن كلماته محسوبةً وطرحه معتدلاً، ومشاعره منضبطةً، آخذًا على نفسه احترام الآخر قبل اشتعال نار الفتنة، فرب كلمة أشعلت ناراً لا تنطفئ إلا بعد أكوان من الكوارث المهولة، ورب خبر كاذبٍ معرضٍ ودعایةٍ سيئةٍ في هذا الباب أشعلت نار حربٍ ببلدٍ فأحرقته»<sup>(٢٠)</sup>.  
والحمد لله أولاً وآخرأ.

### المواهش:

- (١) السنة والشيعة ضجة مفتعلة، فتحي الشقافي، ص ٧١، ملحق رقم ١.
- (٢) المصدر السابق، ص ٧٢، ملحق، رقم ٢.
- (٣) المصدر السابق، ص ٧٣، ملحق رقم ٣.
- (٤) خطبة الجمعة (١٥٠)، ٢٦ صفر ١٤٢٥ هـ، الموافق ١٦ أبريل ٢٠٠٤ م.
- (٥) خطبة الجمعة (٦٧)، بتاريخ ١ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ، الموافق ١٢ يوليو ٢٠٠٢ م.
- (٦) خطبة الجمعة (٢٤٦)، ١٢ جمادى الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٩ يونيو ٢٠٠٦ م.
- (٧) خطبة الجمعة (٢٧٤)، ١٢ صفر ١٤٢٨ هـ ، ٢ مارس ٢٠٠٧ م.
- (٨) خطبة الجمعة (١٧)، بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١-٧-٢٧ م.
- (٩) خطبة الجمعة (١٧)، بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١-٧-٢٧ م.
- (١٠) خطبة الجمعة (١٧)، بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١-٧-٢٧ م.

- (١١) خطبة الجمعة (١٧)، بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، الموافق ٢٠٠١-٧-٢٧م.
- (١٢) خطبة الجمعة (٢٠١)، ١٨ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ، ٢٧ مايو ٢٠٠٥م.
- (١٣) خطبة الجمعة (١٩٤)، ٢٨ صفر ١٤٢٦هـ، ٨ أبريل ٢٠٠٥م.
- (١٤) خطبة الجمعة (١٩٦)، ١٣ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٢ أبريل ٢٠٠٥م.
- (١٥) خطبة الجمعة (١٧)، بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، الموافق ٢٠٠١-٧-٢٧م.
- (١٦) خطبة الجمعة رقم (٢٦٠)، ٢ ذي القعدة ١٤٢٧هـ، ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٦م.
- (١٧) خطبة الجمعة (٧٠)، ٢٢ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ، الموافق ٢٠٠٢-٨-٣م.
- (١٨) خطبة الجمعة (١٧)، بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، الموافق ٢٠٠١-٧-٢٧م.
- (١٩) خطبة الجمعة رقم (٢٦٠)، ٢ ذي القعدة ١٤٢٧هـ، ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٦م.
- (٢٠) خطبة الجمعة (١٩٦)، ١٣ ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ٢٢ أبريل ٢٠٠٥م.



## حرمة نكاح أبي المريض في أولاد المريضة وصاحب اللبن

علي فاضل الصددي

المعروف حرمة نكاحه فيهم في الجملة لا لأنّ قاعدة: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» تقتضي ذلك؛ فإنّ أقصى ما تقتضيه هو أنّ العنوان النسبيّ المقتضي للتحريم بذاته إذا اتفق من جهة الرضاع فإنه يكون موضوعاً للحرمة، وما نحن فيه ليس كذلك، فإنّ بنات المرضعة أو الفحل ما هنّ إلا أخوات المريض؛ وإنما تحرم أخوات المريض على أبيه لو كنّ بناته أو ربائب له قد دخل بأمهنّ، وهذا الأمران لم يحصل بالرضاع ليكون مقتضى القاعدة حرمتها، بل العدمة هي النصوص الخاصة التي نزلت بنات المرضعة وصاحب اللبن منزلة الولد لأبي المريض، فهي تتضمن ما يكتننا تسميتها «تعظيم التنزيل»، لا عموم المنزلة بالمعنى المصطلح.  
فلا بدّ من إيراد تلکم النصوص ابتداءً، وهي ثلات روایاتٍ صحاح السند وواضحات الدلالة على الحرمة:

أولاًها: صحيحة عليّ بن مهزيار: قال: سأل عيسى بن جعفر بن عيسى أبا جعفر الثاني عليه السلام: أنّ امرأةً أرّضعتْ لي صبيًّا، فهل يحلّ لي أن أتزوج ابنة زوجها؟ فقال لي: ما أجود ما سألت، من هنا يؤتني أن يقول الناس: حرّمت عليه امرأته من قبل لبن الفحل هذا هو لبن الفحل لا غيره، فقلت له: الجارية ليست ابنة المرأة التي أرّضعتْ لي، هي ابنة غيرها، فقال: لو كنّ عشرًا متفرّقاتٍ ما حلّ لك شيءٌ منها

وكن في موضع بناتك<sup>(١)</sup>.

ثانيها: صحيحه أَيُوب بن نوح: قال: كتب على بن شعيب إلى أبي الحسن عليهما السلام:  
امرأة أرضعت بعض ولدي، هل يجوز لي أن أتزوج بعض ولدها؟ فكتب عليهما السلام: لا  
يجوز ذلك لك؛ لأن ولدتها صارت بمنزلة ولدك<sup>(٢)</sup>.

ثالثها: صحيحه عبد الله بن جعفر: قال: كتبت إلى أبي محمد عليهما السلام: امرأة أرضعت  
ولد الرجل، هل يحل لذلك الرجل أن يتزوج ابنة هذه المرضعة أم لا؟ فوقع: لا تحل  
لله<sup>(٣)</sup>.

وقد وقع البحث في هذه الروايات من عدة جهاتٍ:

#### المناقشة الأولى: في استفادة الحرمة وعدمه:

فقد نوقش في استفادة حرمة نكاح أبي المرتضى في فروع المرضعة والفشل بعده  
مناقشات:

الأولى: استغراب عدم ورود أي سؤال عن حكم هذا النكاح من قبل الرواة قبل  
زمن الإمام الرضا عليهما السلام رغم كثرة الروايات في باب الرضاع عن الإمام الصادق عليهما السلام،  
رغم كثرة الابتلاء به<sup>(٤)</sup>.

وعليه فالحكم بحرمة هذا النكاح مستبعدٌ، وهذه المناقشة سائلة، ومن مواردها  
مسألة نجاسة الناصب، ومسألة نجاسة عرق الجنب من الحرام<sup>(٥)</sup>.

وقد أُجيب عن هذا الاستبعاد نقضاً وحلاً، أما النقض فيثبتون الخمس في أرباح  
المتاجر والمكاسب، مع أنه لم يرد إلا عن الإمام الكاظم عليهما السلام فمن بعده، مع كثرة  
الابتلاء به في أزمنة الأئمة السابقين عليهما السلام.

وأما الجواب بالحل فبأمررين:

أولاً: بأنّ أسئلة الرواية كانت - على الأكثـر - تعبرـاً عن الحاجات التي يواجهـونـها

مباشرةً، ومن الجائز عدم ابتلاء رواة زمن الصادق عليه السلام - فعلاً - بهذه المسألة، فعدم السؤال لعدم مقتضيه لا يعند الحكم بالحرمة.

وثانياً: بأنه قد ورد في عدة روایات التفویض بتبلیغ بعض الأحكام للتأخرین من الأئمّة لصلاحة عامة في التأخیر، فيبلغونه بوجبه في حينها<sup>(۶)</sup>، فيكون هذا الحكم مما فوّض أمر تبليغه إلى المتأخر منهم عليهما السلام، على أنّ نکاح أب المرتضى في بنات المرضعة أو صاحب اللبن لم يثبت شیاعه بنحوٍ يعده من المستهجن عدم التعرُّض له، ولعله صدرت نصوصٍ فيه لم تصل إلينا.

### المناقشة الثانية:

إنّ قول النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» - قاعدة عامة في باب الرضاع، ولذا كان الأئمّة عليهما السلام يقولون فيما يروى عنهم من تفصيات: «فذلك الذي قال رسول الله ﷺ...»، (... ذلك رضاع ليس بالرضاع الذي قال رسول الله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»)<sup>(۷)</sup>، فإذا كان الأساس الذي تدور حوله مسائل الرضاع هو هذه القاعدة، فلا بدّ للروايات أن تكون بأجمعها منسجمة مع هذه القاعدة في الموارد التي يكون المراد منها بيان الشرط والضوابط، وقد رکزت هذه القاعدة على أنه لا بدّ أن تكون العلاقة التي يحدثها الرضاع مشابهةً للعلاقة النسبية الحرمة، حتى يحرم بالرضاع ما يحرم بالنسب، فإذا لم تكن العلاقة مشابهةً للعلاقة النسبية فإنّ الرضاع حينئذ لا ينشر الحرمة<sup>(۸)</sup>، ويتجه عليه:

أولاً: أنّ غاية مفاد قاعدة «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» هو أنّ ما يحرم من النسب يحرم من الرضاع، لا أنّ ما يحرم من الرضاع خصوص ما يحرم من النسب، أو فقل إنّها في مقام بيان تنزيل الرضاع منزلة النسب في الحرمة، لا في مقام

تحديد ما يحرم من الرضاع كي ينعقد له ظهور مفهوم، وعلى فرض المحرر فهو حصرٌ إضافيٌّ لا يزيد على قوله ﷺ: «لا يضر الصائم ما صنع إذا اجتنب أربع خصالٍ، ثم خرجنا عنه بأدلة المفترات الأخرى، ونحو: ﴿لَا تَكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ مع أننا رفعنا اليد عن المحرر بما دلَّ على الشرائط الأخرى، وكذا ﴿لَا يُحِبِّ اللَّهُ الْجَهْرُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ ثمَّ أخذ باستثناءات أخرى.

وثانياً: إنَّ الذِّي ينفع لنفي حرمة النكاح فيما نحن فيه من مسألة – لو انطلاقنا مما كان يقوله الأئمَّةُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَلَّمَ فيما يُروى عنهم من تفصيات – إنَّما هو نفيهم لانطباق القاعدة على المورد الذِّي سُئلوا عنه، من قبيل: «... ذلك رضاع ليس بالرضاع الذي قال رسول الله ﷺ...»، وهو الذِّي لم يردُ إلَّا في صحيحه بريد العجمي<sup>(٩)</sup>، وأمَّا ما اشتمل على التطبيق الإيجابي للقاعدة، نحو: «فذلك الذي قال رسول الله ﷺ»، فإنه وإن ورد في روایات عديدة<sup>(١٠)</sup>، إلا إنَّما يجدي لنفي الحرمة في غير منطبق القاعدة مع عدم الدليل **الخاص** على الحرمة، لا مع الدليل حال قصور القاعدة عن إفادته المحرر.

وثالثاً: وهو ما لفت إليه أحد الأساتذة (سلَّمَهُ اللَّهُ) <sup>(١١)</sup> – إنَّ ظاهر صحيحه على بن مهزيار النظر إلى الرواية الكبروية الواردة عن النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، ومقتضى النظر المذكور هو الحكومة على الرواية على نحو التوسيعة؛ وذلك لأنَّ ظاهر قوله ﷺ: «هذا هو لبن الفحل» تنبية السائل على أنَّ مناط الحرمة في الرضاع ليس هو حدوث العلاقة النسبية، وإنَّ المناط هو اشتراك المطلوب زواجهما مع المرتضى في لبن الفحل أو في العود إلى فحلٍ واحدٍ، وأنَّ النبي ﷺ إنَّما قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»؛ لأنَّه تطبيقُ لهذا المناط،

وهو الرجوع إلى فحلٍ واحدٍ، وهذا هو معنى الحكومة والنظر.

#### المناقشة الثالثة:

إنّ التعليل الوارد في ذيل هذه الصحاح غير واقعيٌ، بمعنى أنه غير جارٍ على طبق القاعدة؛ لأنّ العلاقة لو كانت ممّا توجب الحرمة بحسب انتظام القاعدة على المورد، لما كان هناك حاجةً إلى التعليل، وعندئذ يكون هذا التعليل بثابة قرينةٍ على عدم إرادة التحرير، فإنّ بنات المرضعة والفحل ليسوا بنات - ولو بالرضاع - لأبي المرضع، فتنزيلها منزلة بناته ليكون ذلك لتأكيد القول بالحرمة - بعيدٌ<sup>(١٢)</sup>.

ويُلاحظ عليه:

أولاً: إنّ مقتضى أصلة المجد كون التعليل مرادًا جدًّا ما لم تقم قرينةٌ عرفيةٌ على خلافه.

وثانياً: إنّ هذا التعليل ليًّا تنزيلٌ، فكأنه قال: «بنت مرضعة ولدك - مثلاً - بنتك»، ومن طبع التنزيل ألا يكون المنزل فرداً حقيقةً للمنزل عليه، وإلا لما عاد تنزيلاً، فمثل قضية «الطواف بالبيت صلاة» تعطي أنّ الطواف حقيقةً يُغاير حقيقة الصلاة، وليس فرداً لها إلا أنه نزل منزلتها ادعاءً، ومن الواضح أنّ التعليل يعطي أنّ المورد أحد صغريات الكبرى في التعليل، وما نحن فيه ليس كذلك.

#### المناقشة الرابعة:

إنّ التعليل بـ«وكنّ في موضع بناتك» في صحيحه ابن مهزيار، وبـ«لأنّ ولدتها صارت منزلة ولدك» في صحيحه ابن نوح - كاشفُ عن أنّ الحرمة إنما هي بسبب حصول علقة بين أبي المرضع وبين أولاد صاحب اللبن والمرضعة، وليس للحرمة ملاكٌ سوى ما ذُكر، فيجب تعميم الحكم إلى موارد لا يتلزم المشهور فيها بالحرمة،

وحيث لم يكن التعليل مطّرداً فيحمل النهي في هذه الروايات على الكراهة الشديدة مع تعميمها إلى هذه الموارد<sup>(١٣)</sup>.

ثم ساق صاحب المناقشة جملة موارد وهي:

أ- نكاح أم المرضع في أولاد الفحل والمرضة.

ب- نكاح أولاد أبي المرضع الذين لم يرتصعوا من هذا اللبن في أولاد المرضعة وصاحب اللبن.

ج- نكاح أبي المرضع في أخوات الفحل.

د- نكاحه لأم المرضعة.

هـ- نكاح الفحل في أخوات المرضع.

وذلك لأنّ مقتضى صيوراة أولاد الفحل والمرضة أولاداً لأبي المرضع أن تكون أم المرضع في (أ) أمّاً لأولاد الفحل والمرضة، وأن يكون أولاد المرضع في (ب) أخوةً لأولاد المرضعة والفحل، وأن تكون أخوات الفحل في (ج) عمّات لأولاد أبي المرضع فلا ينکح فيهنّ، وأن تكون أم المرضعة في (د) أم زوجته، وأن تكون أخوات المرضع في (هـ) بنات الفحل.

و- نكاح الفحل لأم المرضع، لحرمة ذلك في النسب فيحرم مثله في النكاح، فإنّ المرضع إذا صار ولداً تصير أمّه زوجة الفحل، وأمّها أم زوجته.

ز- نكاح أخوة لقوم في أخوات بنت لقوم آخرين قد ارتصعا من امرأة واحدة؛ لأنّ الاشتراك في الرضاع يعقد الأخوة بين المرضعين وبين من كان في طبقتها من الأخوة والأخوات.

ويلاحظ على هذه المناقشة بطولها حلاً ونقضاً، أمّا الحلّ فبأنّ تنزيل أولاد المرضعة والفحل منزلة الأولاد لأبي المرضع لا يستلزم أصلاً أن تنزل أم المرضع

في (أ) - مثلاً - منزلة الأم لأولاد الفحل والمرضة، وهكذا الحال بالنسبة إلى البقية؛ إذ لا مانع من التفكير بين المتلازمين في التنزيل التعبدِي، ويقتصر على مقدار دلالة الدليل، والتعدّي عنه لا يكون إلا قياساً باطلًا.

وأمّا النقض فيما هو مورد التسالم من عدم التزامهم بلوازم التنزيل بإطلاقها في «يحرّم من الرضاع ما يحرّم من النسب»، فلو أرضعت الجدة أمّ الأم ولد ابنتها فأصبحت أمّ الأخ بالنسبة لإخوانه من طرف الأم، فهل يلتزم بحرمة جدته على إخوانه من طرف الأم؛ لأنّ أمّ الأخ إما أمّ أو زوجة أمّ، وكلّاهما محظوظ.

وكذلك لو أرضعته خالتها أخت أمّه فهل تحرّم على إخوانه من طرف الأم؟ وأمثال ذلك، مع أنّ عموم التنزيل هو ما أفاد، كما أنّ عدم عمل المشهور بعموم التعليل لا يوجب رفع اليد عنه إذا كان تعليلاً، ولو فرضنا قيام التسالم على عدم العموم فلا يوجب ذلك الحمل على الكراهة؛ فإنه غير صناعيٌّ؛ إذ أنّ عدم العمل ليس قرينةً عرفيّةً على الكراهة، بل يقتصر على القدر المتيقن منه.

والتحصّل - بعد دفع المناقشات الأربع - هو قافية الاستدلال بالصالح على حرمة نكاح أبي المرتضى في أولاد الفحل والمرضة، ثم إنّه كما يحرّم الرضاع السابق على النكاح، كذلك يبطل النكاح السابق للرضاع، كما لو أرضعت أمّ الزوجة ولد هذه البنت، فتعود الزوجة بنتاً لأبي المرتضى فتحرم، كما دلّت عليه صحيحة ابن مهزيyar.

#### النقطة الثانية: نظر الشيخ الأعظم قدّس في الموردين (أ) و(ب):

قد عرفت مما تقدّم أنّ المشهور لم يلتزم بالحرمة في جميع الموارد المتقدّمة، بما فيها

الوردان (أ) و(ب)، ولما كان للشيخ الأعظم رحمه الله نظرٌ خاصٌ فيهما يُخالف نظر المشهور، فالبحث فعلاً فيهما في مطلبين:

**الأول:** قوَّى الشيخ رحمه الله - أولاً - حرمة أم المرضع على فروع المرضعة والفالح؛ وذلك لأنَّ كون بناهما بمنزلة الولد لأبي المرضع يستلزم كون بنيهما بمنزلة الولد لأم المرضع؛ إذ أنَّ المنشأ لبنيهما لأبي المرضع - وهو أخوة البنات للمرضع - مشتركٌ بين أبي المرضع وأمه <sup>(١٤)</sup>.

ولكنك قد عرفت الخدشة فيه مما تقدَّم في مناقشة رابعة المناقشات في النقطة الأولى.

نعم اختار أحد الأعلام قيئلاً ما اختاره الشيخ الأعظم من القول بالحرمة، موجهاً بذلك بأنَّ مقتضى عموم التنزيل في صحِّيحة أبي مهزيار ونوح حرمة زوجة أبي المرضع - سواءً أكانت أمًا للمرضع أم لا - على أولاد صاحب اللبن أو المرضعة، لأنَّها حليلة أبيهم التنزيلي، فتشملها الآية المتضمنة لحرمة نساء الآباء على أولادهم، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّسَاء﴾ <sup>(١٥)</sup>. وأضاف بأنه تظهر الثمرة بين ما أفاده الشيخ الأعظم رحمه الله وبين ما قلناه في أم المرضع، فإنَّها على قول الشيخ رحمه الله تحرم عليهم لأنَّها جدُّهم، وعلى ما قلناه لا تحرم لعدم حرمة أم حليلة الأب ما لم تكن جدة <sup>(١٦)</sup>.

ويتوجَّه عليه أنه ليس ظاهراً في التعليل، بل الظاهر أنه تنزيل في صورة تعليل كما تقدَّم - ، ومعه فيقتصر على مورد التنزيل، والتعمدي إلى غيره قياس لا نقول به.

**المطلب الثاني:** قوَّى الشيخ الأعظم قيئلاً حرمة حواشي المرضع نسباً على فروع المرضعة والفالح نسباً؛ وذلك لأنَّ فروعهما إذا صاروا بمنزلة ولد أبويه المرضع فقد

صاروا أخوةً لأولادهما، الذين هم حواشي المرضع، فإنَّ الأخوةَ التي نيطت بها الحرمة في آية المحرمات ليس مفهومها العرفيُّ بل الحقيقِيُّ إلا كون الشخصين ولداً واحداً، فكونهم أولاداً لأبيه أو لأمه عين كونهم أخوةً له، لا أنه عنوان آخر ملازم له.

وبعبارة واضحةٍ: إذا ثبتتْ أبوةُ الرجل لشخصٍ وأمومةُ المرأة له – ثبتتْ أخوةُ أولادهما له، فيحرمون عليه من هذه الجهة<sup>(١٨)</sup>. وقد أورد عليه<sup>(١٩)</sup>:

**أولاً:** بأنَّ الأخوةَ إضافةٌ بين الولدين، والولديَّة إضافة الأب والولد، فالأخوةُ قرابةٌ خاصةٌ مغايرةٌ للولديَّة ناشئة عنها لا أنها عينها.

**وثانياً:** بأنَّ الظاهر من صحيحي ابنيٍ مهزيار ونوحٍ كون التنزيل بلحاظ حرمة تزويج أبي المرضع في فروع المرضعة والفحل لا بلحاظ جميع الآثار التي منها حرمة بعضهم على بعض. انتهى.

والإيراد الأول - وإن قيل عنه بأنه مما يأبه الفهم العرفي<sup>(٢٠)</sup> – إلا أنه تامٌ؛ فإنَّ منشأ الأخوة لا ينحصر في الولديَّة، كما أنَّ ثاني الإيرادين واضحٌ ومتجهٌ، وقد عرفت النظر فيما أفيد من أنَّ حرمة حواشي المرضع على فروع المرضعة والفحل هو مقتضى تعلييل التنزيل في الصحيحتين.

**النقطة الثالثة: في جواز نظر أبي المرضع إلى فروع الفحل والمرضعة:**

فالذى لا مرية فيه ولا خلاف هو جواز النظر بلا تلذذٍ أو ريبةٍ إلى غير العورة من المحaram التي يحرم نكاحهن نسباً أو رضاعاً أو مصاهرةً.

والوجه في جواز النظر إلى المحرم الرضاعية ما دلّ على أنّ ما يحرم بالنسبة يحرم بالرضاع، فكلّ ما يجوز النظر إليه من المحرم النسبيّة يجوز النظر إليه من المحرم الرضاعيّة، وقد استهلّ السيد صدر الدين الصدر تبليغه منظومته الرضاعيّة بهذا البيت:

إن أحرز الرضاع شرطه نشر تحرير تزويج وتحليل نظر<sup>(٢١)</sup>

ثمّ إنّه قد ذهب بعض الأعلام<sup>رحمهم الله</sup> إلى اختصاص هذا الحكم بالمرضة وصاحب اللبن والأصول والفروع والحواشي لهما، ولا يشمل أب المرضع؛ لقصور حديث «يحرم من الرضاع ما يحرم بالنسبة» عن تناوله، باعتبار أنّ التنزيل إنّما هو بالنسبة إلى المرضع وكلّ من المرضة وصاحب اللبن، دون أبي المرضع؛ وذلك لأنّ ثبوت حرمة نكاحه لأولاد المرضة أو صاحب اللبن إنّما كان هو بالطبع، ولا يقتضي ذلك الخروج عن حرمة النظر وعموم وجوب الستر<sup>(٢٢)</sup>.

وأشكّل عليه أحد الأعلام تبليغه بأنّه إنّما يمكن أن يُقال بأنّ حرمة نكاح أب المرضع في أولاد صاحب اللبن وأولاد المرضة حكمٌ تعبدِيٌّ صرفٌ، فيما لو لم تكن الرواية الدالة عليها معللةً، أمّا لو كان الحكم معللاً - كما هو الحال بالنسبة إلى ما نحن فيه - بـ«أنّ ولدتها صارت بمنزلة ولده» فلا مجال لما ذكر؛ إذ أنّ التعليل يقتضي شمول أب المرضع بالتنزيل أيضاً<sup>(٢٣)</sup>.

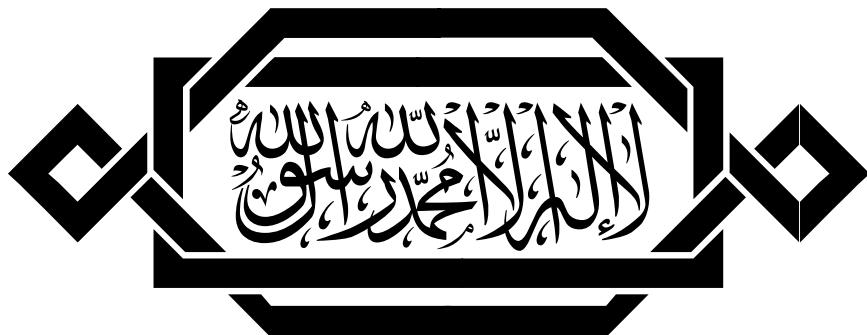
ويُلاحظ عليه بأنّ التعبير بمثل «إنّ ولدتها صارت بمنزلة ولده» ليس تعليلاً، بل هو تنزيلٌ - كما مرّ - فيقتصر فيه على حيثيّة حرمة النكاح، وأمّا حيثيّة جواز النظر وحرمتها فالمرجع فيها عمومات حرمة النظر ولزوم الستر، وأمّاأخذ عنوان (البنوة) في النصوص دون غيره من العناوين الحرّمة؛ لكونه أكثر مناسبةً عرفاً من بقية العناوين فيما نحن فيه من محرميّة بنات المرضة والفحول على أبي المرضع، فلا

ملازمة عرفاً أصلاً بين هذا العنوان وبين جواز النظر. فالنتيجة هي حرمة نظر أبي المرتضى إلى بنات المرضعة والفالح، ولزوم تسترهن منه عليهن.  
والحمد لله أولاً وآخرأ، وصلى الله على محمد وسلم.

### المواهش:

- (١) الوسائل، ٢٠: ٣٩١، ب٦ من أبواب ما يحرم بالرضاع، ح١٠.
- (٢) الوسائل، ٢٠: ٤٠٤، ب١٦ من أبواب ما يحرم بالرضاع، ح١.
- (٣) الوسائل، ٢٠: ٤٠٤، ب١٦ من أبواب ما يحرم بالرضاع، ح٢.
- (٤) رسالة في الرضاع، تقرير لأبحاث السيد فضل الله ص١١٩.
- (٥) لاحظ بحوث في سرخ العروة الوثقى للشهيد الصدر، ج٤ / ٨-٧.
- (٦) ومن روایات التفویض المشار إليها معتبرة فضیل بن یسار: سمعت أبا عبد الله علیه السلام يقول - في حدیث - إنَّ اللَّهَ يُرِكِّبُ فِرْضَ الصَّلَاةِ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ عَشَرَ رَكْعَاتٍ، فَأَصَافَ رَسُولُ اللَّهِ علیه السلام إِلَى الرَّكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، إِلَى الْمَغْرِبِ رَكْعَةً، فَصَارَتْ عَدِيلَ الْفَرِيضَةِ، لَا يَجُوزُ تَرْكُهُنَّ إِلَّا فِي سَفَرٍ، وَأَفْرَدَ الرَّكْعَةَ فِي الْمَغْرِبِ، فَتَرَكَهَا قَائِمَةً فِي السَّفَرِ وَالْمَحْضِ، فَأَجَازَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَصَارَتْ الْفَرِيضَةُ سَبْعَ عَشَرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ علیه السلام النَّوَافِلَ أَرْبِعًا وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً مُثْلِي الْفَرِيضَةِ، فَأَجَازَ اللَّهُ علیه السلام لَهُ ذَلِكَ، وَالْفَرِيضَةُ وَالنَّافِلَةُ إِحْدَى وَخَمْسِينَ رَكْعَةً، مِنْهَا رَكْعَتَانِ بَعْدِ الْعُتْمَةِ جَالِسًا تَعَدُّ بِرَكْعَةٍ مَكَانَ الْوَتْرِ - إِلَى أَنْ قَالَ: - وَلَمْ يَرْخُصْ رَسُولُ اللَّهِ علیه السلام لِأَحَدٍ تَقْصِيرُ الرَّكْعَتَيْنِ الَّتِيْنِ ضَمَّهُمَا إِلَى مَا فِرْضَ اللَّهَ علیه السلام، بَلْ أَلْزَمَهُمْ ذَلِكَ إِلَزَامًا وَاجِبًا، وَلَمْ يَرْخُصْ لِأَحَدٍ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمَسَافِرِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَرْخُصْ مَا لَمْ يَرْخُصْ رَسُولُ اللَّهِ علیه السلام، فَوَافَقَ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ أَمْرَ اللَّهِ، وَنَهَى نَهْيَ اللَّهِ، وَوَجَبَ عَلَى الْعِبَادِ التَّسْلِيمُ لِهِ كَالْتَسْلِيمِ لِلَّهِ. الوسائل، ٤: ٤٥  
ب١٣ من أبواب أعداد الفرائض ح٢.
- ومنها روایة محمد بن الحسن المیشمی. الوسائل، ٢٧: ١١٣ ب٩ من أبواب صفات الراوي ح٢١.
- (٧) الوسائل، ٢٠: ٣٨٨ ب٦ من أبواب ما يحرم بالرضاع، ح١.
- (٨) رسالة في الرضاع، تقرير لأبحاث السيد فضل الله ص١١٩.
- (٩) جامع أحاديث الشيعة ٢٠ : ٣٩٨ ب٤ من أبواب أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، ح١.
- (١٠) جامع أحاديث الشيعة ٢٠ : ٣٩٨ - ٤٠٠، ب٤ من أبواب أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، ح٥، ٤، ١، ٢.

- (١١) سماحة العالمة السيد منير الخباز (سَلَّمَهُ اللَّهُ).  
 (١٢) رسالة في الرضاع، تقرير لأبحاث السيد فضل الله ص ١١٩-١٢٠.  
 (١٣) قاعدة يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، تقرير لأبحاث الشيخ السبحاني ص ٢١٠-٢١٢.  
 (١٤) كتاب النكاح للشيخ الأعظم، ص ٣٤٢، م ١٠، وص ٣٥١.  
 (١٥) سورة النساء، الآية: ٢٢.  
 (١٦) أحكام الرضاع في فقه الشيعة، تقرير بحث الإمام الخوئي، ص ٤٠.  
 (١٧) المصدر، ص ٤١.  
 (١٨) كتاب النكاح، ص ٣٤٣-٣٤٥، م ١٢، وص ٣٥٢.  
 (١٩) فقه الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ، ٢١ : ٤٠٤، ٤١٠.  
 (٢٠) أحكام الرضاع في فقه الشيعة، تقرير بحث الإمام الخوئي، ص ٤٠.  
 (٢١) الرسالة الرضاعية وشرحها، السيد صدر الدين الصدر قَدِيرٌ.  
 (٢٢) مستمسك العروة الوثقى ١٤ : ٣٣-٣٤، بتوسيع من مبني العروة الوثقى (النكاح ١) = (موسوعة الإمام الخوئي ٣٢: ٥٣).  
 (٢٣) مبني العروة الوثقى (النكاح ١) = (موسوعة الإمام الخوئي ٣٢: ٥٣).



## وقفة مصادقة مع عابد الهوى

جعفر سلمان آل طوق

لماذا هذا الموضوع؟

كثير كل إنسان في هذا الوجود يسعى نحو تحصيل كماله، وهذا الأمر مما يقتضيه الوجдан قبل البرهان، فلسنا هنا بحاجة لإثبات هذه الحقيقة، لكن المشكلة كل المشكلة تكمن في خطأ التشخيص والاختيار، فكم من شخص يعتقد أن كماله في المال، فتراه يقدم كل ما عنده لأجله، وآخر يرى الشهوة والجنس هو هدف الوجود، فلا يكون مرتاحاً إلا في ظرف ممارسته لهذه الشهوات، وهكذا آخرون يرون المقام والجاه الدنيوي هو الكمال الذي ليس فوقه كمال، وأمام كل هذا يبقى الإنسان متفكراً في ما هو الكمال الواقعي الذي ينبغي للإنسان أن يتحرك إليه، ومن هنا لا بد من تحديد هذا الكمال؛ حتى لا يتفاجأ الإنسان في آخر حياته بأنه أخطأ الطريق، فمن سار على غير المعرفة لم تزده سرعة المشي إلا بعده.

وانطلاقاً من ذلك نرى عدة محاولاتٍ من التيارات الدينية وغير الدينية في تحديد كمال الإنسان، واعتقاداً منا - حسب ما ثبت في محله - أن المعرفة الإسلامية هي معارف واقعية مطابقة للواقع، وليس الذي يطرحه الآخرون من أفكار تعارض الفكر الإسلامي إلا وهم خيال، وبالتالي لا بد من صب المجهد للبحث عن الإجابة في ضمن الآيات والروايات الصادرة من أصحاب الحق والحقيقة، مستهددين بالعقل السليم، فنقول: بمقتضى حكمة الله لا يمكن أن يصدر منه فعل بلا غاية ولا هدف

- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - ، ولما كان الإنسان هو أحد مخلوقات الله - بل أشرفها على الإمكان - فلا يصح أن يكون مخلوقًا بلا غاية وهدف، فهذا القرآن الكريم ينبه على هذه الحقيقة في آيات عدة، فيقول تارة: ﴿أَقْحَسْبِتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ \* أُولَئِكَ مَا وَاهَمُوا النُّورُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وغيرها الكثير من الآيات بهذا المضمون، وعند التأمل في تلك الآيات نرى أنها تصرّح بأنّ لقاء الله هو الغاية لوجود الإنسان، لا كما يتوهّم أصحاب التيارات الأخرى من أنّ المال أو الجاه أو الشهوة هي الغاية، فتحصل من كلّ ما ذكرنا أنّ غاية وجود الإنسان هو لقاء الله، ولكنّ الأمر لا يقف إلى هنا، فيعود الذهن متأملاً متسائلاً قائلًا: عرفنا أنّ لقاء الله هو الغاية، ولكنّ الأهم بعد هذه المعرفة: كيف يمكننا تحقيق هذا الهدف؟ وما هو الطريق اللازم اتباعه للوصول إلى تلك النقطة؟ وهذا هو القرآن مرةً أخرى يعود للإجابة عن هذا السؤال، فليس من الوجيه عقلاً ولا عقلائياً أن يطرح القرآن الغاية من الوجود ثم لا يحدد الطريق لها، فليس هذا إلا نقضٌ للغرض، وعندما نرجع إلى الآيات يطالعنا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُعِظِّمُكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>، فهي صريحة أنّ الطريق الموصى إلى الغاية (لقاء الله) هو اتباعه، وهذا أيضاً مفاد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدِحًا فَمَلَأْتِهِ﴾<sup>(٤)</sup>.

وإذا اتضحت ذلك نقول: لا بد للعاقل السالك إلى الغاية أن يزيل الموانع التي تحول بينه وبينها، ومن أكبر الموانع في المقام هو اتباع الهوى؛ فهو الموجب لسقوط الإنسان وخسارته في هذه الدنيا، كيف لا يكون ذلك وهو يشكل أكبر مانع عن غاية

الوجود، وبالجملة يمكننا تلخيص ما ذكرناه في هذه النقاط:

- إنَّ اللهُ حكيمٌ، والحكيم لا يكون عابثاً، فلا بدَّ أن يكون لخلقِه غاية.
- الإنسان أكبر مخلوقات الله، وغاية وجوده لقاء الله.
- لقاء الله يتحقق عن طريق اتباع أوامره.
- أكبر مانع من تحقيق غاية الوجود هو اتباع الهوى.

فبملاحظة هذه النقاط تتضح خطورة اتباع الشهوات جلياً، ونفهم قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ أَخْوَافَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَانِ، اتَّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمْلِ»<sup>(٥)</sup>، فـأَيِّ شَيْءٍ هُوَ الَّذِي يَعْتَبِرُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَمَّةِ سَلْمِ الْمَخَاوِفِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؟! فَعَلَيْنَا أَنْ نَقْفِ مَتَّمِلِينَ جَدًا فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَنَدْرَكَ مَدِيَّ خَطُورَةِ اتَّبَاعِ الْهَوَى حَتَّى جَعَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْطَرَ الْمَخَاطِرِ عَلَى الْأُمَّةِ، لَعَلَّهُ انْكَشَفُ لِكَ أَيُّهَا الْقَارِئُ شَيْءٌ مِّنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، حِيثُ أَثْبَتَنَا أَنَّ اتَّبَاعَ الْهَوَى هُوَ الْمَانِعُ عَنِ تَحْقِيقِ غَايَةِ الْوِجُودِ، وَنَخَوَلُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ نَكْشِفَ الْقَنَاعَ أَكْثَرَ عَنِ تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْمُسَأَّلَةِ مُعْتَمِدِينَ عَلَى الْآيَاتِ وَالرِّوَايَاتِ الْمُعْصُومَيَّةِ، مُحاوِلِينَ مُحاكَاةَ الْفَطَرَةِ وَالْوِجْدَانِ، مُبَتَعِدِينَ شَيْئاً مَا عَنِ الْاِصْطَلَاحَاتِ وَبَعْضِ التَّدْقِيقَاتِ النَّظَرِيَّةِ، فَهَدَفْنَا هُنَا تَحْرِيكَ الْوِجْدَانِ وَبَيَانَ خَطُورَةِ الْمُسَأَّلَةِ، وَذَلِكَ يَسْتَدِعِي الْكَلَامَ مَعَ الْقَلْبِ وَالْوِجْدَانِ.

وَنَخْتَمُ هَذَا الْمَدْخُلَ بِخَطْبَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامِ تَتَعَلَّقُ بِمَوْضِعِنَا تَعْلِقاً أَكْيَاداً، فَقَدْ جَاءَ فِي خَطْبَةِ لِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَا بَعْدُ، إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرْتُ وَآذَنْتُ بُوَدَاعَ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطْلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ يَوْمَ الْمُضْمَارِ، وَغَدَّا السَّبَاقِ، وَالسَّبِيقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ، أَفَلَا تَائِبٌ مِّنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ؟! أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ؟! أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ أَمْلِ مِنْ وَرَاهِهِ أَجْلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامٍ أَمْلَهُ قَبْلَ أَيَّامٍ أَجْلَهُ فَقَدْ نَفَعَهُ

عمله ولم يضره أجله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله، ألا وإنكم قد أمرتم بالضعن (الرحيل)، ودللتم على الزاد، وإن أخواف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، تزوّدوا في الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً»<sup>(٦)</sup>.

### لماذا نكره لقاء الله (الغاية)؟

قال تعالى: ﴿وَتَفْسِي وَمَا سَوَاهَا \* فَآلَّهُمَّا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾<sup>(٧)</sup>، كم هي كثيرة الآيات والروايات التي تحدثت عن النفس ومقامتها، وحضرت هذا الكائن من مزالها ودقة مكائدها، وليس ذلك أمر عجيبً لو تأمل فيه الإنسان بقلبه، وجلس ساعةً مع نفسه ليفكر أنَّ أمامه سفراً طويلاً، وعقبات خطيرة تحتاج لزاد ثقيل، فهلأً أعدَّ الإنسان زاده ليوم رمسه؟! وجلس مع نفسه متسائلًا هل هو في محل رضا الله أم أنه في محل سخطه؟! وليسأل كلَّ منّا نفسه: الآن إذا أتاه ملك الموت وأراد استرجاع وديعة ربِّه فما هو قائل له؟ فهل عاش مرحلة الاستعداد؟ أم ما زال غارقاً في بحر الغفلة عن الله؟ وكثير منا يراود ذهنه هذا السؤال، ويعيشه بين فترة وأخرى، وإن حاول المسكين أن يتغافل عنه خوفاً من مواجهة الحقيقة، ولكن لا سبيل للهروب عنه بعدما أصبحت مواجهة ذلك السؤال مما لا بد منه، وقد تسأله: أي سؤال تعنيه؟ وما لي في الجواب إلا أن أذكرك به وأقول: هذا هو السؤال: لماذا نكره السفر إلى الله - الذي هو غاية الوجود - مع أنَّ السفر إليه سفر إلى محض الجود والرأفة والرحمة والكمال؟!

فهذا أبو ذر رضي الله عنه يجيب عن هذا السؤال ويكشف لنا حقيقة ذلك، فقد جاء في كتاب (الكافي) الشريف للكليني رضي الله عنه بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: « جاء

رجلٌ إلى أبي ذرٍ رض، فقال: يا أبا ذرٍ، ما لنا نكره الموت؟! فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وأخرتم الآخرة، فتكرهون أن تنقلوا من عمرانٍ إلى خرابٍ، فقال له: فكيف ترى قدومنا على الله؟ فقال: أما المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء منكم فكالآبق يُردد على مولاه، فقال: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: اعرضوا أعمالكم على الكتاب، إنَّ اللَّهُ يَقُولُ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ \* وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحَّمٍ﴾<sup>(٨)</sup>، فقال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريبٌ من الحسنين<sup>(٩)</sup>.

فينبغي لنا الجدُّ والاجتهد في تعمير الآخرة، وإشغال أنفسنا بعمرانها؛ حتى لا تكون مصداقاً لمن يردُّ على مولاه ورود الآبق، بل نردُّ عليه ورود الغائب القادم عليه، وكلَّ ذلك يقتضي من السالك إلى الله أن يزيل الموضع ويعيش المكافحة مع النفس؛ فهي الطريق المتاح للمؤمن لكي ينتظر بشوقٍ لقاء الله ولا يخاف الموت، وكيف يخاف الموت من اعتقاد أنَّ الموت قنطرة الوصول إلى المحبوب؟! وليسْ هذه الدنيا عند السالك إلى الله إلَّا سجناً سيرحل منه إلى الآخرة، وهل يضطرب العاقل بسبب الخروج من النقص إلى الكمال؟! وينكس العقل منحنياً متخيلاً إلى العظمة والمقامات المعنوية التي وصل إليها أنسٌ في هذه الدنيا يستأنسون بالموت، أعني أنصار الحسين عليه السلام، وهم يعيشون أوج الارتباط بالله، حتَّى أصبح الموتُ لهم أنيساً كما يستأنس الطفل بمحالب أمّه، ولا غرو في ذلك، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يصف حال المتقين أنَّهم لو لا الموت لما استقرَّت أرواحهم في أجسادهم، بمعنى أنَّهم لو لا اعتقادهم القلبي - لا النظري - بأنَّه سيأتي يومٌ يردون على الله، لما عاشوا مستقرِّين في الدنيا، فوجود الموت هو الموجب لاستقرارهم، لا أنَّه يوجب خوفهم، وقد تستغربُ من وجود أنسٍ في هذه الدنيا وصلوا لهذا المقام العظيم، وليس بداعاً من

القول أن نقول: إن علة وصوّلهم لتلك المقامات مجاهدة أنفسهم، فحربي بنا أن نهتم بذلك إذا عزمنا على السير نحو المحبوب، وبذلك يتضح لنا أهمية خلق الداعي في أنفسنا حتى نترقب لقاء الله.

### الهوى في الاصطلاح:

قبل الدخول في بعض التفصيات المتعلقة بهوى النفس، لا بأس أن نحدد المقصود من موضوع البحث، ولا نريد الدخول التفصيلي في ذلك، وخير ما قيل في هذا الشأن ما ذكره صاحب المفردات الراغب الأصفهاني حيث قال ما نصه: «الهوى ميل النفس إلى الشهوة، ويُقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سُميَ بذلك لأنَّه يهوي بصاحبِه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»<sup>(١٠)</sup>.

وقد ذكر المجلسي رحمه الله في (البحار) ما لفظه: «المراد بهوى النفس ميلها إلى ما هو مقتضى طباعها من اللذات الحاضرة الدنيوية، والخروج عن الحدود الشرعية»<sup>(١١)</sup>.

وبالتأمل في عبارة صاحب (البحار) أعلى الله بهم رحمة نراه يشير إلى ما فهمه من مجموع الروايات، وهو أن اتّباع الهوى ينقسم إلى اتّباع مذموم، واتّباع غير مذموم، وضابط اتّباع الهوى المذموم في النصوص الشرعية هو طاعة النفس في مقابل سخط الله والرکون لهذه القوّة.

ومما يثير الدهشة والتساؤل كثرة النصوص الواردة التي ترکز على هذه المسألة، فما هو السر في ذلك؟! لعله - أيها القارئ - قد يتضح لك شيء مما يرفع هذا الاستغراب، وبتفصيل أكثر نشير هنا إلى قاعدة عقلانية نستطيع أن نستفيد منها في مقام الإجابة عن هذا السؤال، وهي أنه كلما زادت النصوص حول مسألة من

المسائل كان ذلك كاشفاً عن أهمية تلك المسألة بنظر الشريعة، فالعلاقة طرديةٌ بين أهمية القضية وبين كثرة النصوص حولها، وهذا ترى النصوص المتکثرة التي وصلت إلى حد التواتر الدامّة للقياس، حتى أوصلها بعض محققى علمائنا إلى ثلاثة، وليس ذلك إلا خطورة هذه القضية في نظر الشريعة، وهنا أيضاً كذلك، فلما كثرت النصوص حول مسألة الهوى علمنا خطورة هذه المسألة ومدى عنایة الشارع بهذه القضية، فليست هي مسألة عادلة، كيف لا تكون كذلك؟! والحال أنها رأس المهمات، وجمع الرذائل الأخلاقية، وما من رذيلة إلا وترجع إليها، فهي أصل شجرة الخبائث والرذائل، فلا يصح بعد هذا البيان أن يقف المؤمن الموحد وقفه عدم المبالغة، بل علينا أن نفتح قلوبنا قبل أسماعنا، وبصائرنا قبل بصرنا إلى هذه القضية.

### مُتّبعُ الهوى في محكمة العُقلاء:

كم هو فظيعٌ ومدهشٌ أن يقف الإنسان على قصة حياته في هذا الوجود، فهلا تأمّلت أيّها المؤمن إلى هذه القصة معي وسأترك لك الحكم، فلعلك لا تقبل بمحكمي، إنسانٌ لم يكن شيئاً مذكوراً، أوجده خالقه في أحسن تقويم، وأعطف عليه الحواضن، وأسكنه في الرحم، وتکفل بغذيائه وعطائه، ثم أخرجه إلى هذه الدنيا، وفطره على الخير والطاعة، وربّاه صغيراً، وأعطاه الجوارح ليتقوّى بها، إلى أن بلغ فخاطبه تكريماً له، فاستحق مقام أن يكون محلاً لخطاب الله، وما تزال نعم الله لحظةً بعد لحظةً تنزل عليه، فقام هذا المخلوق برد الجميل لモلاه، وكان جحيله بعصيته إياه، ومخالفته بالقوى التي أعطاها إياه، فاستعان بنعمة المولى على معصيته، واستغلّ إعطاء وإقدار المولى على مخالفته، ولم يكتف بذلك، بل اتّخذ إلهاً غيره، ولكنَّ مولاه لم يقابلُ بالإساءة والعقاب، بل قابله بالإحسان، فستر عليه وأعطاه، فشرّ العبد إلى المولى

سأعدهُ، وخيرُ المولى إلى عبده نازلٌ، وهكذا ما زال كلُّ آنٍ يفيض عليه بنعمه وما زال ذلك العبد يتجرّأ على المولى بعصيته، حتّى سقط حياؤه، واشتدّت مخالفته، إلى أن أشرك بالله، فلو عرضنا قضيّة هذا العبد في محكمة العقلاء ماذا ترى - أيّها القارئ العزيز - أن يحكموا عليه؟ بل كيف يتحمّل الحكم أن يديم سماعه لهذا العُجَاب؟! ولو تأمّلت هذه الكلمات وقيل لك: أنتَ هو صاحب هذه القضيّة. فما أراكَ فاعلُّ؟! وأيْ عذرٍ أنت به قائلُ؟! وهل ينفع العذرُ بعد الإساءة؟! وأيْ قبحٍ أن ينطق هذا العبد أمام المولى يوم المحكمة الكبرى، ويوم الفضيحة وكشف السريرة؟! هكذا قد يكونُ حالنا في خاتمة المطاف، فلا بدّ من الانتباه قبل حلول الممات، **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَتَتْ مِنْ قَبْلُ﴾**، وكم حرّيُّ بهذه النفس أن تعدّ الجهاز قبل يوم المحاجز، وتصارع الأهواء والشهوات لتنال الدرجات والمفازات.

## منافاة اتّباع الهوى للّٰهُدٰى في العبادة:

كم هو ذلك الارتباط العجيب بين مسألة التوحيد في العبادة التي تُثلّب محوراً من أهم محاور التوحيد في الفكر الإسلامي، وبين مسألة اتباع الهوى، حيث تقف مسألتنا في طرف النقيض لتلك المسألة، وبعظامه الطرف المقابل يُعرف المقابل، أعني أنَّ اتِّباع الهوى يقابل التوحيد في العبادة، ولما كان التوحيد في العبادة مسألةً بلغتْ من الأهميةِ عظيمةً يكاد يكون طرفها النقيض - أي اتِّباع الهوى - وصل لتلك الدرجة فكلَّ خطوةٍ يخطوها الإنسان نحو اتِّباع الميول والشهوات يقترب بها إلى قفص مخالفة المنعم الحقيقية، وبالتالي البُعد عن حقيقة التوحيد العبادي، ويُوضعُ باتِّباعه هواه قدماً نحو طاعة الشيطان، وبتكرر ذلك وتتكثّر المخالفات يصلُّ إلى مرحلة الملكة في اتِّباع الشيطان، حتى تنتقمُ الملكة فيكون هو الشيطان، وبالتالي يكون مصداقاً لقوله

تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا هُوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا \* أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامُ بَلْ هُمْ أَخْلَصُ سَيِّلًا﴾<sup>(١٢)</sup>، ودعونا نقف ببرهةً من الوقت متأنلين في هذه الآية الكريمة، مستنتظرينها بالقلب قبل العقل، فالخطاب الإلهي يدعو الإنسان العاقل في هذه الآية للتفكير والتأمل، وكيف وصل الإنسان بسوء فعله وسريرته إلى الدرجة الدانية حتى سقط في قفص الشرك وأصبح الهوى هو مولاه الذي يطيعه؟! ولو عرف هذا المسكين أنه يطيع عدوه لبكى على نفسه طويلاً، فالمهوى عدوه، بل ليس كباقي الأعداء، بل أعدى الأعداء، وكم هي الذلة التي يعيشها هذا الغافل عن نفسه؟! وأي ذلة أكبر من ذلك الشرك؟! فحقيقة أن يُقال: إن من أطاع هواه أعطى عدوه مناه، بل أي خطورة يكشف عنها الخاتم ﷺ، حيث ورد عن النبي ﷺ ما لفظه: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هو متبع»<sup>(١٣)</sup>.

### منافاة اتباع الهوى للإنسانية:

لا غرابة أن يُقال: إن اتباع الشهوة يُعد أخطر عامل يقود الإنسان نحو الانحطاط الأخلاقي والسلوكي، بل هو مصدق للانحطاط، وقد جاءت عدة روايات تشير إلى هذه الحقيقة، فعن أمير الموحدين عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَنَّهُ قَالَ: «الشهوات سومُ قاتلات»<sup>(١٤)</sup>، فهنا ينصُّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ عن حقيقة الشهوة، فليست هي إلا سُمٌ يقتل الإنسان، وكيف لا تكون كذلك؟! وبها ينزل الإنسان من حقيقة الإنسانية إلى رق البهيمية، أيُكن أن نتصورُ الإنسان بدون عقل؟! وكيف يستتحق مرتبة الإنسانية من عمل يقتضي البهيمية؟! نعم، ترى مثل هذا الشخص في الدنيا يضحك ويلعب، ولكن في الحقيقة وباطن الأمر ليس هو إلا سبع ضار، واتضح مما ذكرنا أن مدار الإنسانية هو

العقل، فمن كان قائده هو عقله فهو الإنسان، وإلا فلا حظ له من الإنسانية إلا الاسم ، فليختر الإنسان أميره الذي يتبعه، هل هو العقل أم الهوى؟!

### الآثار التكوينية لاتّباع الهوى:

نحاول أن نتأمل شيئاً ما في بعض الآيات والروايات الواردة في المقام المتعلقة ببيان الآثار التكوينية للهوى، ونفترض معاً من مائدة العصمة بقدر طاقتنا، وليس هدفنا هو مجرد فهم هذه الآيات، بل التأمل في هذه المعرفة بالقلوب حتى لا نكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتِنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾، ونبأ بهذه الآية، وهي قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾<sup>(١٥)</sup>، تكشف هذه الآية الكريمة عن حقيقة طالما غفل الإنسان - أو تغافل عنها -، وهي حالة العبودية لغير الله، فالعبد قد يدعى أنه موحد، بل قد يترقى في العجب بنفسه ويدعى أنه من أخلص المخلصين، لكنه في الواقع عابد لغير الله، ومطیع لهواه، حتى وصل إلى درجة أن إلهه فعلاً وعملاً هو الهوى، وإن كان قوله هو الله، ومن يصل إلى هذه الحالة يكون وكيله الشيطان، فيخرجه من ولاية الله إلى ولايته، ولقلة حياء الإنسان أمام مولاه وولي نعمته تراه قد أغلق مسامع قلبه عن سماع التحذير الإلهي الذي طالما رن في أذنه، فهذا رب الرحيم يحذر الإنسان في كتابه الكريم قائلاً: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾<sup>(١٦)</sup>.

وللأسف فإن موقف كثير من البشر أمام هذه النصيحة والنداء الإلهي هو الإعراض عن نداء الحق، والانغماس في الميول الشيطانية، والعجيب في هذه الآية الكريمة آخرها، أعني ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾<sup>(١٧)</sup>، فهذا استفهام استنكاري بمعنى: لست عليه بوكيلاً حتى تهديه إلى الرشد إذا اختار هو العبودية لغير الله،

وهذا الخطاب موجّه للخاتم ﷺ - أعني قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، حيث إنّ هذه الآية واردة في صدد آياتٍ تتكلّم عن المشركين الذين أعرضوا عن الدعوة، ولكنَّ الخاتم ﷺ لرحمته الواسعة - كيف لا يكون ذلك وهو رحمة للعالمين - كان يعطف على هؤلاء المشركين ويختلف عليهم من عبادة الشيطان، حتّى جاء الخطاب الإلهيًّا مستنكراً وقائلاً: إِنَّك يا مُحَمَّد ﷺ لستَ عليهم بوكيلٍ، ولا تهدي من أحببت، ولنا أن نتساءل عن هذا الشخص الذي وصل إلى هذه الحالة - وهي العبوديّة لغير الله - كيف أصبحت حالته وملكاته؟ يعود القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ويجيب عن ذلك في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾<sup>(١٨)</sup>.

نلاحظ أنَّ هذه الآية تبيّن الآثار التكوينيّة لمسألة اتباع الهوى، فليست المسألة مسألة جنةٍ ونارٍ فقط، بل هي فوق ذلك، فوراء الجنّة والنار آثارٌ تكوينيّة في هذه الدنيا، فهذا الشخص الذي هو عابدٌ لغير الله، صورته صورة إنسانٍ، ولكنَّ قلبه مليء بالظلم، وهو مطرودٌ من الساحة الإلهيّة، ويما عجب ما حال شخصٍ يُطرد من الساحة التي هي كمال الجود والرأفة؟! حتّى أصبح قلبه مختوماً، ومن كان حاله كذلك فأنّى له باليقظة والانتباه؟! فليس عجيباً حينئذ أن لا تؤثر الموعظة فيه ويفقد أمامها موقف اللامبالاة، وكيف يتلقّى هذا الشخص المعارف الحقة الإلهيّة وهو على قلبه غشاوة؟! أوَ ليست المعرفة تحتاج إلى الإناء؟! ومن كان إناءه ملؤه الظلم كيف تحلّ المعرفة فيه؟! بل أكثر من ذلك، فمثل هذا الإنسان لا يعيش لذّة العبادة مع الله، وكم هي الحسرة العظيمة أن يُحرم الإنسان أن يتذوق حلاوة المناجاة مع الله التي يقول

عنها زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «من ذا الّذِي ذاق حلاوة محبّتك فرام عنك بدلاً؟!».

وبالجملة نستفيد من هذه الآية الكريمة دروساً ومعارف جليلةً، وهي مدى خطورة الآثار التكوينية لاتّباع الهوى، فمن الحق أن يُقال: إِنَّه رأس المهلّكات، وقد جاءتْ عدّةٌ من الروايات تتكلّم في هذا السياق - أعني الآثار التكوينية للهوى -، فقد جاء في (الكافي) الشرييف بسنده عن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّه قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: وَعَزَّتِي وَجَلَّتِي، وَعَظَمْتِي وَكَبَرِيَّاتِي، وَنُورِي وَعُلُوِّي، وَارْتِفَاعِ مَكَانِي، لَا يَؤْثِرُ عَبْدُ هَوَاهُ عَلَى هَوَاهِ إِلَّا شَتَّتَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَلَبَسَتْ عَلَيْهِ دُنْيَاَهُ، وَشَغَلَتْ قَلْبَهُ بِهَا، وَلَمْ أُوتِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا قَدَرْتُ لَهُ، وَعَزَّتِي وَجَلَّتِي، وَعَظَمْتِي وَنُورِي، وَعُلُوِّي وَارْتِفَاعِ مَكَانِي، لَا يَؤْثِرُ عَبْدُ هَوَاهِ عَلَى هَوَاهِ إِلَّا اسْتَحْفَظُهُ مَلَائِكَتِي، وَكَفَلْتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ رِزْقَهُ، وَكُنْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَةِ كُلِّ تَاجِرٍ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِي رَاغِمَةُ»<sup>(١٩)</sup>، فهذا الرواية - كما هو واضح - ناطقةٌ بِعُدَى الآثار التكوينية الّتي يفضّلها اتّباع الهوى.

وعند ملاحظة الآية السابقة<sup>(٢٠)</sup> نستطيع أن نتعرّف على مدلول الرواية بشكلٍ أجيٍ وأوضح، وفي بيان وجه الارتباط نقول: الآية في سورة الحاثة - أعني قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ - تتكلّمُ عن الأحوال الّتي يصلُ إليها مُتّبعُ الهوى، وهي ثلاثةٌ:

- ١) الإِضَالَلُ.
- ٢) الْخَتْمُ عَلَى السَّمْعِ وَالْقَلْبِ.
- ٣) وَجْعَلَ الغشاوة على البصر.

ومن كان هذا حاله لا محالة أنّ نتيجة أمره هو ما ذكرته الرواية السابقة، فهو سبّيّه في هذه الدنيا، وتتلبّس عليه دنياه، فلا يستطيع معرفة الحقّ والحقيقة، ويتقلب في ظلماتٍ بعد ظلماتٍ، فأمره مشتّتٌ لا استقرار فيه، وهذا معنى «شتّتٌ» عليه أمره، و لبّست عليه دنياه، وكذلك من ختم وغشى بصره، كيف يبصر الطريق؟! وأئنّ له بالهدىة؟! وكيف لا يشغل قلبه بالدنيا وقد ختم الله على قلبه، وهذا معنى قوله: «شغلت قلبه بها (الدنيا)»، فبملاحظة الآية يكون ما ذكر في مفاد الرواية أمرٌ واضحٌ وطبيعيٌ، ونتيجةً حتميةً لما وصل إليه عابد هواه، ولنعم ما سطره السيد الإمام حَفَظَ اللَّهُ عَنْهُ في (الأربعون حديثاً) معلقاً على هذه الرواية حيث قال ما نصّه:

«وهذا الحديث الشريف من محكمات الأحاديث التي يدلّ مضمونها على أنه ينبع من علم الله تعالى الرائق حتى وإن كان مطعوناً بضعف السند»<sup>(٢١)</sup>، ولنعم ما قال، وأيّ سندٍ نحتاجه عندما عرفتَ أنّ مدلول هذه الرواية موافقٌ للقرآن الكريم؟! وهل بعد الموافقة للقرآن من احتياجٍ للسند؟! وليس لي أن أقول لك أيّها القارئ إلا أن تتمعّن فيما ذكر في الآية والرواية؛ فهذا غيضٌ من فيضٍ، وفتح قلبك ما دمت موجوداً في الدنيا قبل الفوات، وخير نفسك بين طاعة المولى المنعم المفضل، وبين عبادة الهوى، وانظر بعين البصيرة هذه الآثار التكوينية الخطيرة المهلكة، فإن اخترت الهدىة على الضلال فنعم الاختيار، ومحلك قريبٌ من الله، وستعيش لذة العبادة والذكر، وفي الآخرة الروح والريحان، ولكن الندم كلّ الندامة لو آثرت طاعة العدو على طاعة المولى، فموعدك النار وبئس الرفد المرفود، ولا تنفع الندامة بعد نهاية المضمار.

وفي مقابل ذلك نعرف مقام وحالات الإنسان المتّقى المخالف لهواه؛ إذ أنه – كما

يُقال - تُعرف الأشياء بأضدادها، فكلّ ما ذكرناه هناك ينقلبُ قاماً هنا، فالسلوك إلى الله والمخالف لهوا يفتحُ الله بصره، ويعينه الله على إبصار الطريق، ويكون الله هو وكيله هدایته، فيحظى بالهدایة الخاصة، فحيثُ كان العابدُ للهوى يعيش في الظلمات فالمؤمن الطيع لله يعيش في النور، وإن كان المخالف لله أعمى البصيرة فإنَّ المؤمن يُبصر الحقَّ والحقيقة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾<sup>(٢٢)</sup>، وفي آيةٍ أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ مُؤْتَكِمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾<sup>(٢٣)</sup>، وهكذا ترى العاصي منشغلًا بمتاع الدنيا، إلا أنَّ المؤمن منشغلٌ بالآخرة، ويتشوق لرضا ربِّه، ويتبَّعُ من كلٍّ ما ذكرنا أنَّ القرآن الكريم يشير إلى حقيقةٍ، وهي أنَّ حال المؤمن في هذه الدنيا مختلفٌ بالكلية عن البعيد عن الله، فليس الفارق بينهما مرتبطٌ فقط بالآخرة والجنة والنار، بل القرآن يترقى في ذلك ويقول: إنَّ المؤمن يعيش حياةً تختلف عن حياة العاصي الله، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(٢٤)</sup>، وهذه الحقيقة القرآنية تحتاج إلى بحثٍ مستقلٍّ لسنا في صدد البيان التفصيليٍّ لهذه الحقيقة؛ فإنَّها تحتاج لبحثٍ آخر، وما ذكرناه في المقام هو الذي يعتبر مهمًا بلحاظ ما نتكلّم عنه.

### ارتباط مسألة الهوى بالتفكير والصبر:

نُشير في هذا العنوان إلى العلاقة المهمة بين مسألة التفكير والصبر وبين الهوى، فالروايات التي تتكلّم عن مسألة التفكير كثيرة، ونقل هنا بعض ما يتعلّق بها محاولين الربط بين مسألة التفكير وبين اتّباع الهوى، فقد ورد عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ أنه قال: «كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ يقول: نَبِّه بالتفكير قلبك، وجاف عن الليل جنبك،

واتقِ الله ربّك»<sup>(٢٥)</sup>، وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ: «أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته»<sup>(٢٦)</sup>، إنَّ قيمة الكلام بعظمة متكلّمه، والمتكلّم في مقامنا هو المقصوم عَلَيْهِ الْكَفَافُ، الذّي وصل إلى مقام يعجزُ الإنسان أن يدرك شطراً منه، وأنّي بالدّاني أن يحيط بالعالي؟! فعندها تعرف أنَّ هذه الكلمات الصادرة من نَفْس المقصوم كم قتُلَ من القيمة والواقعية التي ينبغي للعاقول اللبيب أن لا يعيش حالة الغفلة بإزائها، ودعونا هنا نقفُ متأمّلين شيئاً ما في مضمون هاتين الروايتين الشريفتين وما يشاكلها، التي تتحدث عن التفكّر، فالإمام عَلَيْهِ الْكَفَافُ يدعو الإنسان إلى التنبّه في هذه الدنيا وعدم الغفلة عن مقام الله، فإنَّ في هذه الدنيا دواعي الابتعاد عن الله، ولا تكادُ أشواك الشيطان في طريق المؤمن تنتهي، والصراع ما زال مستمراً ما بقي الإنسان والشيطان، وبالتالي الوجدان والعقل الصحيح يحكمُ أنه لا يصحُّ بنا أن يبقى الإنسان بلا تفكّر، فالشخصُ لا بدَّ له أن يفكّر ما دام إنساناً، وهذا ما ترشد إليه رواية أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَفَافُ، لكنه عَلَيْهِ الْكَفَافُ لم يكتفِ بذلك، بل عقب التفكّر بأنَّه سُنْخٌ تفكّرٌ حاصلٌ بالقلب لا بالعقل، فليس المهمُ أن يفكّر الإنسان بعقله حتّى لو كان قلبه مظلماً، بل لا بدَّ أن يكون قلبه حيَاً حتّى يهبيء الأرضية الحصبة لتقبّل الموعظة والمعارف الإلهية، وبعدها يدخل الإنسان في سلك الطيع لله ويعيدها عن زمرة الغافلين الذين هم بوصف القرآن الكريم كالأنعام، بل أضلّ سبيلاً، وهنا لا بدَّ للمؤمن أن يتلفت إلى قضيّة مهمّة تظهر مما ذكرناه سابقاً، وهي: إنما يتحقّق أثر التفكّر بالقلب إذا لم يصل الإنسان إلى مستوى الطبع والرين على القلب؛ إذ مع الوصول - والعياذ بالله - إلى تلك الحالة يكون الإنسان مطوقاً بالغشاوة، فلا يستطيع الانتباه واليقظة، وإن استطاع ذلك فإنه بعنه تامٌ، وبالتالي لا يحسنُ بالشخص أن يصل - والعياذ بالله - إلى ذلك المستوى الذي تكلّمتُ عنه الآية السابقة، وهو مقام «إلهه هواه»؛ إذ بعدها لا تنفع

موعظة الوعاظين، وعن طريق التفكير المستمر ومحاسبة النفس الدائمة لا يصل الإنسان إلى هذه الحالة، وهذا وردت مجموعة رواياتٍ تدلّ على ضرورة محاسبة النفس كلّ يوم، بل إنّ في بعضها أنّه ليس منا من لم يحاسب نفسه، وليس ذلك إلا للحيلولة دون وصول الإنسان إلى مرحلة يصعب بعدها تدارك الأمر، ونستطيع أن نفهم أيضاً عدم صحة ما قد يبته الشيطان في قلب المؤمن المريد لله، حيث يرن الشيطان في قلب المؤمن بتأخير التوبة، وأنّ الزمن طويلٌ، وخذ الآن شهوتك وبعد ذلك قم بتهذيب نفسك! إذ هذه المكيدة من الشيطان مكيدة خطيرة جداً، حيث بموجعة الإنسان للذنب يعيش حالةً ظلمانيةً في نفسه، وشيئاً فشيئاً يكون قلبه مظلماً، وهل بعد الظلمة رجوعٌ إلى الله؟! فكم هي أهمية هذه الموعظة التي صدرت من ينبوع الرحمة التي ينبغي لكلّ مؤمنٍ لا يتجاهلها؟! حتى أنّ بعض الأخلاقيين جعلوا أولى مراحل السلوك إلى الله هي مرحلة التفكير، وسيأتي منا في آخر هذا الموضوع شيئاً يتعلّق بهذه المسألة فانتظر!

أما الروايات التي تتكلّم عن مسألة الصبر عن المعصية فمنها ما ورد عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا أَنْشَأَ اللَّهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ»، فيقال لهم: على مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الصَّابَرَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ ذِيَّلَهُ: صَابِرُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: كَنَا نَصْبِرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَنَصْبِرُ عَلَى مَعَاصِيِّ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ ذِيَّلَهُ: صَدِقُوكُمْ، أَدْخُلُوكُمُ الْجَنَّةَ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ ذِيَّلَهُ: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٢٧)</sup>، تشير هذه الرواية إلى حالة هؤلاء الذين عاشوا في الدنيا مجاهدة أنفسهم ومخالفة أهوائهم، وليس المخلافة والمجاهدة بالأمر البسيط كما تنصّ عليه الرواية، حتى استحقّوا أن يسمّوا في محضر يوم القيمة بأهل الصبر، فليست الجنة

بالأمر البسيط، بل محفوفةً بالمكاره، وقد ورد في هذا الموضوع أيضاً عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ قَالَ: «الجنة محفوفةٌ بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنّم محفوفةٌ باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذاتها وشهواتها دخل النار»<sup>(٢٨)</sup>، فالصابر هو الذي استطاع أن يتغلب على أعدى أعدائه، ويصل إلى حد الاعتدال، وبتعبير علماء الأخلاق: «فأصبح عقله أميره»، وليس ذلك بالأمر الهين، بل يحتاج مع المحاهدة إلى توفيقٍ إلهيٍّ ومددٍ ربانيٍّ، وفي بعض الروايات أيضاً ما يشير إلى أنَّ حقيقة الذكر ليس هو الذكر اللفظي، بل هي الحالة التي يعيشها الإنسان إذا وردت عليه المعصية فيمتنع عنها، فهو لا يهؤلاء هم الذين استحقوا قرع باب الجنان، فقد جاء عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ أَشَدّ مَا فرضَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ ذِكْرُ اللَّهِ كثِيرًا، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الْكَلَمُ: لَا أَعْنِي: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَمَا أَحْلَّ وَحْرَمٌ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً عَمِلَ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً تَرَكَهَا»<sup>(٢٩)</sup>، ولا يمكن للسلوك إلى الله أن يصل إلى مقام الصبر بدون حالة الخوف، وكم هي الروايات العجيبة التي تتكلّم عن مسألة الخوف، ولو لا خوف الإطالة لبسطنا الكلام حول مسألة الخوف ومدى ارتباطها بمسألة الصبر، ولعلَّ الله يوْفِقنا في محلٍ آخر لتفصيل ذلك، ولكن - كما يُقال - من باب أَنَّه لا يسقط الميسور بالمعسور، نذكر هذه الرواية معتمدين على نباهة القارئ، فاللبيب تكفيه الإشارة، فقد جاء عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾<sup>(٣٠)</sup>، قال: «من علم أنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُهُ وَمَا يَفْعَلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيُحِبِّزُهُ ذَلِكَ عَنِ الْقَبِيحِ مِنِ الْأَعْمَالِ فَذَلِكَ الَّذِي خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْمَوْى»<sup>(٣١)</sup>.

## الطريق العملي لعلاج هوى النفس:

ليس من الوجيه عند العقلاء أن تُطرح المشكلة بدون بيانٍ عمليٍ للعلاج، ولئن كانت مسألة إثارة الوجدان ويقظة الضمير من أهمّ القضايا التي تُوجب تخلص الإنسان شيئاً فشيئاً من هذه الرذيلة، إلا أنّ علماء الأخلاق أبوا إلا أن يذكروا طريقةً عملياً لمجاهدة النفس، ونختصر في هذا المقام ما ذكروه في خمس مراحل على نحو الإجمال لا التفصيل؛ إذ أنّ المهم هنا ليس البحث النظري عن هذه المراحل، بل التطبيق الخارجي لها، فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ، والمراحل هي كالتالي متتالية على نحو الطولية، بمعنى أنه لا تصل النوبة إلى المرحلة اللاحقة إلا بالانتهاء من المرحلة السابقة.

### أولاً: التفكّر:

أول شرط يطرحه علماء الأخلاق لمجاهدة النفس هو التفكّر، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، ونضيف هنا شيئاً نتمّ به المطلب السابق، فقد عقد الكليني عليه السلام باباً في الكافي للتفكّر، فحرى بالقارئ أن يطلع عليه، وكان فيما نقله هو هذا الحديث الشريف: فقد جاء أحد الرواة إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عمما يروي الناس أنّ تفكّر ساعة خيراً من قيام ليلة، قلت: كيف يفكّر؟ قال عليه السلام: «يرُ بالخرابة أو بالدار فيقول أين ساكنوك؟! أين بانوك؟! ما لك لا تسكلّمين؟!»<sup>(٣٢)</sup>، ولنعم ما قاله السيد الإمام في هذا الصدد، حيث قال ما نصه: «إنّ الإنسان إذا فكر لحظةً واحدةً عرف أنّ الهدف من هذه النعمة هو شيء آخر، وأنّ الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم، وأنّ هذه الحياة الحيوانية ليست هي الغاية بحد ذاتها، وأنّ على الإنسان العاقل أن يفكّر بنفسه، وأن يترحم على حاله ونفسه المسكينة، ويخاطبها

قائلاً: أَيْتَهَا النَّفْسُ الشَّقِيقَةُ الَّتِي قُضِيَتِ سَنِيْ عُمْرُكَ الطَّوِيلَةَ بِالشَّهْوَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ نَصِيبُكَ سَوْى الْحَسْرَةِ وَالنَّدَمَةِ، ابْحَثْيَ عنِ النَّدَمَةِ وَاسْتَحِيْ مِنْ مَالِكِ الْمُلُوكِ، وَسِيرِيْ قَلِيلًا فِي طَرِيقِ الْهَدْفِ الْأَسَاسِيِّ الْمُؤْدِيِّ إِلَى حَيَاةِ الْخَلْدِ وَالسَّعَادَةِ السَّرْمَدِيَّةِ، وَلَا تَبِعِيْي تَلْكَ السَّعَادَةَ بِشَهْوَاتِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ فَانِيَّةٍ، الَّتِي لَا تَتَحَصَّلُ حَتَّى مَعَ الصَّعْوَاتِ الْمُضْنِيَّةِ الشَّاقِقَةِ، فَكَرِيْ قَلِيلًا فِي أَحْوَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ السَّابِقِينَ وَالْلَّاحِقِينَ، وَتَأْمُلِيْ مَتَاعَبِهِمْ وَآلَاهُمْ كَمْ هِيَ أَكْبَرُ وَأَكْثَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَنَائِهِمْ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَوْجُدُ فِيهِ هَنَاءٌ وَلَا رَاحَةٌ لِأَيِّ شَخْصٍ ... وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَادْعُ رَبِّكَ بِعِجزٍ وَتَضْرِعَ أَنْ يَعِينَكَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبَاتِكَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ أَسَاسَ الْعَلَاقَةِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ تَعَالَى، وَالْمَأْوَلُ أَنْ يَهْدِيْكَ هَذَا التَّفْكِيرُ الْمُبَعَّثُ عَنْ نِيَّةِ مَجَاهِدَةِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ الْأَمَارَةِ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ، وَيَوْفِقَكَ لِلرَّقِيِّ إِلَى مَنْزَلَةِ أُخْرَى مِنْ مَنَازِلِ الْمَجَاهِدَةِ»<sup>(٣٣)</sup>.

### ثانيةً: العزم:

في هذه المرحلة، بعدما عاش الإنسان التفكّر، والتفت شيئاً ما إلى نفسه ومدى الفقر والفاقة التي يعيشها أمام خالقه، استلزم ذلك شكر المولى، وحقيقة الشكر ليست بالتلفظ، بل هي حالة يوجدها الإنسان في نفسه عن طريق العزم الأكيد على طاعة الله، وشدّ الهمة والإرادة للتخلص من الرذائل التي يعيشها ويعانيها قبل أن تتحول هذه الرذائل إلى ملكات يصعب بعدها التخلص منها في نهاية المطاف، وينبغي أن يضمّ المؤمن مع العزيمة الجادة التوسل بأهل العصمة عليهما السلام؛ فهو له دور كبير في إزالة الحجب عن النفس.

وننقل هنا كلاماً أيضاً للمربي الكبير والسيد الجليل السيد الإمام خطيبه عنه، ولأهمية هذه الكلمات آليتُ على نفسي إلا أن أذكرها بنصّها دون نقل مضمونها،

حيث قال ما نصه: «أيها العزيز، اجتهد لتصبح ذا عزمٍ وإرادة؛ فإنك إذا رحلت من هذه الدنيا دون أن يتحقق فيك العزم على ترك المحرمات فأنت إنسانٌ صوريٌ بلا لبٌ، ولن تحشر في ذلك العالم - عالم الآخرة - على هيئة إنسان؛ لأنَّ ذلك العالم هو محلُّ كشف الباطن وظهور السريرة، وإنَّ التجربة على المعاصي يفقدُ الإنسان تدريجًا العزم، ويختطف منه هذا الجوهر الشريف، يقول الأستاذ المعظم دام ظله: (إنَّ أكثر ما يسبب على فقد الإنسان العزم والإرادة هو الاستماع للغناء)»<sup>(٣٤)</sup>.

### ثالثاً: المشارطة:

بعدما ينتهي المُجاهد للنفس من مرحلة التفكير والعزم، لا بدّ له أن يشارط نفسه، بمعنى أن يشترط على نفسه من أول لحظةٍ ألا يرتكب الذنب، وليكن ذلك الاشتراط على هيئة دفعات، فيعاهد الله أَنْه هذا اليوم - ولمدة ساعات قليلة - لا يعصي الله ويُتغلب على هواه، ولا يفعل ما تعود عليه من المعاصي والرذائل، كلَّ ذلك بطلب العون والتَّسديد من الله.

### رابعاً: المراقبة:

يتَّبع مرحلة المُشارطة مرحلة المراقبة، ومعنى ذلك أن يراقب السالك إلى الله المدة التي تعاهد فيها مع مولاه، وعليه دوماً أن يذكر نفسه بها، وأن يحدث نفسه ألا يقوم بعملٍ يخالف الله، فليس من اللائق ألا يفي بشرط بسيطٍ كهذا، وشيئاً فشيئاً سينصرف الشيطان عنه، فقد جاء في الحديث القديسي: «إِنَّمَا يسكنُ جناتَ عَدِّ الَّذِينَ إِذَا هُمْ بِالْمُعَاصِي ذَكَرُوا عَظَمَتِي فِرَاقِبُونِي، وَالَّذِينَ انْحَنَّتْ أَصْلَابُهُمْ مِنْ خَشْيَتِي، وَعَزَّزَتِي وَجْلَالِي، إِنِّي لِأَهُمْ بَعْذَابَ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَهْلِ الْجَوَعِ وَالْعَطْشِ مِنْ مَخَافِي صَرَفْتُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ»<sup>(٣٥)</sup>.

## **خامساً: المحاسبة:**

وهي أن تحاسب نفسك لترى هل أديت ما اشترطت على نفسك؟ وهل خالفت المولى المنعم عليك فيما جعلته عهداً بينك وبينه؟ فإن حصل التوفيق فعليك بتأدبة الشكر والمواصلة على هذا الطريق، والمواظبة شيئاً فشيئاً حتى يكون ذلك الأمر سهلاً ويسيراً عليك، وإذا حدث في أثناء المحاسبة تهاون فاستغفر الله واطلب العون منه.

## **المواهش:**

- (١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
- (٢) سورة يونس ﷺ، الآيات: ٩-٨.
- (٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
- (٤) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
- (٥) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.
- (٦) بحار الأنوار، جزء ٧٧، باب مواعظ أمير المؤمنين وخطبه، الخطبة ٢١.
- (٧) سورة الشمس، الآيات: ٦-٩.
- (٨) سورة الانفطار، الآية: ١٤.
- (٩) الكافي، الجزء ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب محاسبة العمل، حديث ٢٠.
- (١٠) المفردات للراغب الأصفهاني، ص ٨٤٩.
- (١١) البحار، كتاب الإيمان والكفر، الجزء ٢٧، الباب ٤٦، باب ترك الشهوات والأهواء.
- (١٢) سورة الفرقان، الآيات: ٤٣-٤٤.
- (١٣) ميزان الحكمة، الحديث الرابع.
- (١٤) غرر الأحكام، الحديث ٨٧٦.
- (١٥) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

- (١٦) سورة يس، الآية: ٦.
- (١٧) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.
- (١٨) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
- (١٩) الكافي، الجزء ٢، باب الإيمان والكفر، باب اثبات الهوى، الحديث ٢.
- (٢٠) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
- (٢١) الأربعون حديثاً، صفحة ٢١٠.
- (٢٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
- (٢٣) سورة الحديد، الآية: ٢٢.
- (٢٤) سورة الجاثية، الآية: ٢١.
- (٢٥) الكافي، الجزء الثاني، باب التفكير، الحديث الأول.
- (٢٦) الكافي، الجزء الثاني، باب التفكير، الحديث الثالث.
- (٢٧) الكافي، الجزء الثاني، باب الطاعة والتقوى، الحديث الرابع.
- (٢٨) الكافي، الجزء الثاني، باب الصبر، الحديث ٧.
- (٢٩) الكافي، الجزء الثاني، باب اجتناب المحaram، حدیث ٤.
- (٣٠) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
- (٣١) الكافي، الجزء الثاني، باب اجتناب المحaram، الحديث ١.
- (٣٢) الكافي، الجزء الثاني، باب التفكير، حدیث ٢.
- (٣٣) الأربعون حديثاً، الحديث ١، صفحة ٣٣.
- (٣٤) الأربعون حديثاً، صفحة ٣٥.
- (٣٥) كتاب الأخلاق، للسيد عبد الله شبر، صفحة ٣٢٣.

# المنهجية الصحيحة لدراسة العلوم الدينية

(الحلقة الأولى)

«محاضرة ألقاها ساحة العلامة الشيخ معين  
دقيق العامل<sup>ي</sup> في الحسينية البحرينية في  
قم المقدسة بتاريخ ١١ / ذوالقعدة / ١٤٢٦هـ  
الموافق ١٤ / ٢٠٠٥ / ٢٠٠٥م».

بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلاة وأتم التسلیم على المبعوث رحمة للعالمين،  
سيّدنا ونبيّنا محمدٌ وعلى الهداة المهديّين، من آل الطيّبين الظاهرين.

روى الشيخ الطبرسي في (الاحتجاج) عن مولانا الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في باب التفضيل والماضلة بين العالم والعبد: «يُقال للعبد يوم القيمة: نعمَ الرجل كنتَ، هُنْتَكَ ذاتُ نفسكَ، وكفيتَ مؤنتكَ، فادخل الجنة».

لا شك ولا ريب أن هذا منصبٌ عظيمٌ تشرأب له الأعناق، وهو دخول الجنة،  
لكن فوق كل مقام يوجد مقام أعلى منه، ثم يقول: «ألا إن الفقيه من أفاض على  
الناس خيره، وأنقذهم من أعدائهم، ووفر عليهم نعم جنان الله تعالى، وحصل لهم  
رضوان الله تعالى، ويُقال للفقيه: يا أيها الكافل لأيتام آل محمد، الهادي لضعفاء  
محبيهم ومواليهم، قف حتى تشع لكل من أخذ عنك أو تعلم منك، فيقف فيدخل  
الجنة معه فثاماً وفثاماً - حتى قال عشرات - ، وهم الذين أخذوا عنه علومه،  
وأخذوا عنّ أخذ عنّه، وعمن أخذ عنّه إلى يوم القيمة»<sup>(١)</sup>.

هذه هي فضيلة الإنسان العالم، وهو الفقيه الحق بنظر مولانا الإمام الرضا عَلَيْهِ الْكَفَافُ، إلا أن الوصول إلى هذا المنصب والمقام له مقدمات، منها ما يرتبط بالمقدمات الفكرية والعلمية، ومنها ما يرتبط بالمقدمات المنهجية، وللأسف الشديد في عصورنا المتأخرة هناك إبداع على مستوى المقدمات الفكرية والعلمية، إلا أنه يوجد خلل على مستوى المقدمات المنهجية، فلا توجد ضابطة على أساسها يسير طالب العلوم الدينية من أول خطوة يخطوها في هذه الحوزة إلى أن يرجع إلى بلاده ويصبح مرجعاً يستفاد منه، بل إذا ضربنا مثلاً على ذلك - على مستوى المقدمات، بل هو يسري في الحقيقة إلى جميع مراحل الدراسة - وهو أنه نجد أن الطالب إذا أراد أن يختار الأستاذ يسأل عادةً أهل الفضل والعلم، وبعد جمع أجوبة هؤلاء لن يحصل على نتيجة واحدة، بل كل واحد منهم يشير إلى شخص، فيبقى الطالب ضائعاً بين هذا وذلك إلى أن يعتمد على تجربته الشخصية، والتي قد يصل فيها وقد لا يصل، والحال أنه يوجد في نصوصنا وروایاتنا الموروثة عن أهل بيت العصمة ما يضع الحلول لهذه المشكلة وما يوفر على الطالب جهد التجربة، وكذلك الحال بالنسبة للمادة العلمية، وكذا الحال في كيفية تحصيل العلم؛ فإن التراث الموجود لدينا في وضع ضوابط لهذه الأمور - سواءً في النصوص الشرعية أو في سيرة السلف الصالح من علمائنا - لا يضاهيه تراثٌ حتى في الجامعات الأكاديمية الحديثة التي تطور فيها الجانب المنهجي إلى مراتب عالية، مع هذا نجد أنه يوجد في تراثنا الكبير مما يستطع أن يشكل منه الطالب منهجيةً عن طريقها يسير في سيرها العلمي في هذه الحوزة، لكننا لم نلتفت إلى هذا التراث، لذا نجد أن كثيراً من طلبة العلوم الدينية في عصرنا هذا عندما يأتون من المعاهد الأكاديمية والجامعات يؤخذون على حوزاتنا الضعف الموجود في المنهجية، وفي الحقيقة هذه المؤاخذة ينبغي أن ترد علينا كأفراد لا على الحوزة التي

لها تراثٌ ومخزونٌ منهجيٌّ في غاية القدم، فإنه بقدم التحرير على العلم كان هناك تحرير على المنهجية، لكننا في زماننا هذا غفلنا عن الكثير منها.

### مواصفات التحصيل العلمي الناجح:

يمكن أن نقسم هذه المواصفات إلى طائفتين من المواصفات:

**الطائفة الأولى:** ترتبط بالبعد الفكري والعلمي.

**والطائفة الثانية:** ترتبط بالبعد الأدبي والمعنوي.

وإذا اجتمعت هذه المواصفات بكلتا طائفتها حينئذ يُقال لهذا المحصل إِنَّه محصلٌ ناجحٌ، ويُقال لهذا التحصيل العلمي بِأَنَّه تحصيلٌ علميٌّ ناجحٌ.

### المواصفات المرتبطة بالبعد الفكري والعلمي:

(١) الاستحضار للمطالب العلمية:

الإنسان الذي يكون ناجحاً في تحصيله العلمي لا بد أن يكون مستحضرًا للمطالب العلمية، والمراد من الاستحضار ليس هو الاستحضار التفصيلي والجزئي لكل مفردات هذا الكم الهائل الذي أخذه من بداية تحصيله العلمي إلى نهايته، وإنما المراد أن يكون ضابطاً وملتفتاً إلى كليات وأسس هذه الأمور التي حصل عليها في سيره العلمي.

(٢) القدرة على تلقين الغير:

هناك عملية تفاعلٍ بين جانب التلقّي وجانب الإلقاء، هناك ملازمةٌ بين اختمار وتبلوّر الأفكار العلمية الدقيقة، ووضوحاً لها بصورةٍ كاملةٍ لدى المحصل العلمي

الناجح، وبين القدرة على الإلقاء، فنستطيع من خلال قدرة المحصل العلمي على تلقين الآخرين أن نستكشف أن هذا الشخص هل تبلورت المعلومات في ذهنه وكملت أم لا؟

### ٣) الإحساس الملمس بالتطور العلمي بين فئة وأخرى:

على الطالب المحصل بعد مرور فترة معينة من مجئه إلى الحوزة أن يرجع إلى نفسه ليرى هل يوجد عنده إحساس بالتطور أم لا؟ وعلامة الإحساس بالتطور أن يفهم أن هناك قضايا قد أصبح جاهلاً بها ولم يكن سابقاً ملتفتاً إلى جهلها بها، فكلما فهم الطالب مطلباً من المطالب تنفتح آفاقه نحو مجاهيل، ويدرك أنها تحتاج إلى إجابة، وهذه هي آية وعلامة التطور العلمي.

### ٤) المداومة والاستمرار:

المداومة والاستمرار تقتضي أن يكون الأمر الأول لدى الطالب هو التحصيل، وعلامة المداومة أن يقول الطالب لكل شيء إنه عنده درس، وهي أحد الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى التوفيق وعدم الابتلاءات والانشغالات في عملية الدراسة.

### المواصفات المرتبطة بالبعد الأدبي والمعنوي:

#### ١) النوصول إلى لذة العلم:

يُعقل أنَّ الشيخ الطوسي رحمه الله كان يسهر الليل بطوله يفكّر في مشكلةٍ وعوicحةٍ من المشكلات العلمية، وكان إذا أصابه النعاس يرش الماء على وجهه ويقول: إن النعاس من الحرارة، والماء يطفئ الحرارة، فإذا وصل إلى نتيجة في هذه المسألة يقفر في الغرفة كالجنون ويقول: أين الملوك وأبناء الملوك من هذه اللذة؟!

من شَعَرَ في الحوزة بهذه اللذة في كلّ موقعٍ من مواقع الحياة يصبح البحث العلميُّ غريزةً من الغرائز التي جُبِلَ عليها، ولا يستطيع أن يتخلّى عنها أمام الانشغالات الوظيفية والاجتماعية والسياسية.

والشعور باللذة العلمية هو الذي يعطي عنصر المداومة والاستمرار، حيث يشتاق الطالب إلى ساعة البحث والمطالعة، حتّى أنَّ الشیخ محمد جواد مغنية كان يذكر في تجربه أنَّه يتمنّى أن يكون من جملة النعم الإلهية في الجنة البحث العلميُّ.

#### (٢) انعكاس الجانب العلمي على الجانب العملي:

وهذه الخصلة قد رَكَزَتْ عليها الروايات بكثرة، الإنسان الذي لا ينعكس ما يقرؤه وما يتلوه على جوارحه، معناه أنَّه لا يوجد عندَه علمٌ حضوريٌّ في هذه الطالب التي قرأها، أي لم يقتنع بها، فكيف يستطيع أن يقنع الآخرين بها؟! إذ لو أنَّه اقتنع بها لما أمكن أن تختلف عن عمله، فإذا وصلت المعلومات بحقيقة وبراهينها واقتنع بها هذا المحصل سوف تنعكس على جوارحه قهريًا.

#### (٣) عدم التباكي في المجالس والأندية:

لا ينبغي للإنسان أن يتصدّى للكلام في كلّ مجلسٍ؛ لأنَّ هذه الصفة معاكسةٌ ومضادةٌ للعلم الحقيقي، وإنما هي حالةٌ من الغوغائية والتمويه على الآخرين ليجرّ النقص الموجود عندَه.

#### (٤) الانضباط بقواعد الدراسية:

مسألة الانضباط بالوقت ليست مشكلة الحوزة فقط، بل هي مشكلة المجتمع الإنساني في الواقع، قال تعالى ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ

**وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**<sup>(٢)</sup>، في الآية المباركة صدق الوعد قدّم على الرسالة وعلى النبوة، ويُذكّر في علم البلاغة أن النكتة الأساسية للتقديم هي الأهمية، فبنظر المتكلم - وهو الباري عز وجل - أن صدق الوعد شيء في غاية الأهمية، وحوزاتنا - بحسب التنظير - ينبغي أن تتبع منهج الأنبياء، فإن المنهجية التي تستفيدها من تجارب العلماء ومن نصوص أهل البيت عليهما السلام أحد أركانها تنظيم الوقت، فإذا لم يكن الوقت منظماً لا نستطيع تطبيق المنهجية الصحيحة، وهذه الصفة - وهي المحافظة على المواعيد - ترجع إلى صفة الشعور باللذة، فالإنسان الذي شعر بلذة العلم يشتق إلى الشيء الذي يلتذّ به، فيحاول أن يأتي في أول الوقت بالنسبة لدرسه العلمي.

هذه هي المواقف الإجمالية للتحصيل العلمي الناجح.

هناك رواية عن أمير المؤمنين علیه السلام تشير إلى أكثر هذه المواقف، قال علیه السلام:

«طلبة هذا العلم على ثلاثة أصناف، ألا فاعرفوهم بصفاتهم وأعيانهم، صنف منهم يتعلّمون للمراء والجدل، وصنف منهم يتعلّمون للاستطالة والختل، وصنف منهم يتعلّمون للفقه والعمل، فأمّا صاحب المراء والجدل تراه مؤذياً محارباً للرجال في أندية المقال، قد تسرب بالتخشع، وتعالى من الورع، فدق الله من هذا خيزومه، وقطع منه خيشومه، وأمّا صاحب الاستطالة والختل، فإنه يستطيل على أشباهه من أشكاله، ويتواضع للأغنياء من دونهم، فهو لحلوائهم هاضم، ولدينه حاطم، فأعمى الله من هذا بصره، وقطع من آثار العلماء أثره، وأمّا صاحب الفقه والعمل، تراه ذا كابة وحزن، قد قام الليل في حندسه، وقد انحنى في برنسه، يعمل ويخشى خائفاً وجلاً من كل أحد إلا من كل ثقة من إخوانه، فشد الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيمة أمانه»<sup>(٣)</sup>.

هذه هي نظرية أمير المؤمنين عليه السلام في تصنيف طلاب العلم، فلنسع ولتر في أي صنف من هذه الأصناف ندخل ونسلك.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الصنف الثالث الذي ورد ذكرهم في كلام أمير المؤمنين عليه السلام من الفقهاء والعلماء، رب زدني علمًا وعملاً وأحقني بالصالحين، وصل اللهم على سيدنا محمد وآلته الطيبين الطاهرين.

### المواهش:

- (١) الاحتجاج، ج ١، ص ٩.
- (٢) سورة مريم عليه السلام، الآية: ٥٤.
- (٣) الخصال للصدوق، ص ١٩٤.

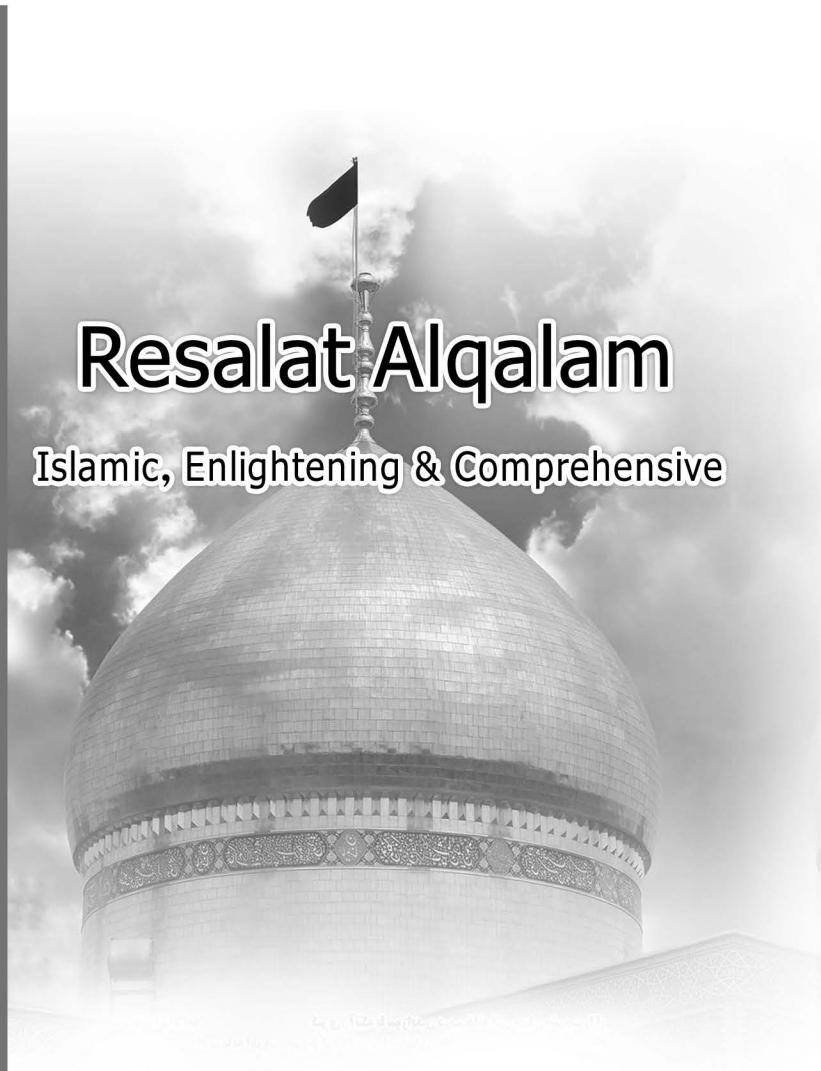
## ضوابط قبول المقالات

ضمن دعوة **رسالة القلم** الإخوة الطلاب للمشاركة بكتابتهم وبحوثهم، تعرض بين أيديهم الضوابط المفترض توافقها في المقالات والبحوث المقدمة، وهي كما يلي:

- \* الكتاب الأساسيون للمجلة هم طلبة العلم البحرينيون، سواءً في مدينة قم المقدسة أم غيرها، وأماماً قبول مقالات غيرهم فراجع إلى هيئة التحرير.
- \* أن يكون المقال مصروف الحروف على برنامج الورود، ويُسلّم إلى رئيس التحرير على قرصٍ أو غيره، أو يُرسل على بريده الإلكتروني:  
[Ali.karbabadi@hotmail.com](mailto:Ali.karbabadi@hotmail.com)
- \* أن لا يقل المقال عن سبع صفحاتٍ (A4) بحجم خطٍ (15).
- \* أن يكون المقال علمياً، ويراعي الضوابط الفنية من تحرير المصادر والعنوانين الجانبيَّة، وأن لا تكون فيه استطراداتٌ مخللة بوحدة الموضوع، وما ماثل ذلك.
- \* مراعاة عدم وجود الأخطاء المطبعية والإملائية والفنية قدر الإمكان.
- \* تفضيل مراعاة الكتابة بالخطوط والرموز الخاصة بالمجلة، وكذلك الأسلوب الخاص للترقيم والحواشي، ويطلب ملف الورود المنسق وخطوط المجلة من أعضاء هيئة التحرير.
- \* للمجلة الحق في نشر المقال وعدمه، وإجراء بعض التعديلات الضرورية إذا لزم الأمر، مع مراجعة الكاتب قدر الإمكان.



- General Supervisor & Executive Manager:  
Abdulla Ali Al daqaq
- Editor in Chief:  
Ali Ahmad Alkarbabadi
- Managing Editor:  
Ali Ahmad Aljofairi
- Publishing Committee:  
Abdulraoof Hassan Alrabia  
Aziz Hassan Salman  
Fadhel Abduljaleel Al Zaki  
Ghazi Abdulhassan



# Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

A Periodical Magazine Issued by the  
Bahraini Students  
of the Educational Hawza the  
Holy City of Qom